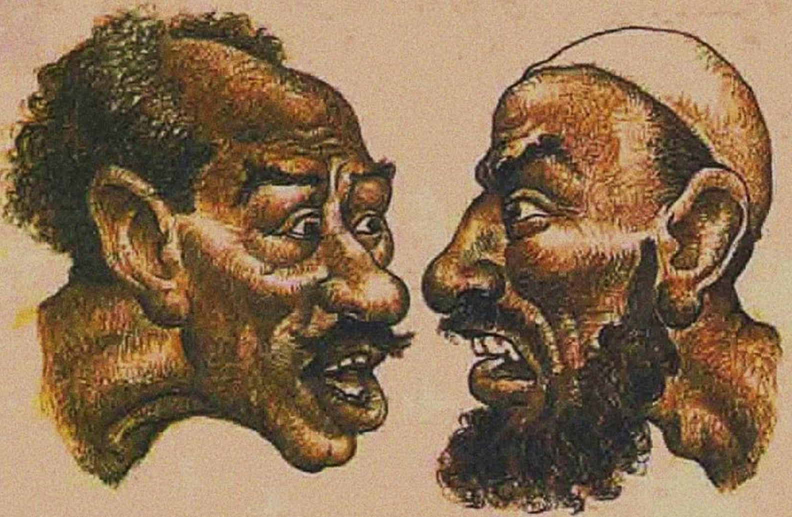


النبي والفرعون

تأليف : جيلز كيبل

ترجمة: أحمد خضر

مكتبة مدبولي

النبي و الفرعون

النبي والفرعون

تأليف : جيلز كيبل
ترجمة: أحمد خضر

مكتبة مدبولي

الفصل الأول

من محنة إلى أخرى ١٩٥٤/١٩٦٦

- في البداية كانت المعتقلات.
- مؤامرة ١٩٦٥.

فى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ استولى عبدالناصر ورفاقه على السلطة فى مصر. وفى ٩ ديسمبر ١٩٥٤، نفذ حكم الإعدام شنقا فى ستة من زعماء جماعة الإخوان المسلمين، بينما انهار آلاف آخرون من أعضاء الجماعة من جراء التعذيب داخل السجون. وطوال ربع القرن الذى انصرم منذ إنشاء الجماعة على يد حسن البنا عام ١٩٢٨، لم يتعرض أعضاؤها لمثل هذا القمع العنيف *.

وبالرغم من هذا فإن الدولة التى أسسها الضباط الأحرار اختلفت تماما عن النظام الملكى السابق. فقد سعى عبدالناصر لتعبئة المجتمع المدنى من القاعدة إلى القمة، لتحرير مصر من الاستعمار ومن آثاره وتحويل البلاد إلى أمة عصرية ومستقلة. وتعبئة المجتمع كانت تعنى أولا وقبل كل شيء كفالة الا ترتفع أية أصوات معارضة تناهض أهداف النظام. ومع ذلك، فعندما تم حل كل الأحزاب السياسية بقرار من السلطة فى ١٦ يناير ١٩٥٣، استثنى القرار جماعة الإخوان المسلمين. وقد كان الإخوان بطبيعة الحال، من الناحية القانونية، مجرد جمعية وليس حزبا، إلا أن الأهم من ذلك أنهم كانوا يمثلون القوة الشعبية الأكثر تنظيما

* هناك ثبت بأهم الأحداث الرئيسية فى حياة الإخوان، وتاريخ كل منها، فى الكرونولوجيا الملحقة بهذا الكتاب.

فى البلاد ، وأن النظام لم يكن فى مقدوره ، بعد ستة أشهر فقط من وجوده فى السلطة ، أن يغامر بمواجهة مباشرة مع الجماعة .

وكان الصراع مع ذلك محتوما ، حتى على الرغم من ترحيب الإخوان فى البداية بحركة ٢٣ يوليو. فلم يكن لدى الضباط أدنى نية للسماح للإخوان بالتعبير عن المطالب الشعبية ، تلك المطالب التى كان من المفترض أن تنحصر داخل قنوات الحزب الواحد الذى كانت مهمته هى حشد الجماهير خلف الحكومة . وبعد عدد من الأحداث ، تم القضاء على أى رابطة كانت تربط بالإخوان بالدولة ، على أثر محاوله أحد أعضاء الإخوان اغتيال عبد الناصر ، فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ ، بينما كان الرئيس يلقى خطابا فى الاسكندرية ، حيث سمعت البلاد كلها أصوات طلقات الرصاص فى أجهزة الراديو.

وقد حملت الجماعة النظام مسئولية المؤامرة وادعت أن هذا الهجوم كان من تدبير رجال البوليس . إلا أن أحدا لم يصدق ذلك ، فأضرمت الجماهير الغاضبة النار فى مركز الجماعة الرئيسى ، وألقى القبض على قادتها ، حيث تعرضوا لشتى صنوف التعذيب ، وحرض عملاء الحكومة الجماهير ضد أعضاء الجماعة .

إذن فقد دمرت الدولة ، بعد ٢٦ أكتوبر مباشرة ، آخر تنظيم مستقل كان يقف كعقبة بينها وبين الجماهير. حيث انعقدت رغبة الضباط على أن يكون عملهم هذا حاسماً .

ورغم أن الدولة قد حسمت هذه المسألة ، فقد لجأت ، مع هذا ، خلال ثلاثة عقود من حكمها على يد عبد الناصر والسادات ، إلى الرصاص والمشانق لإسكات المجاهدين الإسلاميين فى أربع مناسبات أخرى فى أعوام ١٩٦٦ ، و١٩٧٤ ، و١٩٧٧ ، و١٩٨١ . فتحطيم جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤ ، قد أخفق فى القضاء على ذلك التيار الفكرى الذى دشّنه حسن البنا وأتباعه .

وفى عزلة معتقلات النظام الناصرى ، طور الإخوان المسجونون استراتيجية لمحاربة تلك الحكومة التى لمسوا طابعها الشمولى سريعا . فكتب المفكر الإسلامى ، سيد قطب ، وهو الذى أعدمه عبد الناصر عام ١٩٦٦ ، مؤلفا فى

السجن أخضع فيه الدولة للتحليل على أساس المقولات القرآنية . وقد تبنت هذا الكتاب وجهات نظر متباينة ، تفتت على أساسها حركة الإسلاميين .

هذا وقد سعت الاتجاهات المختلفة فى حركة الإسلاميين للتعبير عن المعارضة المدنية فى المجتمع لهذه الدولة . فاللغة والمقولات التى تبناها سيد قطب سلبت لب قطاعات عريضة من المجتمع كانت لها معاناتها وإحباطاتها وحاجاتها اليومية ، وحولت أفرادها إلى معارضين لحكومة مابعد ١٩٥٢ . ودراسة نقدية للجدل الدائر داخل حركة الإسلاميين قد تساعدنا على فهم الكيفية التى كانت تنظر بها قطاعات هامة من المجتمع للدولة .

● فى البداية كانت المعتقلات :

أعيد بناء فكر الإسلاميين بعد ١٩٥٤ أساسا فى المعتقلات ، تلك المعتقلات التى أحس بوطأتها قطب ومريديه ، من أجل صياغة العلاقة بين الجماعة والدولة . ولهذا السبب يجب تقييم خبرة الاعتقال بشكل أساسى ، قبل أن نتناول بالتحليل كتابات سيد قطب الرئيسية .

وقد وُضع معظم الإخوان فى سجن طرة ، الواقع فى أحد ضواحى جنوب القاهرة . حيث كانت ظروف الاعتقال جد مروعة . وأقام قطب ، أثناء فترة اعتقاله ، بصفة شبه مستمرة فى مستشفى السجن ، نظرا لمرضه بالسل . أما الإخوان فقد عاشوا ، تلك الفترة ، فى رعب من لجوء النظام إلى « حل حاسم » للقضاء على مصدر الإزعاج الذى مثله الإخوان له . وفى أواخر عام ١٩٥٧ ، أقنعتهم تطورات مختلفة بأنهم على وشك التعرض لعملية تصفية جسدية ، فى حل شكواهم من تفاصيل العمل اليومى (تكسير الصخور) . فقاموا فى الأول من يونيو بالامتناع عن الخروج للعمل الإجبارى ، وأغلقوا الزنازين على أنفسهم . وعلى أثر ذلك اقتحم جنود الجيش الزنازين حيث لقى واحد وعشرون من المعتقلين مصرعهم . وادعت السلطات أنها قد قمعت تمردا نظمه الإخوان داخل السجن .

وترك هؤلاء الشهداء الجدد بالإضافة إلى ضحايا مشانق ١٩٥٤ ، وحسن البنا نفسه ، أول الشهداء ، الذى اغتيل على يد بوليس الملك فاروق عام ١٩٤٩ — أثرا عميقا فى نفس الرجل الذى أخذ يكتب بلا هوادة من فراش مرضه ، حيث

روعت بربرية حراس السجن سيد قطب ، روعته لاإنسانيتهم حينما تركوا الجرحى ينزفون حتى الموت . حتى أن كثيرا من الشهود أفادوا بأنه قد فقد بسبب هذا الحادث آخر أوهامه الباقية عن الطابع الإسلامى لنظام عبدالناصر.

وأيّد قطب فى هذا أحد شباب الإخوان ، الذى شاركه بسبب مرضه أيضا ، زنزانته فى السجن . كان هذا الشاب هو محمد هواش ، وقد أعدم مع معلمه عام ١٩٦٦ . وطبقا لرواية أحد مؤرخى الإسلاميين ، وهو جابر رزق(٣٣) ، فقد تجلى النبى يوسف لهواش فى المنام وقال له « قل لسيد قطب إنى على يقين من أنه سوف يجد ما يبحث عنه » . هذا مع ملاحظة أن الآيات ٣٥ ــ ٤١ من سورة يوسف ، تصور سَجن النبى يوسف بين اثنين من الفتية . وفى الآيات يقول يوسف لتابعية المسجونين ، إن كل ماعبده الناس من دون الله مجرد أسماء لاقيمة لها ، وأما الحكم الحقيقى فلله وحده .

واعتقد سيد قطب أن حراس المعتقل وزبانية التعذيب فيه قد نسوا الله . وكانوا ، وفقا لرأيه ، يجهلون مبادىء العدالة التى أكدت عليها تعاليم القرآن ، وبهذا خرجوا على الإسلام . أو بمعنى آخر ، كفروا بالله . ومن ثم فإن الإخوان المسلمين المعتقلين كانوا وحدهم المسلمين الحقيقيين .

وبينما انشغل سيد قطب بإيجاد تفسير للأحداث التى وقعت فى المعتقل لكى يصلها برؤيته للعالم ، تلك الرؤية التى شرحها فيما بعد فى كتابة « معالم فى الطريق » ، بدأ المتعاطفون مع الإخوان المسلمين خارج السجون فى الاجتماع من جديد . حيث شكّل ، خارج المعتقل ، تنظيم غير رسمى لتقديم العون والمساعدة للأسر التى تعرض عائلها للسجن . و بالإضافة إلى طابعه الإنسانى والخيرى ، وفّر هذا التجمع لأعضاء الجماعة امكانية استمرار اتصالهم بعضهم ببعض .

وفى منتصف ١٩٦٥ أُفرج عن أعضاء الجماعة الذين لم يقدموا للمحاكمة ، وكان هؤلاء الأعضاء فى حاجة ماسة إلى المساعدة . فتولت هذه المهمة الإنسانية السيدة زينب الغزالى ، وأعالت السجناء المفرج عنهم . وقد تمكنت زعيمة السيدات المسلمات من خلال شبكة علاقاتها وسط المتعاطفين مع الإخوان من العمل كهمزة وصل لإعادة بناء التنظيم الذى كان قد تم حله شكليا عام ١٩٥٤ .

وفى عام ١٩٥٧ وبينما كانت تؤدى فريضة الحج ، التقت السيدة زينب الغزالى ، بالعديد من المنفيين المصريين ، وذلك بمباركة القادة السعوديين ، الذين كانوا يعارضون نظام عبدالناصر آنذاك . وفى مكة تعرفت على عبدالفتاح إسماعيل ، أحد قادة الإخوان ، وقررا توحيد جهودهم المشتركة (٣٢) .

وبينما كانت السيدة زينب الغزالى تقوم بتنظيم سلسلة من الندوات فى منزلها (١٢) ، بدأ عبدالفتاح إسماعيل ــ الذى اشتهر بأنه « الرجل الذى يؤدى صلواته الخمس فى خمس محافظات مختلفة » ــ فى التنقيب عن المتعاطفين مع الإخوان وتولى مهمة صقلهم ، بطول البلاد وعرضها .

وكان النظام قد أفرج عن حسن الهضيبى ، الذى خلف البنا كمرشد عام للإخوان ، لأسباب صحية عام ١٩٥٤ بسبب سِنّه المتقدمة . والهضيبى كان على علم بالجهود المبذولة لإعادة بناء التنظيم ، ورغم أنه قد أبدى موافقته على هذا العمل ، إلا أنه لم يساهم فيه بشكل مباشر .

ومع أن المجموعة التى كانت تلتقى فى منزل السيدة زينب الغزالى التفّت ، كما هو مفترض ، حول الدروس الدينية فقط ، إلا أن هذا لم يكن حال العديد من الخلايا الأخرى التى نشأت بشكل مستقل فى العديد من المحافظات . حيث ضمت هذه الخلايا إخوان سابقين ، كانوا فى الأغلب شبان هربوا من الملاحقات البوليسية السابقة : أى أنهم كانوا حديثى التجنيد ، يفتقرون إلى التدريب الكافى (١٨) .

وعقد أول اجتماع لهذه الخلايا المبعثرة فى عام ١٩٥٧ . وكان الغرض منه إجراء مناقشة جماعية حول الأسباب التى أدت إلى محنة ١٩٥٤ . إلا أن عملية إعادة تشكيل التنظيم لم تتجسد فى الواقع إلا مع بدايات ١٩٥٩ ، وهذا التنظيم الجديد لم يكتسب إلا فى عام ١٩٦٢ تلك الملامح التى سيظل يحملها لثلاث سنوات أخرى ، حتى قلم به المحنة الثانية التى أنزلها به النظام . وقد أطلعت العناصر النشيطة الجديدة التى كانت تحلم بالثأر من ماحدث للجماعة عام ١٩٥٤ ، بالإضافة إلى الآخرين الذين اهتموا بحضور الندوات التى كانت تقام فى منزل السيدة زينب الغزالى ، على آخر ماكتبه سيد قطب فى سجنه ــ أو بعبارة

أخرى ــ على المودة الأولى لكتابه «معالم فى الطريق». حيث أن السيدة ريب الغزالى كانت تزور بانتظام أختى سيد قطب، ومن خلال همزة الوصل هذه، كانت تصله تقارير منتظمة عن أنشطة «الندوة» ويرسل لهم فى المقابل كتاباته الشخصية. وكانت الصفحات الأولى من الكتاب قد قوبلت بحماسة شديدة فور الاطلاع عليها عام ١٩٦٢. حتى أن الهضيبى نفسه (والذى أصبحت وجهة نظره معتدلة إلى حد كبير بعد عام ١٩٦٦) أكد أن الكتاب قد أثبت صحة الآمال التى علقها على سيد قطب، الذى جسد فى هذه اللحظة «مستقبل الدعوة الإسلامية».

وكانت أكثر خلايا المجاهدين الشباب نشاطا فى الإسكندرية، ودمياط، والبحيرة والقاهرة. وقد شكل قادة هذه الجماعات هيئة إرشاد من أربعة أشخاص، وكانت هذه الهيئة تحتاج أكثر ماتحتاج إلى مفكر، إلى أيديولوجى. وعلى عكس ماتوضحه هذه الخلفية جاء الإفراج عن سيد قطب فى مايو ١٩٦٤ *. فانضم على الفور إلى أعضاء هيئة الإرشاد الأربعة. حيث أطلعوه على خططهم لقلب نظام الحكم بالقوة. وأخبروه أيضا، وفقا للاعترافات اللاحقة (التى انتزعت تحت التعذيب)، أنهم ينتظرون وصول أسلحة من المملكة العربية السعودية. ومهما كانت درجة صدق هذا الموضوع، فإنه من المعروف أن التنظيم أعيد تشكيلة بشكل سرى فى نهاية ١٩٦٤ حيث كان برنامجهم (المانيفستو) كتاب سيد قطب «معالم فى الطريق».

● مؤامرة ١٩٦٥

ليست هناك أى معلومات مؤكدة عن أحداث ١٩٦٥، أو بدقة أكثر، كانت هناك تناقضات هائلة بين روايات المصادر القريبة من الإخوان المسلمين وروايات المراقبين أو المؤرخين الآخرين الذين ينتمون لصفوف اليسار. فطبقا لرواية المجموعة الأخيرة (وبشكل خاص المؤرخ الناصرى عبدالله إمام) كان

---

* كان قطب قد تم العفو عنه، رسميا، «لأسباب صحية»، أثناء زيارة قام بها للقاهرة رئيس الحكومة العراقية (ويقول أصدقاء قطب الآن إن الإفراج عنه كان شركاً نصبه النظام للإخوان).

مرأى منه والتى لم تنجح فى شىء سوى فى أن تنمو عدديا ـ قدمت له « المؤامرة الجديدة للإخوان المسلمين » كبش فداء مثالى جعل القائد قادرا على توحيد الجماهير خلفه من جديد .

وهناك أيضا بعض الدلائل التى تشير إلى أن اكتشاف « المؤامرة » كان نتيجة ثانوية للصراعات العنيفة بين الأجهزة السرية المتعددة ، التى كانت تتسابق على تكديس السلطات المطلقة بيد مراكز القوى (التى لم تمثل فى الواقع سوى مجموعات سلطوية متصارعة فى بلد تحكمه سلطة رئاسية مطلقة) : فحاول كل منها أن يوحي للرئيس بعجز الأجهزة الأخرى عن كشف النقاب عن هذه المؤامرة . وفى هذه القضية ، كان هدف المخابرات العسكرية (أجهزة الأمن العسكرية) ، التى كانت خاضعة للمشير عامر ، إثبات عجز المباحث العامة (الاستخبارات العامة) ، الخاضعة لوزير الداخلية ، عن كفالة أمن رئيس الجمهورية . وقد تصدت أجهزة الأمن العسكرية (المخابرات العسكرية) ، تحت قيادة شمس بدران ، للعملية برمتها .

بدأت الأحداث يوم ٢٩ يوليو ١٩٦٥ بالقبض على محمد قطب ، شقيق سيد قطب وتابعه . وبدا التنظيم عاجزا عن الرد على هذا الهجوم . وفى ٩ أغسطس اعتقل سيد قطب نفسه ، ضمن العديد من الإخوان الآخرين . وفى ٢٠ أغسطس وقع عبد الفتاح اسماعيل وعلى عشماوى ، والثانى كان أحد المجاهدين الشبان ، فى كمين للبوليس بمحض الصدفة . وبعد أن اعترف عشماوى ، قبض على التنظيم بأكمله . وكانت عملية القمع تتم بلا رحمة . حتى وصل الأمر إلى محاصرة قرية كرداسة بالمدرعات فى ٢٢ أغسطس ١٩٦٥ .

وكانت هذه القرية ، القريبة للأهرام ، أحد معاقل الإخوان التقليدية ، حيث كانت بمثابة نقطة النهاية لشبكة القوافل التى تتوغل فى أعماق الصحراء الليبية ، وقد حملت هذه القوافل الخارجين على القانون ، سواء المهربين الذين يمارسون التجارة غير المشروعة مع ليبيا أو المعارضين السياسيين . وكان لدى الإخوان المسلمين قاعدة قوية هناك منذ الأربعينات ، حيث أقيمت معسكرات لتدريب المجاهدين فى الصحراء الغربية . وقد كفل سيطرة الإخوان على القرية

ذلك الصلح الذى عقدوه بين عائلتين متناحرتين كان قد نشب بينهما صراع دموى منذ أمد بعيد، بالإضافة إلى سيطرتهم على منصب العمودية . ولم تفعل الدولة شيئا يذكر للتأثير على قوة الإخوان فى القرية حتى أغسطس ١٩٦٥ ، عندما جاء ضابط من الشرطة العسكرية ، متخفى فى ثياب مدنية ، للقبض على أحد مواطنى القرية المشتبه فى عضويته فى تنظيم ١٩٦٥ . وعند فشل البوليس فى إيجاده ، أخذوا أخاه بدلا منه . وما كان من أهل القرية إلا أن احتشدوا حول قسم البوليس ، محاولين إطلاق سراحه . وفى الصباح التالى ، كانت كرداسة محاصرة بالمدرعات ، ونهبت منازلها ، وشُهر بأعيانها فى وسط البلدة . ثم اقتيد كل رجال القرية إلى السجن الحربى ، حيث تجرعوا شتى صنوف التعذيب . ولم يفرج عنهم إلا بعد شهر من هذه الحادثة(٣٣) .

ويشكل هذا النوع من التنكيل ، الوسيلة الأكثر شيوعا لإخضاع قرى صعيد مصر ، عندما يرفض مجرمو القرية الهاربون ، أن يدفعوا الإتاوات ، أو يشاركوا فى أحد الأنشطة التى تأخذ الحكومة على عاتقها مهمة القضاء عليها . ولعل استخدام هذا الاسلوب، فى تلك اللحظة ، لإخماد المعارضة السياسية فى هذه القرية ، يعطى بعض المؤشرات لقوة قاعدة الإسلاميين فى القرية .

وفى ٣٠ أغسطس ، استمع الرأى العام المصرى ، من خلال خطاب ألقاه عبد الناصر فى موسكو* ، إلى أن جماعة المسلمين هى القوة التى تقف وراء مؤامرة ضخمة كشفتها أجهزة المخابرات . وكان ضمن من اشتركوا معهم فى هذه المؤامرة ، كما ذكر الرئيس ، كل من مصطفى أمين ، الصحفى الليبرالى البارز الذى قبض عليه فى ٢ سبتمبر بتهمة التجسس لحساب الولايات المتحدة الأمريكية ، وقاتل مأجور اسمه حسين توفيق . وأزاح النظام فى طريقه كل العقبات التى أعاقت تعقب « المتآمرين » . وفى ٣١ أغسطس ، كان قد تم تفتيش حى بولاق الدكرور الفقير، وتمت الإغارة على معظم المحافظات خلال الأسبوع الأول من سبتمبر . ووظفت الدولة كل رجالها ، الدينيين ، والخطباء ، والكتاب ، بعد الملاحقات ،

* « رأس مال الإلحاد » ، الذى لم يكف الإسلاميون عن التأكيد عليه . فهم يرون أن مكان الخطاب فى حد ذاته يثبت أن الرئيس كان ينطق بأمر سادته الروس ، وينصح الولايات المتحدة والصهاينة ، الذين جمعهم بغضهم للإسلام .

للتشهير بالعناصر المحرضة على الفتنة . وألقى شيخ الأزهر، حسن مأمون ، خطابا فى الإذاعة أدان فيه الإخوان المسلمين « إرهابيى العصور الوسطى » . أما نواب مجلس الأمة وأعضاء الاتحاد الاشتراكى العربى فقد بح صوتهم من استنفار جماهيرهم ، فى محاولة لإثارة حماسهم ، حتى أنهم كانوا يساقون فى شاحنات عسكرية لتنظيم المؤتمرات الجماهيرية . وقد انهالت وسائل الإعلام ، فى سعيها لإنجاز هذه المهمة الخاصة ، بأسوأ النعوت على المتهمين ، الذين أدينوا حتى قبل إجراء أى محاكمة صورية ، وبدا الأمر وكأنه مسرحية هزلية . وبعد أن أعاد الكورس القديم الحديث عن المؤامرات والتفجيرات التى دبرها المجرمون ، كشفت الصحف عن الروابط الخارجية « للمتعصبين الدينيين » . فسعيد رمضان . صهر حسن البنا ، وكان يحيك المؤامرات من عمان ، بالأردن ، بناء على أوامر تلقاها من حزب السنتو* . وكان القائدان الرئيسيان للمؤامرة فى مصرهما الأخوين قطب ، بينما ضبطت نسخ من « معالم فى الطريق » و« جاهلية القرن العشرين » ، والتى كان البوليس يتوصل لمعرفة مكانها غير تعذيب بشع للمتهمين ، فى كل هجمة بوليسية . وعلاوة على ذلك ، سحق النشاط البوليسى كل خلايا التنظيم ، الذى تم تشييده من أجل الاستخدام الأمثل لملكات أعضاءه ، فتخصص الكيميائون فى صنع القنابل ، والطيارون فى جلب السلاح والذخائر من الخارج ، .. إلخ .

وقد تعرض المعتقلون لكافة أنواع التعذيب . فاعترف على عشماوى ، أحد الأعضاء الشبان فى قيادة التنظيم ، وأرشد عن كل شركاءه . والمحكمة ، التى اكتسب اللواء الدجوى شهرة واسعة من خلالها ، قدمت للمتهمين كل الضمانات التى تميز القضاء العسكرى فى دولة دكتاتورية حاولت تدمير المتهمين من خلال التعذيب . ورغم الحملة التى نظمت فى عدد من البلدان الإسلامية لإنقاذ قطب ، إلا أنه قد تم إعدامه يوم الاثنين ، ٢٩ أغسطس ١٩٦٦ ، بين تلميذيه الأثيرين ، محمد هواش ، وعبد الفتاح إسماعيل ، منظم الإخوان . وقد شاهد المصورون

---

* الحلف المركزى (السنتو) Centeral treaty Organization ، تأسس عام ١٩٥٥ ، بعضوية كل من انجلترا ، وباكستان ، وإيران حتى ١٩٧٩ . وكانت الولايات المتحدة عضواً منتسباً فيه .

العيش معا على سنة الرسول :

لم تخلص مؤسسة الزواج من السلوك الاجتماعى الهش لجماعة المسلمين . والواقع أن أول العمليات البوليسية الواسعة ضد أعضاء الجماعة يبدو أنها قد تمت فى أعقاب تلقى البوليس لعدة بلاغات من أسر أختفت بناتها وانضممن للجامعة ، وتزوجن هناك وفى حقيقة الأمر ، فإن جماعة شكرى على خلاف معظم التنظيمات السرية الإسلامية الأخرى ، كانت تضم لنساء فى عضويتها ، حيث يتزوجن من خلال الجماعة وفقا لطقوس خاصة و ينجبن أطفالا ، وهذا مايكفل بقاء المسلمين الحقيقيين .

وقد مثلت « غواية النساء » بالنسبة للرأى العام عملا مشينا ، وأمدت الصحف المصرية بمادة وفيرة من العناوين والصور الفوتوغرافية . وطبقا لروايات الصحف ، كان السينار يو دائماً واحداً : إغواء الفتيات من خلال انبهارهن بحديث شكرى أو أحد أتباعه ، وفتاة صغيرة تهجر منزل العائلة ودفأها ، وتهجر دراستها ، وتذهب لتعيش بين أعضاء الجماعة . وهذه إحدى القصص ، التى رواها أحد الشهود الذين وقفوا أمام المحكمة ، يرويها والد حزين اختفت اثنتان من بناته . والشاهد ، رجل فى الخامسة والأربعين ، يعمل بشركة لحلج القطن بالفيوم . وكان يتكلم بلهجة ريفية .

« العام الماضى ، قبل العيد الصغير بقليل ، جاءت ابنتى سامية فى أجازة الجامعة ، و بعد ذلك جاءت إلى اختها الصغيرة راو ية وقالتا لى « خذنا معك لنشاهد القاهرة » . وقد أخذتها إلى القاهرة وتركتها بمنزل أختها الكبرى ، التى كانت قد تزوجت وأقامت هناك ، ورجعت ثانية إلى الفيوم لكى أعيد هناك » .

بعد ذلك قالت لى أمها« إذهب لتعرف لماذا لم تعد البنتان للمنزل بعد » . فذهبت إلى القاهرة وسألت محمود ، زوج أختها الكبرى ، « أين البنات ؟ » فأجاب « أخذهما أخوهم سيد ليرجعهما للبلدة » ، فقلت له « لقد وصلت لتوى من البلدة ، وهم لم يصلوا إلى هناك » فقال لى « ربما تكونوا قد سلكتم اتجاهين متضادين » . و بعد ذلك عدت إلى الفيوم ، حيث قالت لى أمهم « أين البنتان ؟ اذهب واحضرهما بأى شكل ، حتى لو كان الشيطان نفسه هو الذى أخذهما » .

فذهب ثانية إلى محمود وقلت له « إن البنات لم يعدن إلى البيت » فقال لى « ماذا تريدنى أن أفعل فى ذلك » « لقد أخذهم أخوهما » . واستمر هذا الحال لمدة ثلاثة أسابيع ، جيئة وذهاباً ،حتى قال لى محمود أخيرا « إذا كنت تريد أن تعرف مكانها ، فاذهب وقابل شخص اسمه مصطفى الجمل فى أم المصريين » فذهبت وقابلته فقال لى « انس هذا الموضوع ، فإنهما متزوجتان الآن ، وقد تزوجاهما رجلان مسلمان » . بعد ذلك — لقد كان ما حدث فى غاية البشاعة — قال لى « نحن نفضل المسلمين عن الكفار» فقلت له « حسنا ، أنا أريد أن أراهما فقط . فكيف يمكننى أن أعرف أنهما بخير؟ » فقال لى اذهب وتعال بعد ثلاثة أيام » . وفعلت ذلك ، إلا أنه قال لى مرة أخرى « تعال فى الأسبوع القادم » . فرجعت إلى الفيوم . لكن أمهما لم تتحمل ذلك ، فرجعت ثانية إلى مصطفى هذا ، الذى قال لى « انتظر لحظة » ، وبعد ذلك دخل على هذا الرجل والذى كان اسمه مصطفى الجمل عبد الفضل . وقد تكلمت معه فقالى لى « أى بنات ، انهما متزوجتان » . فقلت له « هل تسمى هذه رحمة ؟ يهربان من المنزل ثم تتزوجان ؟ » . واحداهما لم تتجاوز الرابعة عشر فقط » فقال لى « هذا ما قد حدث » . وبعد هذا ذهب الأب إلى البوليس . وفى نهاية شهادته ، صاح به ابنه ، سيد ، من قفص المتهمين « ألا تخجل ياأبى ، من تمثيل هذه اللعبة التى دبرها البوليس » . وبالطبع فإن الزواج ، كما مارسه أعضاء جماعة المسلمين ، لم يكن يستلزم تلك العقود البالغة التعقيد والشائعة فى المجتمع المصرى لكى تضمن لأسرة العروس أن يقوم العريس بإعداد منزل الزوجية . لقد كان زواجا إسلاميا ، كل ما يشترط لإتمامه موافقة الزوجين ووجود حضور الشهود .

وبقدر ما هو معروف ، فإن شكرى نفسه كان له زوجتين . وفى بعض الأحيان كان العريس المرتقب يعيش خارج مصر ، فى أحد البلدان المصدرة للنفط حيث كان يرسل النقود من هناك لصالح جماعة المسلمين . وربما لا تشاهد عروس المستقبل من عريسها سوى صورته الفوتوغرافية . وأحيانا كانت تتعقد الأمور ، عندما لا يجد الزوجان مفراً سوى العيش مع أعضاء آخرين من الفرقة فى نفس الغرفة المفروشة التى تؤجرها الجماعة . وفى هذه الغرفة ، ونتيجة للازدحام

الشديد ، لم يكن هناك حل سوى إقامة أكثر من زوجين فى نفس الغرفة ، حيث لم يكن يفصل بينهم سوى ستارة معلقة .

هذه التفاصيل ، بالإضافة إلى الحق الشرعى الذى نسبته الصورة الشعبية لشكرى ، خلقت صورة يانوسية * ذات وجهين للنساء المنقبات المنتميات إلى الجماعة ، الوجه الأول كان لنساء شديدات الاحتشام يخفين وجوههن من آمام عدسات المصورين ، والآخر كان لنساء يخفين تحت قناع الورع الدينى المفرط فسق لا حدود له ، هذا الفسق كان شكرى هو زعيمه المفترض .

وقد زعم شكرى أنه فى حالة انضمام أحد الزوجين للجماعة ورفض الطرف الآخر ، فإن رباط الزوجية الذى يجمع بينهما يصبح باطلا ومحرما و بالتالى يحل لعضو الجماعة أن يعقد زواجا آخر . وإذا كان هذا العضو رجلا ــ كما فى حالة المهندس فتحى عبد السلام * * ، الذى أجبر زوجته على أن تبيع الثلاجة ، والغسالة ، وموقد البوتاجاز ، و بعد ذلك هجرها وذهب ليعيش مع إحدى عضوات الجماعة فى المنصورة ــ فإن القصة قد تثير بعض الشفقة على الزوجة المهجورة ، بالطبع ، لكنها لا تثير اعتراضا حقيقيا . فالإسلام يسمح للرجل بأن يجمع بين أربع زوجات ، والطلاق إجراء سهل للغاية . إلا أن نفس الخطوة إذا اتخذتها المرأة فهى حرام . وخلال المحاكمة طرح عليه سؤال عن موقفه من الحالة السابقة . فأجاب شكرى بأنه يجوز للمرأة أن تطلب الطلاق بسبب الأختلاف فى العقيدة ، لكن إذا رفض هذا الطلب ، فإنه لا يجوز لها الرجوع إلى زوجها . وأكثر من هذا فإنها ، إذا أرادت ، تستطيع الزواج من أحد أعضاء الفرقة ، لأن الروابط الزوجية الجاهلية ليس لها قيمة داخل جماعة المسلمين .

جعلت جماعة المسلمين إذن من الزواج أمرا ممكنا و وفرت للأزواج الشباب مكانا للعيش معا ، وإن كان ضيقا ، فى أحد « الغرف المفروشة » . ولكى نفهم لماذا بالذات « الغرف المفروشة » ، فعلينا أن نتذكر أن زوج المستقبل فى مصر يجب عليه أن يقدم لزوجة المستقبل دليلا على أن لديه منزلا . ونظريا ، فبإمكان

---

* أنظر جريدة الأهرام ، ١١ / ٧ / ١٦٧٧ ، « المترجم » .

** يانوس Janus إله الابواب والبدايات عند الرومان وكان له رأس ووجهان ، « المترجم » .

المحتشدون سيد قطب لمدة قصيرة قبل شنقه ، حيث أضاءت وجهه ابتسامة رقيقة وسعتها عيونه التى بها حول .

تلك كانت الخطوط الرئيسية للبعث الجديد للإخوان المسلمين خلال العقد الأول من العهد الناصرى ، العقد الذى انتهى كما بدأ ، أى باضطهادهم . وقد كان هناك ، بالطبع ، تماثل بين ١٩٥٤ و١٩٦٥ ، إلا أنه كان هناك أيضا تطور ملموس فى فكر، إذا لم يكن فى ممارسة ، حركة الإسلاميين . كان التماثل الرئيسى فى كلتا الحالتين هو قدرة النظام على ضرب التنظيم خلال عملية إعادة بناء نفسه ، بعد أن يكتسب بعض القوة ، لكن قبل أن يطور استراتيجية تجعله قادرا على البدء بالهجوم . لكن بينما كان الإخوان عام ١٩٥٤ عاجزين عن إدراك السبب فى حتمية المواجهة مع النظام ، أصبح لديهم عام ١٩٦٥ ، بعد كتاب سيد قطب « معالم فى الطريق » ، الأداة النظرية القادرة على تحليل تلك الدولة ، التى حاربوا وخططوا لتدميرها واستبدالها بدولة إسلامية .

وكان العمل فى ١٩٦٥ ، من ناحية أخرى ، حديث العهد بدرجة كبيرة ، ولم يترك أى بصمات حقيقية على ممارسة الإخوان حديثى التنظيم . وعلاوة على ذلك ، فلم يفهم كل من قرأ « معالم فى الطريق » محتواه بنفس الطريقة . وقد كان لركب الشهداء الذين استشهدوا فى عهد عبدالناصر أهمية قصوى بالنسبة لحركة الإسلاميين التى أتت بعد ذلك . حيث أضفت هالة معاناة الاضطهاد دفاعا عن الإيمان وعن المثل الأعلى الاجتماعى على رسالة الإسلاميين منزلة الحقيقة المطلقة . وقد عمق ركب الشهداء هذا من التناقضات بين الاتجاهات المختلفة ، التى انقسمت وفقا لقراءتها الأيديولوجية ــ أو عدم قراءتها ــ لمعالم فى الطريق . فبينما بشَّر شكرى مصطفى ، على سبيل المثال ، « بالعزلة » ، بالانسحاب من المجتمع"، كوسيلة لتجنب هول المعتقلات والمشانق . سلك آخرون طريق الالتزام السياسى من خلال مناهج عدّة ، حيث تعاون البعض مع النظام فى محاولة لأسلمته أو لدخول عالم السياسة كنوع من المعارضة ، على أمل تجنب ، ولوجزئيا من خلال الروابط مع النظام نفسه ، شبح التعذيب والإبادة . وظل البعض الآخر ينظم نفسه من أجل الاستيلاء على السلطة بالقوة ، على أمل أن يكونوا فى المرة

القادمة قادرين على العمل قبل أن تتمكن الدولة من أن تضربهم ثانية . وكانت تلك الرؤية هى رؤية أعضاء جماعة عبدالسلام فرج ، التى اغتالت السادات فى السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ .

الفصل الثانى

معالم فى الطريق

- سيد قطب المؤلف والشهيد.
- النزعة الإسلامية أو النزعة البربرية.
- الإسلام هو الحضارة.
- ما العمل؟
- تدخل العلماء.

المكتوبة . وطوال حياته كان ، مؤسس الإخوان ، هو الذى يقرر كل شىء ، وهو الذى يحدد خط التنظيم فى ضوء تطورات الموقف السياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى . وكان أهم ماتركه من أعمال مكتوبة سيرته الذاتية « مذكرات الدعوة والداعية » ، ومجموعة من الرسائل . ولم يكن هذا الإنتاج كافيا بحال من الأحوال لمعالجة كل المشاكل والتحديات التى واجهها الإخوان بعد موته ، خاصة خلال معاناتهم لاضطهاد ١٩٥٤ ، الذى باغتهم أيديولوجيا . ولقد ظلت أدبياتهم حتى ١٩٥٢ ، ترى فى الإنجليز العدو الأساسى ، وأضاف بعض الإخوان القصر والرأسمالية . ومع ذلك ، فالحكومة المصرية والإسلامية للضباط الأحرار هى التى وضعتهم الآن فى « المحنة الكبرى » عام ١٩٥٤ . ولم تكن لديهم الأدوات النظرية القادرة على تحليل هذا النظام الجديد على أساس من مقولات الإسلام .

وكان سيد قطب هو الذى ملء هذا الفراغ الأيديولوجى من خلال الكتب التى ألفها فى السجن بين عام ١٩٥٤ (عندما تم اعتقاله لأول مرة) وعام ١٩٦٤ (عندما أطلق سراحه لفترة وجيزة ليعاد القبض عليه مرة أخرى وتجرى محاكمته وينفذ فيه حكم الإعدام عام ١٩٦٦) . وفى كتابه الأخير ، « معالم فى الطريق » ، يصف قطب نظام عبد الناصر بعبارات بالغة القسوة والحدة ، يصفه من موقع غير عادى لرجل لم يعرف من هذا النظام سوى معتقلاته . إذ رأى قطب أن الدولة الناصرية ، تنطبق عليها تلك المقولة الإسلامية عن الجاهلية ، أو بربرية ماقبل الإسلام . ولقد وضع ذلك التصنيف النظام الناصرى وراء حدود الإسلام .

ويقدم سيد قطب ، بأسلوب بسيط وواضح ، تحليله للنظام وتصوره لكيفية تدميره واستبداله بدولة إسلامية . ورغم أن التحليل الأساسى فى الكتاب قد فهم على أساس رأى سيد قطب فى نظام عبد الناصر ، فإن هذا التحليل يمكن أن ينطبق بنفس القدر حتى على خليفته .

وعلى ذلك فإن كتاب « معالم فى الطريق » يمثل وثيقة بالغة الأهمية . قدمت مواجهة مباشرة وأيديولوجية حركة الإسلاميين . وقد اشتملت المبادىء التى قدمها هذا الكتاب بصورة ضمنية على تأثيرات التيارات الرئيسية فى تلك الحركة . وأصبح الكتاب فى النهاية هو البرنامج العام (أو المينافستو) لمعظم الإسلاميين .

وقد أدان علماء الأزهر وكل مشايخ الإسلام الموالين للنظام كتاب سيد قطب هذا واعتبروه خروجا وكفرا ، فى الوقت الذى اعتبره الإخوان المسلمون الأكثر تمسكا بالتقاليد مرجعا مثيرا للإعجاب ومنفراً فى آن معا . إذ رأوا فى بعض ما أورده من دفاعات شيئا جديرا بالأعجاب بينما رأوا فى بعضها الآخر خروجا على حدود الجماعة .

وبعبارة أخرى يمكن القول بأن « معالم فى الطريق » هو الطريق الملكى لأيديولوجية حركة الإسلاميين فى السبعينات :

- **سيد قطب المؤلف والشهيد :**

لم يكن سيد قطب ، خلافا لحسن البنا ، قائدا للجماهير أو منظما ، بل كان أديبا تحول خلال الخمسة عشر عام الأخيرة من حياته فحسب إلى أيديولوجى جماعة الإخوان المسلمين . ولا ترسم الأحداث الرئيسية فى حياته مسارا نموذجيا لمواطن مصرى فى القرن العشرين قرر الانضمام للإخوان المسلمين فحسب ، لكنها تلقى الضوء أيضا على أصالة عمله مقارنة بالإنتاج العقائدى لمجاهدى الإخوان الآخرين .

وقد ولد سيد قطب فى سبتمبر ١٩٠٦ فى بلدة موشا بمحافظة أسيوط ، فى صعيد مصر (٤ ، ٢٠) ، إبنا لأسرة من وجهاء الريف الذين داهمتهم الظروف الصعبة . وقد كان بهذه البلدة الكبيرة ، بخليطها من السكان المسلمين والمسيحيين واكتظاظها بالمزارع العائلية الصغيرة ، نظامان متوازيان للتعليم : المدارس الحكومية من ناحية والمدارس القرآنية ، أو الكتاتيب ، من ناحية أخرى . وعلى الرغم من وجود اثنين من خريجى الأزهر فى عائلته من ناحية أمه ، فقد ألحق قطب بالمدارس الحكومية . وقد أصيب قطب بالفزع خلال إقامته القصيرة فى الكتاب وتمكن بمجهوده الشخصى من حفظ القرآن عن ظهر قلب ، قبل أن يكمل التاسعة . وكان والده ، الحاج قطب إبراهيم ، مندوبا للبلدة فى حزب مصطفى كامل الوطنى ومراسلا لصحيفة اللواء ، الناطقة بلسان الحزب . وبسبب لاجتماعات العامة والخاصة التى كانت تعقد بانتظام فى منزل والده ، اكتسب سيد قطب وعيا سياسيا فى سن مبكرة . ونتيجة لتعاطفه مع الحركة الوطنية المعادية

للإنجليز واظب على الاطلاع على الكتابات الصحفية والعالمية ، التى كان يحصل عليها من بائع الكتب المحلى المتجول . و بسبب الميول الفكرية الواضحة للفتى (وحيث أنه كان يتعين تدبير المال بسرعة لاسترداد إرث الاسرة ، الذى اضطر جد سيد قطب للتخلى عن القطعة تلو الأخرى) ، قررت الأسرة ، بعد تخرجه من مدرسة موشا عام ١٩١٨ ، إرساله إلى القاهرة . لكن انقطاع المواصلات نتيجة لأحداث الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ، أدى إلى تأجيل هذا المشروع حتى عام ١٩٢١ . وقد أمضى سيد قطب السنوات الأربع التالية مع عم له كان يعمل بالصحافة ، و يؤيد حزب الوفد ، فى إحدى ضواحي العاصمة . وليست هناك أية معلومات ذات شأن عن تلك الفترة . وفى عام ١٩٢٥ التحق بمعهد لإعداد المعلمين . وخلال عامى ١٩٢٨ ــ ١٩٢٩ واظب بعد التخرج على حضور فصول دراسة تمهيدية فى دار العلوم ، وهى معهد جديد لإعداد المعلمين أسس عام ١٨٧٢ ، لتعويض أوجه القصور فى كلية الإعداد الأزهرية ، التى اعتبرت آنذاك شيئا متحجرا . ثم قبل رسميا فى دار العلوم عام ١٩٣٠ وتخرج منها عام ١٩٣٣ وهو فى السابعة والعشرين . ومن الجدير بالذكر أن حسن البنا نفسه قد درس فى دار العلوم فى الفترة من ١٩٢٣ حتى ١٩٢٦ .

وخلال الأعوام الستة عشر التالية عمل بوزارة المعارف العمومية . و بدأ حياته الوظيفية بالتعليم فى الاقاليم لكنه انتقل بعد ذلك الى حلوان ، فى ضواحى العاصمة ، وقرر أن يقيم فيها بصفة دائمة ، مع والدته وشقيقتيه وأخيه . وفى الفترة بين ١٩٤٠ إلى ١٩٤٨ عمل مفتشا بالوزارة . وخلال هذا الوقت أعد أكثر من مشروع لإصلاح نظام التعليم . أودعها رؤساؤه كما هى سلة المهملات (كان المؤلف الكبير طه حسين أحد هؤلاء الرؤساء لفترة من الوقت) .

ولقد كان لسيد قطب نوع من النشاط الموازى بوصفه أديبا . والواقع أن حياته الفكرية تأثرت بذلك اللقاء المبكر الذى جمعه بأحد القمم البارزة فى ذلك العصر ، وهو محمود عباس العقاد . فعلى عكس طه حسين وغيره من رجال الفكر والأدب الذين تعلموا فى أوروبا ، كان العقاد رجلا ثقف نفسه بنفسه وكانت ثقافته مقصورة فى الغالب على العربية . وكرس العقاد الصحفى والكاتب والروائى كل مواهبه لنصرة حزب الوفد وقائده ، سعد زغلول . لكنه نأى بنفسه

عن الوفد عندما خلف مصطفى النحاس باشا سعد زغلول ، إذ كان العقاد يعتبره ذو نزوع ديماجوجي أكثر منه ديموقراطي . فقرر العقاد ، وقد تحرر من وهم الجماهير، الذين اعتبرهم مخدوعي طبقة سياسية لم يكن يشعر نحوها سوى بالازدراء ، أن يكرس أغلب إنتاجه الأدبي للتغني بأمجاد رجال الإسلام العظماء .

كان تطور سيد قطب مشابها للعقاد . فقد بدأ عضوا في حزب الوفد ، ثم هجره بعد ذلك ، لكنه ظل مهتما بالسياسة الحزبية حتى عام ١٩٤٥ (٣٥) . على أن كتاباته ظلت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، مقتصرة على حقل النقد الأدبي . وقد لعب دورا مؤثرا في مساجلات الثلاثينات والأربعينات ، حيث ألقى أسلوبه النارى الضوء على مقدرته كمحاور (في مواجهة طه حسين بشكل خاص) . إلا أنه بعد ١٩٤٦ ، أخذ في الابتعاد عن العقاد ومدرسته .

كذلك كان سيد قطب صحفيا بالإضافة إلى كونه ناقدا ، وقد هيأ له العقاد الفرصة في بداية ١٩٢١ لدخول عالم الصحافة الشعبية ، حيث نشر آرائه من خلال أعمدتها . إلا أن اهتمامه الرئيسي ظل محصور الى الشعر وكتابة القصص القصيرة والروايات . وتندرج ثلاثة من أعماله على الأقل في باب السيرة الذاتية : « طفل من القرية » ، و« الأطياف الأربعة » ، (كتب بالتعاون مع أخيه ، محمد ، وأختيه ، حميدة،وأمينة) ، و« أشواق » ، وهو وصف غير مباشر لفشل عميق في الحب عزم سيد قطب بعده على أن يظل أعزب . وقد أرّقه تحرره من هذا الوهم الرومانتيكي « حتى اكتشف طريق العمل الخصب والبناء في خدمة رسول الله ، كمجاهد ، ومحارب ، وقائد ، وأخيرا كمعلم » (٤) .

وخلال عام ١٩٤٥ ، العام الذى هجر فيه الأحزاب السياسية ، والتي أصبح يعتبرها الآن مخلفات عصر غابر ، تحولت المادة الرئيسية لمقالاته من الأدب إلى الوطنية ، والأحداث السياسية ، والمشكلات الاجتماعية . وقد اتسمت جهوده بدرجة من الحماس أزعجت معها الملك فاروق نفسه . وأراد الملك أن يسجنه ، إلا أنه أفلت من الاعتقال بفضل صلاته الوفدية القديمة ، فاستبدل الاعتقال بنوع من النفي الاختياري . وفي عام ١٩٤٨ ، أرسل إلى الولايات المتحدة لفترة غير محددة ، في بعثة لدراسة نظام التعليم الأمريكي على حساب وزارة المعارف العمومية . ومن الواضح أن الآمال كانت معلقة على عودته من البعثة مناصرا « لنمط الحياة

الأمريكى » إلا أن التجربة جعلته بدلا من ذلك أكثر قربا من الإسلام ، ومن ثم من الأخوان المسلمين .

وخلال جلوسه وحيدا وفى عزلة تامة على ظهر العبارة التى حملته إلى نيو يورك ، وقد انقطعت فجأة صلاته بعالمه ، أعاد سيد قطب اكتشاف الإسلام . ولا يعنى هذا أن إيمانه كان قد اهتز فى أى وقت من الأوقات ، لكنه كان مشغولاً عنه مؤقتا بحبه المفرط للأدب . فبدأ يؤدى صلواته الخمس يوميا ، وفى يوم الجمعة كان يجتمع بإخوته فى الدين ويخطب فيهم . ولم يمض وقت طويل على حدوث هذا التغير الداخلى حتى لاحت له أول غواية جسدية : فعند عودته الى قمرته بعد صلاة العشاء ، اقتربت منه امرأة ثملة نصف عارية دعته لقضاء الليلة معها ، لكن ناسكنا رفض دعوتها بإصرار.

والواقع أن قطب كثيرا ماتعرض خلال إقامته فى أمريكا « البوجارتية » * فى أواخر الأربعينات ، للمضايقات بسبب الاختلاط الجنسى الذى كان يصيبه بالاشمئزاز. وفى هذا البلد ، الذى لايعرف الشفقة والمكرس كلية لعبادة الدولار ، والخالى من أية قيم ذات معنى فى نظره ، رأى بعينيه تلك السعادة التى غمرت الأمريكيين لاغتيال حسن البنا . ولقد شجب المجتمع الأمريكى ، عند عودته فى صيف ١٩٥١ ، بحدة بالغة أدت إلى إجباره على الاستقالة من وزارة المعارف العمومية . وعندئذ بدأ بالتردد على الإخوان المسلمين وتم تجنيده فى النهاية فى جماعة الإخوان على يد صالح عشماوى فى نهاية ١٩٥١ ، وهو فى الخامسة والأربعين . وقد مثل ذلك بالنسبة لسيد قطب انفصالا تاما عن الماضى . وظل يردد بعد ذلك « لقد ولدت فى عام ١٩٥١ » . وفى عام ١٩٥٢ تم انتخابه عضوا فى المجلس القيادى للإخوان المسلمين « مكتب الإرشاد » ، وعين رئيسا لقسم الدعوة الإسلامية « نشر الدعوة » . وفى الشهور التى سبقت ثورة ١٩٥٢ والتى أعقبتها مباشرة ، خلال شهر العسل القصير بين الضباط الأحرار والأخوان المسلمين ، كان قطب يلتقى بانتظام مع جمال عبدالناصر . وفى أغسطس ١٩٥٢ ترأس سيد قطب

---

* بوجارتية Bogartian (مشتقة من بوجارت) وتعنى هنا العنف أو المغامرة وهوما تجسد آنذاك فى أفلام الممثل الأمريكى همفرى بوجارت الشهيرة فى الثلاثينات والأربعينات .

مؤتمرا عن « التحرر الفكرى والروحى فى الإسلام » ، شهدته كل الشخصيات الهامة فى قاهرة الثورة ، حيث لقى ترحيبا حارا من قبل كل من عبدالناصر ومحمد نجيب ، أول رئيس مصرى بعد الانقلاب . وعلى الرغم من هذا ، فقد انحاز إلى صف الهضيبى ، المرشد العام للجماعة ، خلال الصراع الذى نشب طوال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٥٤ . وفى ٣ يوليو ١٩٥٤ عينه الهضيبى رئيسا لتحرير « الإخوان المسلمون » ، الجريدة التى عبرت عن انتقادات الهضيبى للأجنحة المنشقة داخل صفوف الإخوان . ولم يظهر من هذه الجريدة سوى ١٢ عددا .

وفى ٢٦ أكتوبر حاول « محمود عبداللطيف » ، أحد الإخوان المسلمين ، اغتيال عبدالناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية . وسواء كان هذا الحادث من تدبير البوليس أو عملا مدبرا من قبل الإخوان ، فقد هيأ هذا الهجوم للرئيس مبررا مثاليا لتصفية الإخوان المسلمين . فألقى القبض على سيد قطب ، شأنه فى هذا شأن أغلب مجاهدى الإخوان ، وتعرض لتعذيب بشع . وفى ١٣ يوليو ١٩٥٥ وبعد محاكمة هزلية ، حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكان قد بدأ فى تنفيذها فى معتقل طرة ، وبعد ذلك فى المستشفى الملحق به . وكانت ظروف اعتقاله مرنة نسبيا ، مما مكنه من كتابة تفسيره للقرآن تحت عنوان « فى ظلال القرآن » بل أنه نشرها فى صورة كتيب وطبعها فى القاهرة ، فضلا عن كتابات أخرى عديدة ، وبدأ فى ١٩٦٢ ، كما رأينا فيما سبق بكتابة مسودة الفصول الأولى من « معالم فى الطريق » وترويجها بين التجمعات التى التفت حول عضوة الجماعة زينب الغزالى(١٢) . وبعد الافراج عنه فى نهاية ١٩٦٤ بفضل وساطة الرئيس العراقى ، عبدالسلام عارف ، الذى كان فى زيارة رسمية للقاهرة آنذاك ، أصبح سيد قطب هو القطب الذى تجمع حوله ماتبقى من أنصار الإخوان المسلمين . وفى نوفمبر ١٩٦٤ صدر كتاب « معالم فى الطريق » عن مكتبة وهبة . وقد كتب أحد الناصريين المخلصين يقول « عندما طبع كتاب « معالم فى الطريق » لأول مرة كان هناك اعتراض على طبعه بل إنه منع وعندما قرأ عبدالناصر مسودته اتصل بالمسئولين مؤكدا أنه لامانع من نشره »(١٨) . وقد أعيد طبع « معالم فى الطريق » بعد صدوره خمس مرات خلال ستة أشهر ، إلا أنه صودر مرة أخرى بعد ذلك .

وعندما أعلن عبدالناصر فى ٣٠ أغسطس ١٩٦٥ أن « مؤامرة جديدة للإخوان المسلمين » قد تم كشف النقاب عنها ، أعيد أعتقال سيد قطب ، باعتباره الرأس المدبر للمؤامرة . وقد ضبطت نسخ من « معالم فى الطريق » ، طبقا لرواية البوليس ، فى كل هجمة على بيوت أعضاء الجماعة . و بعد محاكمة سريعة ، ظهر فيها المتهمون فى حالة من الانهيار التام نتيجة للتعذيب (الذى نجح قطب فى الكشف عنه أمام الحضور) ، حكم عليه هو واثنين من رفاقه بالإعدام . وتم شنق الرجال الثلاثة فى فجر التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩٦٦ . وقد كتبت زينب الغزالى تقول « إذا أردت أن تعرف لماذا حكم على سيد قطب بالإعدام فاقرأ « معالم فى الطريق » » (١٢) .

كان « معالم فى الطريق » ، إذن ، العمل الختامى لحياة قطب ، ومثل ذروة إنتاج أدبى ضخم ، لايمت أغلبه بأدنى صلة للدعوة الإسلامية . فأول كتاب إسلامى له هو « المجاز الفنى فى القرآن » * صدر فى إبريل ١٩٤٥ ، وقد سبقه وتلاه العديد من الكتب فى الرواية والنقد الأدبى . فحتى إبريل ١٩٤٩ ، عندما صدرت الطبعة الأولى من كتابه « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » لم يكن سيد قطب قد كرس بعد كل كتاباته للإسلام ، كما لم يصبح القائد الأيديولوجى للإخوان المسلمين إلا منذ عام ١٩٥١ .

وفى الفترة من ١٩٥١ حتى إعدامه عام ١٩٦٦ ، كتب سيد قطب ثمانية أعمال فى العقيدة الإسلامية ، خمسة منها كتبت فى السجن . ولم يكن كتابه « معالم فى الطريق » ، فى الواقع ، إنتاجا جديدا بمعنى الكلمة : فقد أخذ أربعة من فصوله الثلاثة عشر على الأقل من كتابه « فى ظلال القرآن » ، وهو تفسير للقرآن فى عدة أجزاء كتب فى الفترة من ١٩٥٣ حتى ١٩٦٤ ، أى كتب أغلبه فى السجن .وعلاوة على ذلك ، فإن المصطلحات التى استخدمها المؤلف قد استعارها ، كما سنرى ، من مفكرين عديدين . إلا أننا سننتقل الآن إلى دراسة المحتوى

---

* هناك قائمة بأعمال سيد قطب فى نهاية هذا الفصل .

الأيديولوجي لمعالم فى الطريق . أى لماذا وكيف أصبح هذا الكتاب ، على حد تعبير المفكر المصرى طارق البشرى (٨) ، « ماالعمل » حركة الإسلاميين ؟

● النزعة الإسلامية أو النزعة البربرية :

يشير الفصل التمهيدى لـ « معالم فى الطريق » إلى مغزى الكتاب وهدفه : « تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية .. لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها (فهذا عرض للمرض وليس هو المرض .. لكن بسبب إفلاسها فى عالم « القيم » التى يمكن أن تنمو الحياة الإنسانية فى ظلالها نموا سليما وتترقى ترقيا صحيحا » .

« وهذا واضح كل الوضوح فى العالم الغربى ، الذى لم يعد لديه مايعطيه للبشرية من « القيم » ، بل الذى لم يعد لديه مايقنع ضميره باستحقاقه للوجود ، بعد ما انتهت « الديمقراطية » فيه إلى مايشبه الإفلاس ، حيث بدأت تستعير ــ ببطء ــ وتقتبس من أنظمة المعسكر الشرقي و بخاصة فى الأنظمة الاقتصادية ! تحت إسم الاشتراكية » !

« كذلك الحال فى المعسكر الشرقى نفسه .. فالنظريات الجماعية . وفى مقدمتها الماركسية التى اجتذبت فى أول عهدها عددا كبيرا فى الشرق ــ وفى الغرب نفسه ــ باعتبارها مذهب يحمل طابع العقيدة ، قد تراجعت هى الأخرى تراجعا واضحا من ناحية « الفكرة » حتى لتكاد تنحصر الآن فى « الدولة » وأنظمتها ، التى تبعد بعداً كبيراً عن أصول المذهب » ص ٣ *

ولابد من قيادة للبشرية جديدة ! ص ١٤ .

« ثم فشلت الانظمة الفردية والأنظمة الجماعية فى نهاية المطاف . ولقد جاء دور « الإسلام » ودور « الأمة » فى أشد الساعات حرجا وحيرة واضطرابا ... جاء دور الإسلام الذى لايتنكر للإبداع المادى فى الأرض ، لأنه يعده من وظيفة

---

* أنظر « معالم فى الطريق » طبعة دار الشروق بالقاهرة (دون تاريخ) .

الإنسان الأولى منذ أن عهد الله إليه بالخلافة فى الأرض ، و يعتبره ـــ تحت شروط خاصة ـــ عبادة لله ، وتحقيقا لغاية الوجود الإنسانى » ص ٥ .

« لكن الإسلام لايملك أن يؤدى دوره إلا أن يتمثل فى مجتمع ، أى أن يتمثل فى أمة .. فالبشرية لاتستمع ـــ و بخاصة فى هذا الزمان ـــ إلى عقيدة مجردة ، لاترى مصداقها الواقعى فى حياة مشهودة .. و« وجود » الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة » ص ٥ .

« فالأمة المسلمة ليست « أرضا » كان يعيش فيها الإسلام . وليست « قوما » كان أجدادهم فى عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامى » ص ٦ .

« إنما الأمة المسلمة جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامى .. وهذه الأمة ـــ بهذه المواصفات ! قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعا » ص ٦ .

« إن العالم يعيش اليوم كله فى « جاهلية » ٭ من ناحية الأصل الذى تنبثق من مقومات الحياة وأنظمتها . جاهلية لاتخفف منها شيئا هذه التيسيرات المادية الهائلة ، وهذا الإبداع المادى الفائق ! » ص ٨ .

« هذه الجاهلية تقوم على الاعتداء على سلطان الله فى الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية ... وهى الحاكمية .. إنها تسند الحاكمية إلى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض أربابا ، لافى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأنظمة والأوضاع ، بمعزل عن منهج الله للحياة ، وفيما لم يأذن به الله .. فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده » ص ٨ .

٭ تأكيدات البروتستانت الحقيقية على هذه الصيغة أبرزها أحد كتاب النظام الناصرى ، الذى ألف كتاب « معالم فى طريق الخيانة والرجعية » (وقد نشره الاتحاد الاشتراكى العربى) . حيث كان رأيه أن سيد قطب كان مؤيداً للبروتستنتية ، التى وقع تحت سيطرتها خلال إقامته فى الولايات المتحدة .

« ومامهانة « الإنسان » عامة فى الأنظمة الجماعية ، وماظلم « الأفراد » والشعوب بسيطرة رأس المال والاستعمار فى النظم « الرأسمالية » إلا أثرا من آثار الاعتداء على سلطان الله ، وانكار الكرامة التى قررها الله للإنسان » ص ٨ .

« إننا ــ دون شك ــ نملك شيئا جديدا جدة كاملة . شيئا لا تعرفه البشرية . ولا تملك هى أن « تنتجه » ! » ص ٩ .

« ولكن هذا الجديد ، لابد أن يتمثل ــ كما قلنا ــ فى واقع عمل . لابد أن تعيش به أمة .. وهذا يقتضى عملية « بعث » فى الرقعة الإسلامية . هذا البعث الذى يتبعه ــ على مسافة مابعيدة أو قريبة ــ تسلم قيادة البشرية » ص ٩ .

« فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامى ؟

« إنه لابد من طليعة تعزم هذه العزمة ، وتمضى فى الطريق . تمضى فى خضم الجاهلية الضاربة فى أرجاء الأرض جميعا . تمضى وهى تزاول نوعا من العزلة من جانب ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة » ص ٩ .

« ولابد لهذه الطليعة التى تعزم هه العزمة من « معالم فى الطريق » معالم تعرف منها طبيعة دورها ، وحقيقة وظيفتها ، وصلب غايتها . ونقطة البدء فى الرحلة الطويلة .. كما تعرف منها طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب فى الأرض جميعا .. أين تلتقى مع الناس وأين تفترق ؟ ماخصائصها هى وماخصائص الجاهلية من حولها ؟ كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها ؟ ص ٩ .

« لهذه الطليعة المرجوة المرتقبة كتبت (معالم فى الطريق) .

يتضح من هذه المقتطفات أن الكتاب يطمح إلى أن يكون آداة لتحليل المجتمع المعاصر ومرشدا للطليعة التى لها دور الريادة فى بعث هذه الأمة ــ باختصار كان « معالم فى الطريق » البرنامج العام (المانيفستو) لحركة الإسلاميين .

ونقطة الانطلاق إذن هى الحكم بإفلاس الغرب ، سواء الغرب الرأسمالى أو الاشتراكى . تلك هى الحقيقة المسلم بها فى أيديولوجية الإخوان المسلمين(٣٠) ، مثلها مثل تسليمهم بأن بعث الإسلام يضع الحل لمشاكل الإنسانية . ومن ناحية

أخرى فإن استخدام سيد قطب لتعبير « الجاهلية » ليصف به المجتمع الذى يعيش فيه هو الإضافة الفكرية التى جعلته ينفصل عن المعتقدات التقليدية للإخوان المسلمين .

والجاهلية ، فى الواقع ، كانت حجر الزاوية الذى وقف عليه البناء النظرى لـ « معالم فى الطريق » . وإذا كان من الصحيح اعتبار المجتمع المعاصر مماثلا لجاهلية ماقبل الإسلام ، بحيث لا يعدو أن يكون سوى صورة متطورة لهذه الجاهلية ، فمن الواجب أن تكون نظرة المسلم لهذا المجتمع مماثلة لنظرة الرسول والصحابة إلى مجتمعهم . وطليعة اليوم يجب عليها أن تسترشد بهذه القدوة فى تحديد أسلوب عملها . وقد استخدم الرسول تكتيك المراوحة بين الانسحاب من المجتمع الذى يعيش فيه والاتصال به ، وهو الذى اختار، على سبيل المثال ، أن يهاجر من مكة إلى المدينة عندما وجد نفسه فى موقف ضعيف ، ليعود فى النهاية فاتحا للمدينة التى هجرها قبل ذلك .

ولقد مثّل الاستخدام العبرتاريخى trans- historical لمفهوم الجاهلية لدى قطب انطلاقة جديدة وبارزة لعقيدة الإخوان المسلمين . فحسن البنا ، على سبيل المثال ، لم يحلم قط باتهام المجتمع المصرى الذى عاصره بأنه قد أصبح غير إسلامى . لكن الأيام كانت قد تغيرت ، ومصر ـ التى فقدت حتى إسمها وأصبح اسمها الجمهورية العربية المتحدة ـ قد حكمتها ، وشيدتها ، وطوقتها الدولة الناصرية . والسيطرة الاجتماعية التى مارستها الملكية والمحتلون الإنجليز كانت أقل تأثيرا بكثير من تلك التى مارسها عبدالناصر. الذى كان يتلقى النصح من الخبراء الروس ، الاساتذة فى هذا الفن .

وقد كتب « معالم فى الطريق » فى المعتقل الذى قضى فيه المؤلف عشرة سنوات من حياته . وبالتالى فقد كان مدركا للوجه الآخر « للاشتراكية العربية » ، الأسلاك الشائكة وأعمدة المشانق . وفى واقع مثل هذا ، يصبح ذلك النمط من أنماط الدعوة الذى مارسه الإخوان المسلمون بنجاح فى الثلاثينات والأربعينات غير ممكنا على الإطلاق . فالدولة الاستبدادية قد غدت الآن نموذجا للجاهلية . والجاهلية بالنسبة لسيد قطب هى مجتمع يحكمه حاكم ظالم جعل من نفسه موضوعا للعبادة فى مكانة الله ويحكم امبراطوريته وفقا لهواه الشخصى بدلا

من أن يحكم على أساس المبادىء المستوحاة من القرآن والسنة . ولا يخفف من هذا الوطء أن نزوات الحاكم يتم تزيينها فى إطار الشرعية ، فذلك لا يغير من كونها نزوات بدرجة أو بأخرى. وفى كتابه « معالم فى الطريق » خصصها للمجتمع الجاهلى عرض سيد قطب هذا التعريف :

« إن المجتمع الجاهلى هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم ! وإذا أردنا التحديد الموضوعى قلنا : إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده .... وبهذا التعريف الموضوعى تدخل فى إطار « المجتمع الجاهلى » جميع المجتمعات القائمة اليوم فى الأرض فعلاً ص ٨٨ ، ٨٩ .

واستعرض قطب بعد ذلك الصيغ المختلفة للمجتمعات ، شارحا لماذا تشكل كل منها جزءاً من هذه الجاهلية بشكل عام . وفى قمة هذه القائمة تقف المجتمعات الشيوعية ، التى تنكر الله والتى فيها « نظام العبودية فيه للحزب ـــ على فرض أن القيادة الجماعية فى هذا النظام حقيقة واقعية ـــ لا للّه سبحانه وتعالى » ص ٨٩ . وفى هذه المجتمعات « اختزلت الحاجات الإنسانية إلى مثيلتها لدى الحيوان » . تليها مختلف المجتمعات الوثنية وفيها « تمارس الحاكمية العليا باسم (الشعب) ، أو باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان » . وتأتى بعدها المجتمعات المسيحية واليهودية . وفى النهاية « يدخل فى إطار المجتمع الجاهلى تلك المجتمعات التى تزعم لنفسها أنها « مسلمة » ! . وهذه المجتمعات لا تدخل فى هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله ، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا ، ولكنها تدخل فى هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية للّه وحده فى نظام حياتها . فهى ـــ وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله ـــ تعطى أخص خصائص الألوهية لغير الله ، فتدين بحاكميه غير الله ، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها ، وشرائعها ، وقيمها ، وموازينها ، وعاداتها وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريباً ص ٩١ ، ٩٢ .

يتضح من خلال هذا النص ، أن هناك اثنان من المفاهيم يستخدمان كمفتاح للعلاقة بين الإنسان والله ، وكما تصور سيد قطب ، فإنها وللسبب السابق بالتحديد يستخدمان كمفتاح لروح المجتمع : العبودية ، والحاكمية . وهذان المصطلحان ليسا بمصلحين قرآنيين . اشتق المصطلح الأول من مصدر « يعبد » والآخر من « يحكم » . وقد ظهر كلاهما فى كتاب « لأبى الأعلى المودودى » بعنوان

« المصطلحات الأربعة فى القرآن » (٢٩) ، وكان هدفه من هذا الكتاب هو أن يأصِّل الدلالة الحقيقية والأصلية للمصطلحات القرآنية التاليه : الإ له ، والرب ، والعبادة ، والدين ، كما فهمها العرب فى عهد البعثة المحمدية وليس كما مسخها أسلافهم طوال عصور الانحطاط . وقد كان أحد أسباب تدهور بلاد الإسلام ، عند الباكستانى أبو الأعلى المودودى ، هو بالتحديد أن قاطنيها لم يفهموا بعد الرسالة القرآنية كما فهموها فى بداية العصر الإسلامى . وعلاوة على ذلك ، فلكى يتم بناء المجتمع المسلم فإن هذا يتطلب أولا وأخيرا أن يتعلم المسلمون قراءة القرآن فى سياقه الأصلى ، دون الأخذ فى الاعتبار الأهمية المفرطة للتقاليد ، التى اعتبرها المودودى تقاليد متحجرة .

وقد كتب المودودى كتابه عام ١٩٤١ ونشر لأول مرة فى مجلته ، ترجمان القرآن ، فى نفس العام الذى أسس فيه « الجماعات الإسلامية » فى الهند . وفى هذا السياق ، كان الهدف من هذا الكتاب هو تنقيه عقيدة هذه الجماعة وتحديد موقفها من الأحزاب الحاكمة . وبمعنى آخر ، فإن الهدف منه لم يكن مختلفا على الإطلاق عن أهداف « معالم فى الطريق » .

وكانت السلطة الشرعية الوحيدة ، عند قطب ، كما هى عند المودودى ، فى نظام الحكم الصالح (وهو بالضرورة مسلم) هى حكم الله (الحاكمية لله) . وعلى نفس النمط ، فالله هو الموضوع الوحيد للعبودية (العبودية لله) . والنظام يستطيع أن يمارس العبودية فقط باسم الله ، بتطبيق الشريعة الإلاهية « الحكم بما أنزل الله » . فمبدأ الحاكمية لله هو الضمان فى مواجهة سلطة الحاكم الفردية : السلطة العادلة هى فقط تلك التى تحمل العهد الإلهى ، فالتشريع الذى يحكمه القرآن (شريعة الله) هو الحصن من الفساد ومن التحول إلى مجرد نظام قضائى فى خدمة الحاكم المطلق .

والمجتمع الجاهلى ، على عكس المجتمع المسلم ، يمنح سلطة الحكم لغير الله ويحول الملوك إلى أهداف للعبادة . ويمكن تمييز المجتمع الجاهلى من خلال تأليه المسيطرين على السلطة ، سواء كان رجلا ، أو مجموعة ، أو حزبا ، ومن خلال عبادة الجماهير لهؤلاء المسيطرين على السلطة

ورغم أن مصطلحى « العبودية » و« الحاكمية » ، واللذين فهمهما سيد قطب إلى حد ما ، قد نشأ فى كتابات المودودى ، فإن استعمال قطب لهما كمفهومين أساسيين فى تحليله للجاهلية وللمجتمعات الإسلامية ، أضفى عليهما قوة كبيرة أكثر مما فعل المؤلف الباكستانى . ولم تكن « العبودية » و« الحاكمية » مصطلحات قرآنية ، وهى نقطة أخذها على المودودى (و بالتالى على سيد قطب) المرشد العام حسن الهضيبى . ومع هذا ، فإنى أزعم أن قطب كان متحفظا إلى حد بعيد فى استخدامه لهذين المصطلحين .

وفى محاولته لإحياء الدلالة الكاملة للتيمات themes القرآنية الأربع ، الكلمات المحورية key words فى الإسلام ، خلال العصر الذى بدأ استعمالها فيه ، من خلال إحيائها بعد تحريرها من الشوائب التى حجرتها التقاليد ، أزال المودودى الكهنوتية عن هذه المصطلحات بشكل فعال . وفى نفس الوقت أضفى قداسة على مصطلحات أخرى تنتمى إلى المفردات الحديثة وقدمها بعد ذلك كمرادف للمصطلحات التى ناقشها . ماهو المقصود « بالعبادة » فى القرآن ؟ زعم المودودى ، أن المقصود بالعبادة أوسع بكثير من ما يمكننا أن نفهمه من خلال نفس الكلمة اليوم ، فالعبادة يجب إعادة صياغتها فى معناها الكامل (المعنى الكامل والشامل) . و يعنى هذا إدراج كل معانيها المختلفة التى يمكن أن تستخدم فى اللغة الحديثة . وهذه الكلمات المعاصرة تكتسب بالتالى رنينا مقدسا ، فلو أوحى القرآن لمحمد اليوم ، فسوف يكون بهذه الكلمات .

وفى واقع الأمر ، يفهم المسلمون اليوم المصطلح القرآنى « عبادة » ، على سبيل المثال ، فى ضوء التفسيرات الثابتة للحديث الشريف . والعبودية تعنى فى هذه التفسيرات ، « الفرائض » ، أى الإجراءات المنتظمة التى تعبر عن علاقة الكائنات الحية بالله . و يعنى هذا فى الإسلام النطق بالشهادتين ، والصلاة ، والصوم ، وإخراج الزكاة والحج .

و يتطلب التمسك بالمعنى الحقيقى للمصطلح القرآنى « عبادة » عند المودودى ، من ناحية أخرى ، ثلاث كلمات تساو يه فى المعنى فى الاستخدام الدارج . وهذه سوف توفر لنا ، اعتمادا على هذا السياق ، أكثر المرادفات إيمانا : العبودية ، والإطاعة ، والتأله .

وقد اشتمل القرآن على عدة آيات تحظر على المسلمين آداء العبادة لأى شيء غير الله . وقد علق المودودى على هذه الآيات بما يلى : « فى الآيات التى جاءت فيها كلمة « عبادة » بمعنى « العبودية » و « الإطاعة » ، فإن المراد بالمعبود فيها إما الشيطان وإما الأناس المتمردون الذين حولوا أنفسهم طواغيت فحملوا عباد الله على عبادتهم وإطاعتهم بدلا من عبادة الله وإطاعته ، أوهم الأئمة والزعماء الذين قادوا الناس إلى ما اخترعوه من سبل الحياة وطرق المعاش جاعلين كتاب الله وراء ظهرهم . وأما الآيات التى وردت فيها « العبادة » بمعنى التأله ، فإن المعبود فيها عبارة إما عن الأولياء والانبياء والصلحاء الذين اتخذهم الناس آلهة لهم على رغم أنف هدايتهم وتعليمهم ، وإما عن الملائكة والجن الذين اتخذوهم لسوء فهمهم شركاء فى الربوبية المهيمنة على قانون الطبيعة ، أو هو عبارة عن تماثيل القوى الخيالية وهياكلها . التى أصبحت وجهة عبادتهم وقبلة صلواتهم بمجرد إغراء الشيطان . والقرآن الكريم يعدّ جميع أولئك المعبودين باطلا ويجعل عبادتهم خطأ عظيما سواء تعبدهم الناس أو أطاعوهم أما تألهوا لهم .. لأنه لا يجدر بالعبادة إلا الله وحده » ص ٧٣ * .

وقد قدم المودودى فكرة « الحاكمية » عندما تعرض لمصطلح « رب » (« رب » بالمعنى المزدوج للكلمة ، المعنى الدينى والمعنى السياسى) . وهنا أيضا كان هدفه استعادة الدلالة الكاملة للمصطلح الأصلى ، الذى أوضح أن له خمسة معانى رئيسية فى القران . باحثا فى مختلف المفاهيم المغلوطة لمعنى كلمة « الرب » والشائعة بين الأمم والعشائر غير الإسلامية ، أوضح المودودى :

« بل الحق أن الأسر الملكية مازالت فى أكثر أقطار العالم تحاول الشركة ــ قليلا أو كثيرا ــ فى الألوهية والربوبية فى دائرة ما فوق الطبعة ، علاوة على ماكانت تتولاه من الحاكمية السياسية ، ومازالت لأجل ذلك تفرض على الرعية أن تقوم بين يديها بشيء من شعائر العبودية ، على أن دعواهم تلك للألوهية

---

* أنظر ، أبو الأعلى المودودى ، « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ، طبعة دار التراث العربى بالقاهرة ، عام ١٩٧٥ (المترجم) .

السماوية لم تكن هي المقصودة بذاتها في الحقيقة، إنما كانوا يتذرعون بها إلى تأثيل حاكميتهم السياسية ... ويقول فرعون، إني أنا مالك القطر المصري ومافيه من الغني والثروة وأنا الحقيق بالحاكمية المطلقة فيه، وشخصيتي المركزية هي الأساس لمدينة مصر واجتماعها، وإذن لا يجرين فيها إلا شريعتي وقانوني» ص ٤٩، ٥٠.

وفكرة المودودي هنا مشابهة لمعالجته لـ« عبودية » فأن تكون حاكما عادلا، هو أن تمارس، بين أشياء أخرى، الحاكمية. لكن الحاكمية تخص الله وحده، والحاكم الظالم الذي يمارس الحاكمية على رعاياه يكون قد اغتصب السلطة الإلهية.

والمعيار الهام والكافي لتحديد ما إذا كان مجتمعا مسلماً أو منتميا إلى الجاهلية يكمن بالتالي في نوع « العبودية » و« الحاكمية » التي يمكن رصدها خلاله. ففي المجتمع المسلم، الله وحده هو الذي يُعبد ويحكم، وفي المجتمعات الجاهلية يحتل تلك المنزلة شخص ما أو شيء ما غير الله الواحد الحق.

● الإسلام هو الحضارة:

في فصل عنوانه « الحضارة هي الإسلام »، شرح سيد قطب رؤاه للمجتمعات التي تسمي نفسها إسلامية لكنها في الحقيقة مجتمعات جاهلية:

« الإسلام لا يعرف إلا نوعين أثنين من المجتمعات .. مجتمع إسلامي ومجتمع جاهلي ...

« المجتمع الإسلامي » هو المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام .. عقيدة وعبادة، وشريعة ونظاما، وخلقا وسلوكا .. و« المجتمع الجاهلي » هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته، وقيمة موازينه ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه » ..

« ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم ناسا ممن يسمون أنفسهم « مسلمين »، بينما شريعة الاسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وإن صلى وصام وحج البيت الحرام! وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاما

من عند نفسه ــ غير ما قرره الله سبحانه وفصله رسوله صلى الله عليه وسلم ، و يسميه مثلا « الإسلام المتطور» ! .

و« المجتمع الجاهلى » قد يتمثل فى صور شتى ــ كلها جاهلية : ــ

« قد يتمثل فى صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى ، و يفسر التاريخ تفسيرا ماديا جدليا ، و يطبق مايسميه » الاشتراكية العلمية نظاما .

« وقد يتمثل فى مجتمع لاينكر وجود الله تعالى ، ولكن يجعل له ملكوت السماوات ، و يعزله عن ملكوت الأرض ، فلا يطبق شريعته فى نظام الحياة ، ولايحكم قيمه التى جعلها هو قيما ثابتة فى حياة البشر ، و يبيح للناس أن يعبدوا الله فى المعابد والكنائس والمساجد ، ولكنه يحرِّم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله فى حياتهم ، وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله فى الأرض » .. ص ١٠٥ ــ ١٠٦ .

ولم يجد القراء الذين اطلعوا على « معالم فى الطريق » فى مصر الستينات أى صعوبة فى اكتشاف أى مجتمع جاهلى ذلك الذى كان يقدم وجهى « الاشتراكية » و« الإسلام الرسمى » : كان هذا المجتمع بلاشك هو الجمهورية العربية المتحدة التى أسسها جمال عبدالناصر. ولكى يزيح النقاب عن هذين الوجهين ، أوضح قطب أن دعوة النظام للشريعة الإسلامية دعوة لا أساس لها من الصحة كما كان يتصور البعض .

وكانت هذه الدعوة ، فى الواقع ، أحد التيمات الدعائية للدولة الناصرية ، رغم أن معظم المراقبين المعاصرين لم يهتموا بها أدنى اهتمام ، حيث أخذوا بالدعاية التى كانت تروجها الصفوة المحلية من المتحدثين بالفرنسية والانجليزية « للاشتراكية العربية » . وبدلا من العلمانية التى تلهف البعض على تطبيقها ، حاول نظام عبدالناصر تحديث المؤسسات الرسمية الإسلامية ، خاصة الأزهر، فى محاولة لتحويلها إلى أكثر أشكال صناعة الرأى العام المتاحة تأثيرا وكان هذا هو « الإسلام المتطور» الذى تصدى له قطب بالنقد اللاذع .

وأما السادات فقد استعاض عن « الاشتراكية العربية » « بالانفتاح الاقتصادى » ، إلا أن الوجه الآخر للنظام لم يبق فقط بل أنه اكتسب أهمية أكبر

على مدار السنين . فقد سعى الرئيس دائما إلى اكتساب الشرعية من خلال المؤسسات الإسلامية . لكن على الرغم من كل ما أفتى به شيخ الأزهر فى محاولته لإضفاء الشرعية على أعمال الحاكم الظالم ، فلم يغير هذا شيئا فى الطابع الجاهلى للنظام بالنسبة للمجاهدين الإسلاميين الذين قرأوا « معالم فى الطريق » . فتلك المفاهيم الأساسية التى وضعها سيد قطب لم تفقد شيئا من مصداقيتها مع وفاة عبد الناصر ، ولا حتى ، فيما يتعلق بهذا الأمر ، عندما انتشرت هذه المفاهيم خارج حدود مصر . حيث أن سيد قطب كان قادرا ، من داخل ظلمات المعتقل ، على صياغة تلك المقولات التى كانت قابلة للاستخدام عند تحليل كل دول العالم الإسلامى حديثة الإستقلال . وكان هذا الموضوع بالتحديد هو السبب فى نجاحه الملحوظ .

● ما العمل :

بعد أن رسخ سيد قطب مفهومى المجتمع الإسلامى والجاهلى ، انتقل إلى تحديد العملية التى يمكن من خلالها تدمير الجاهلية و بناء الدولة الإسلامية على أنقاضها . وقد برهن سيد قطب على أن وقت العمل قد حان ، وعلى كل الأحوال فإن « الإنسانية لم تعد تبالى بالعقائد المجردة ، خاصة فى هذه الأيام » .

وقد كتب سيد قطب ، يتطلب إحياء الإسلام ثورة حقيقية تحت قيادة « طليعة الأمة » التى يجب أن يكون قدوتها ذلك « الجيل القرآنى الفريد » ، أى صحابة الرسول . ونظرا لأن هؤلاء الصحابة قد أخذوا زادهم الفكرى من القرآن وحده ، فقد كانوا قادرين بالتالى على بناء المجتمع الإسلامى المثالى فى عصره الذهبى ، عصر الخلفاء الراشدين . وفى اللحظة التى حول المسلمون فيها اهتمامهم إلى ثقافات الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية الساسانية ، أصيب فكرهم بالفساد . وقد بدأت المصائب مع الخليفة الخامس ، معاوية بن أبى سفيان ، مؤسس الدولة الأموية .

وطليعة اليوم ، أردف قطب ، عليها أن تتبصر بالإسلام ، وأن تنأى عن الثقافة غير الإسلامية . يجب عليها أن تبدأ بتطهير نفسها من الأفكار الجاهلية .

« لابد أن نرجع إليه ــ حين نرجع ــ بشعور التلقى للتنفيذ والعمل . . نرجع

إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون ، لنكون .. ثم لابد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية .. في خاصة نفوسنا » ص ١٨ ، ١٩ .

وما أن تتحرر الطليعة من الاغتراب الذى يسببه المجتمع الجاهلي وتستلهم الوحى من دراسة القرآن وحده ، حتى تكون جاهزة للعمل :

« إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه ....

« إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلى على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته . وألا نعدّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقي معه منتصف الطريق . كلا ! إننا وإياه على مفرق الطريق ، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق » ص ١٩ .

وتنكشف عملية الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام من خلال الشبيل التالى « إنسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبى ، الجارية بقدر الله وحده . وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الاسلامى (حكما) ان الانسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة و ينطوى على نفسه .. إنه سينطلق بها .. هذه طبيعتها .. طبيعة الحركة الحية .. إن القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدما » ص ١١٧ ، ١١٨ .

« وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : أنتم الآن مجتمع ، مجتمع إسلامى مستقل ، منفصل عن المجتمع الجاهلى الذى لايدين لهذه العقيدة ، ولا تسود فيه قيمها الأساسية ـــ القيم التى أسلفنا الإشارة إليها ـــ وهنا يكون المجتمع الإسلامى قد وجد (فعلا) ! . والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مئة ، والمئة يصبحون ألفا ، والألف يصبحون اثنى عشر ألفا .. و يبرز و يتقرر وجود المجتمع الإسلامى ! وفى الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذى انفصل بعقيدته وتصوره ، وانفصل بقيمه واعتباراته ، وانفصل بوجوده وكينونته عن المجتمع الجاهلى ، الذى أخذ منه أفراده » ص ١١٨ .

« لكن الحركة التى هى طابع العقيدة الإسلامية ، وطابع هذا المجتمع الذى انبثق فيها ، لاتدع أحد يتوارى ! .. المعركة مستمرة ، والجهاد ماضى إلى يوم القيامة » ص ١١٨ ، ١١٩ .

ولأغراض التحليل ، يمكننا أن نميز مرحلتين خلال تلك المسيرة منذ ميلاد الطليعة وحتى ترسيخ المجتمع الإسلامى : الأولى هى النضوج الروحى (قاعدة الوحى القرآنى التى هدفها تحرير الرعية من اغتراب الجاهلية) والثانية هى المعركة فى مواجهة هذا المجتمع الجاهلي . و ينجز مصطلح « الجهاد » هذا التغير فى شموليته ، من الجهد الفردى إلى دراسة القرآن إلى الجهاد صفوفا متراصة .

وفى فصل طويل فى « معالم فى الطريق » عنوانه « الجهاد فى سبيل الله » ، أوضح قطب أنه يقصد هذا المصطلح فى أشمل معانيه ، مختلفا بهذا مع هؤلاء « الانهزاميون » الذين أضعفوا من هذا المصطلح ، سواء باختزاله إلى حرب « دفاعية » (و بالتالى رفض إرهاب غير المسلمين) أو جعلوه مقصورا على العزلة فى نطاق جهاد المؤمن للغواية (و بالتالى تجنب محنة الاتصال بالعالم المعاش) . واستمر قطب قائلا ، من المسلم به أن الإسلام يسعى لتحرير الإنسان من الانحطاط الذى أسقطته فيه الغواية ، إلا أنه يجب أن يصبح أيضاً السلاح الذى يحرر به نفسه من النير الذى فرضه عليه بنو جنسه .

تلك هى وظيفة الجهاد ، وأى تصور عن تحقيق النصر من خلال البيان فقط سيصبح تصورا محكوم عليه بالفشل .

« قيام مملكة الله فى الأرض ، وإزالة مملكة البشر ، وانتزاع السلطان من أيدى مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده .. وسيادة الشريعة الالهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية .. كل أولئك لايتم بمجرد التبليغ والبيان ، لأن المتسلطين على رقاب العباد ، والمغتصبين لسلطان الله فى الأرض ، لا يسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل فى إقرار دين الله فى الأرض » ص ٦٠ ، ٦١ .

ومهمة ما أسماه قطب بـ « الحركة » هى إزالة العقبات المادية التى تقف فى طريق الطليعة : « إذا كان « البيان » يواجه العقائد والتصورات ، فإن

« الحركة » تواجه العقبات المادية الأخرى ــ وفى مقدمتها السلطان السياسى القائم » ص ٦١ .

و يشير إصرار سيد قطب على التأكيد على أن تأسيس « مملكة الله على الأرض » لن يتم من خلال التبليغ والبيان إلى السياق الذى كتب فيه « معالم فى الطريق » : ففى مواجهة الدولة الشمولية التى صنعتها الناصرية ، لا يجب على المجاهدين الإسلاميين أن يحصروا أنفسهم فى نطاق الكلمات وحدها . وكانت مساهمة قطب فى التراث النظرى للإخوان المسلمين الأكثر تقليدية هى رؤيته الواضحة للتغير النبوى فى العلاقة بين الجماعة المدنية والدولة التى تولاها نظام عبد الناصر . فحكومات ماقبل ١٩٥٢ لم تعترض جديا سبيل دعوة حسن البنا وأتباعه . وكان الإخوان حينئذ قادرين على إعلان عدائهم للاستعمار البريطانى ، واحتقارهم للنخبة المتفرنجة ، وعدائهم للأحزاب السياسية . لكن فجأة صبغت الحكومة المستقلة نفسها بألوان « الاشتراكية العربية » وأجبرت منتقديها على الاختيار بين التزام السكينة ، أو النفى ، أو السجن ، أو المشانق ، أى أن دعوة الإخوان قد أصبحت مستحيلة . وقطب الذى بين خطأ هؤلاء الذين اختاروا الالتزام بالسكينة أو الذين أخرسوا أصواتهم ، أوضح أن نمط العمل يجب أن يتغير ليتكيف مع شكل قمع الدولة : ففى مواجهة الجاهلية ، على مجاهدى حركة الإسلاميين ، أن يلجأوا إلى « الحركة » ، إلى النضال الذى لن يكون شفويا فقط .

و يشير سيد قطب بإقرانه مصطلحى « الحركة » و« البيان » سويا بشكل ضمنى الى انتشار الإسلام من خلال المصحف والسيف . والمصحف والسيف قد أصبحا متلازمين تاريخيا ، وكل منهما كان له مجال تطبيقه الملائم : فالسيف يستخدم لإخضاع المناطق التى يحكمها غير المسلمين ، وداخل هذه المناطق لإرغام الكفار على تغيير دينهم ، وإلا فالموت جزاءهم . ومن ناحية أخرى ، فإن المسيحيين واليهود لا يجبروا على الدخول فى الإسلام . لكنهم بدلا من ذلك يفترض دخولهم الإسلام من باب القرآن وحده ــ بمعنى آخر ، من خلال الدعوة . (فى الواقع ، يكون دافعهم للتحول إلى الإسلام هو المصالح العامة التى توفرها عضوية جماعة المسلمين) .

وفى الحقيقية ، كانت دعوة الإخوان المسلمين ، فى مصر القرن العشرين ، موجهة بشكل عام للجماهير الإسلامية أكثر منها للأقلية المسيحية والقبطية ، وأقل من ذلك بالنسبة لليهود . فأغلبية الجماهير، على الرغم من إسلامها ، قد نسيت أن الإسلام نظام كامل متكامل ، وحصرت الدين بدلا من ذلك فى نطاق التقوى الفردية . وكان هدف رسالة الاخوان هو توجيه هذه الجماهير لإعادة اكتشاف هذا المدلول الواسع للإسلام . إلا أن انقلاب الضباط الأحرار، الذى أعقبه بعد عدة سنوات تأسيس الدولة الناصرية ، غير كل هذا . واضطهدت الدولة الإخوان ، وأصبحت بالتالى ، وفق تصورهم ، عدوا جوهريا للإسلام . وبالنسبة لمؤلف « معالم فى الطريق » كان انتشار الإسلام يتطلب تحولا فى كلا المجالين ، على مستوى العمل وعلى مستوى الآداة . فالقرآن لم يعد الآن كافيا وحده كدليل : لقد حان وقت السيف ، إنه نظام الجاهلية ، الذى يجب محاربته بنفس أسلوب محاربة الكفار . وبهذا جلب سيد قطب على نفسه مخاطرة غير مأمونة العواقب بخوضه فى الخطوة التى تردد العلماء فى اتخاذها طوال تاريخ الإسلام . فإقرار وقوف الحاكم خارج حدود الإسلام يعنى تكفيره ، والتكفير فى الواقع كان سلاحا خطيرا ، من اليسير جدا أن يسقط فى أيدى الطائفيين البعيدين عن سيطرة العلماء ورجال الدين .

ومع هذا ، فإن موت سيد قطب المبتسر على المشنقة ، قد دفع أفكاره بشكل فعال ، مع كل الغموض الذى تحتويه ، إلى الحياة العامة ، وبالتالى سقط سلاح التكفير فى أيدى الطائفيين الذين لايمكن السيطرة عليهم .

وعلاوة على ذلك ، فقد ترك قطب تعريفه للجاهلية مفتوحا . حيث يمكن أن يكون الحاكم الظالم وبيروقراطيته نموذجها الأوحد ، أو يكون المجتمع بأكمله هو الذى يخضع لهذا الحكم ! . أو بمعنى آخر، هل يمكن اعتبار أى فرد حينئذ مازال مسلما ؟ .

أسئلة مثل هذه قد تبدو مجرد خلافات فى الفتوى . إلا أن الأجنحة المختلفة لحركة الإسلاميين فى السبعينات قد صاغت استراتيجيات مختلفة بناء على كيفية إجاباتها على هذه الأسئلة . وفى الواقع العملى ، أخذت أشكالا عدة بدءا من تدبير الأنقلابات ، إلى إعادة بناء التنظيمات ، إلى الاضطرابات فى الجامعات .

وقد مثل كتاب سيد قطب « معالم فى الطريق » نقطة البدء فى الطريق الذى يجب أن يسلكه مجاهدو حركة الإسلاميين . إلا أن تعذيبه وقتله ، قد حال دون توقعاته الفلسفية ، فواصل قراءه الطريق مسترشدين فقط بالتجربة العشوائية والترقيع الأيديولوجى ، وعادة ماضلوا طريقهم ، وانساقوا إلى الطريق المسدود ، فانتهوا إلى المشانق أو خلف قضبان السجون .

وعندما كتب سيد قطب « معالم فى الطريق » ، كان يراقب الدولة المصرية من مكان متميز جدا فى أحد معتقلاتها . ونتيجة لهذه « الظروف الذاتية » ، مثل الكتاب برنامج (مانفستو) لحركة الإسلاميين كما مثل أيضا جزءا من التاريخ الطويل لنقد الأنظمة الراسخة فى أرض الإسلام .

وعلى رغم شيوع ممالئة عدد من علماء الدين بالقول أو بالفعل للحكام ، فإن عددا لايستهان به منهم لم يهاب إدانة الأنظمة الوراثية أو العسكرية التى تحكم البلدان الإسلامية بسبب الظلم الذى شاهدوه . و بالتالى فإن هذه الأقلية من رجال الدين هى التى أمدت المجتمع المسلم على الرغم من هذا بأكثر الفقهاء ورجال الدين المتمسكين بالتقاليد شهرة وقوة على مر السنين .

ولأن العلماء يتكلمون باسم الله و يصدرون الفتاوى الشرعية بناء على تعاليم القرآن ، فقد كانوا يملكون مقدرة فائقة على إضفاء الشرعية على الحاكم أو سحب هذه الشرعية منه . فإذا حصل أحد المعارضين للحاكم على تأييد العلماء فإنه يكتسب بهذا التأييد مصداقية لايستهان بها ، لا سيما إذا كان هو نفسه واحدا منهم و يُدين باسم الله النظام الذى يسعى لإسقاطه . ولهذا السبب بالتحديد تجمع العلماء فى عدد من الهيئات التى كانت مهمتها هى التحكم فى الوصول إلى المراتب الدينية العليا والحد من عدد ومكانة هؤلاء الذين يمكن أن ينظر إليهم على أنهم قادرين على إصدار الفتاوى الشرعية بناء على تعاليم القرآن . لكن هذه الهيئات عادة ماكانت تفشل فى الحفاظ على استقلالها عن السلطة التنفيذية ، هذا الاستقلال الذى تتطلبه الصفة الرفيعة لوظيفتها . وعلاوة على ذلك ، فقد أظهر قطاع العلماء فى العصر الحديث تحجرا فكريا ملحوظا بشكل عام ــ و بالتالى ، كان هناك متسع أمام المفكرين المسلمين الذين لم تتحكم هذه الهيئات فى تعليمهم ، وهى التى كانت رسميا تنشر المعرفة الدينية . وقد اتجهت هذه

المؤسسات إلى الاستجابة لهذه الظاهرة سواء من خلال استمالة هؤلاء المفكرين إلى جانبها أو من خلال وصمهم بالخروج أو الهرطقة.

وقد تخرج كل من حسن البنا وسيد قطب من دار العلوم، وهي مدرسة ثانوية غير دينية، أي ان احدهما لم يدرس في الأزهر، الجامعة والجامع الرئيسي في مصر. إلا أنه رغم قبول العلماء لحسن البنا في النهاية ضمن صفوفهم، وإن كان هذا قد تم بعد وفاته، لم يحظ قطب بهذا الاعتراف على الإطلاق. بل على العكس تماما، وضع مؤلف «معالم في الطريق» في قائمة الممنوعات، وهي الطريقة الشائعة لتعامل الأزهر مع مشكلة حركة الإسلاميين. وفي الواقع، اعتبرت أصوله الفكرية دائما أقرب إلى فكر الخوارج، بل اعتبر سيد قطب نفسه منحرفا.

والخوارج هم أعضاء أقدم الفرق الدينية في الإسلام. وكانوا من أنصار «علي بن أبي طالب»، رابع وآخر الخلفاء الراشدين، أثناء معركة «صفين» في يوليو ٦٥٦ بين علي ومعاوية بن أبي سفيان، حاكم سوريا، وخليفة المستقبل، ومؤسس الدولة الأموية. وخلال هذه المعركة اقترح معاوية إيقاف القتال واللجوء إلى تحكيم مندوبين عن كل منهما ليحسموا النزاع «وفقا للقرآن»، فقبل معظم الجيش على ذلك. إلا أن مجموعة واحدة من المقاتلين رفضت ذلك، وتمسكت بأن «الحكم لله وحده». وتخلت عن جيش علي، وفي النهاية انضم إليها العديد من أنصاره الأوائل الذين نقموا على قرار التحكيم الذي جاء في جانب معاوية.

وقد انقسم الخوارج بعد ذلك إلى عدة فرق، كانت السمة الشائعة بينها هي رفضها الإقرار بشرعية أي إمام، أو قائد مسلم، لا يتبع تعاليم القرآن، وتأكيدها على أن الإيمان بلا عمل شيء لا قيمة له، وأن المسلمين الذين يرتكبون الآثام مرتدون عن الدين. وأفتوا بتكفير هؤلاء البشر. وتاريخ الخوارج أصبح الآن أحد صور المواجهة مع السلطات الحاكمة، التي لم يخبوا منها سوى تعرضهم لقمع الحكام. أما الجانب الآخر من ثورتهم الدائمة على أي نظام كافر فهو عجزهم عن تأسيس دولة حقيقية لأي فترة زمنية. وقد اختار العلماء الوقوف إلى جانب الدولة دائما، في مواجهة الخوارج، فالدولة ــ مهما كانت تمثل من شرور، ومهما كانت تمارس من عنف وتجعل من الخلافة إرث لها ــ بحد أدنى هي التي تدافع عن

المجتمع الإسلامى أمام الكفار. فمن السهل على العلماء أن يقوّموا الحاكم ، أو أن يصححوا ممارساته من خلال نصيحتهم الحصيفة ، أو حتى أن ينتقدوه عندما يشعرون بأهمية ذلك. لكن تكفير الحاكم ، حتى لوكان أعتى ، لايمكن الإفتاء به إلا بشكل استثنائى فقط ، إذ أن هذا سيفتح الطريق أمام فوضى لايستهان بها ويخلق سوابق فقهية فى منتهى الخطورة.

وكان رد فعل مفكرى حركة الإسلاميين المعاصرة متباينة إزاء وضعهم فى قائمة الممنوعات. فسيد قطب ، على سبيل المثال ، وعبدالسلام فرج ، منظر المجموعة التى اغتالت السادات ، لجأ إلى الأحاديث الشريفة وأنكرا أى علاقة بالخوارج. بينما رفض شكرى مصطفى ، قائد جماعة المسلمين ، كل الحديث الشريف ولجأ مباشرة إلى القرآن.

تلك كانت فصول الجدل الهام الذى أثير حول الإسلام كقوة تستطيع أن تمنح الشرعية للنظام السياسى أو تحجبها عنه. هذا الجدل الذى سيظل القضية الملتهبة فى البلدان الإسلامية فى النصف الثانى من القرن العشرين.

● **تدخل العلماء :**

كان رأى عبد الناصر فى مؤلف « معالم فى الطريق » واضحا كل الوضوح. فالحاكم الظالم ، الذى اغتصب حكم الله وجعل من نفسه هدفا للعبادة من رعاياه ، قام بشنق المنظر الإسلامى فى ٢٩ أغسطس ١٩٦٦. وسيد قطب أصبح شهيدا فى عيون أتباعه. بل أصبح من الصعب مناقشة شخصيته وعمله إلا بأكثر العبارات عاطفية. أما بالنسبة لموظفى نظام عبدالناصر سواء المدنيين أو الدينيين فلم يكن هناك ليضاف إلى الذكرى القائمة لهذا الميت الرجعى ، الخائن الذى نال عقابه العادل. و بالنسبة للإخوان المسلمين. ، القاعدة بينهم هى تناول سيرته على أنها سيرة شهيد ، على الرغم من خلافاتهم المعروفة مع تطرف « معالم فى الطريق ».

أما رد فعل المؤسسة الإسلامية المصرية العنيف والغاضب فقد بدا فى مجلة « منبر الإسلام » ، وهى المجلة التى تصدرها وزارة الأوقاف ، وفى العديد من الكتب التى صدرت أثناء محاكمة سيد قطب. وكانت وجهة النظر الأكثر

رسمية ، هي التي تجسدت في الوثيقة التي أعدها الشيخ محمد عبد اللطيف السبكي ، رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ، بناء على طلب شيخ الأزهر وقتئذ حسن مأمون. فقد أشار الشيخ السبكي إلى أنه رغم أن النظرة الأولى لكتاب « معالم في الطريق » تظهر أنه كتاب يلبي نداء الإسلام ، فإن المرء ينفر منه بعد ذلك من « أسلوبه الملتهب » ، ومن تأثيره وخيم العواقب على النشىء وعلى القراء الذين يعانون من نقص ثقافتهم الدينية .

وقد فنَّد الشيخ الكتاب كلاً وجزءاً . حيث أوضح أنه من الخطر وصف اى فترة بالجاهلية باستثناء تلك الفترة التي سبقت البعثة المحمدية وبناء على ذلك فقد اتهم سيد قطب بأنه من الخوارج :

« مثله مثل الخوارج ، استخدم سيد قطب مقولة « الحاكمية لله » لكي يطلب من المسلمين أن يعارضوا أي حكم أرضي » . وقد برهن الشيخ ، أنه على عكس ذلك ، حيث القرآن على إطاعة الحاكم المسلم ، الذي عليه بالمقابل أن يعمل على تحقيق العدل بين رعاياه . وعلاوة على ذلك ، « فمعظم القادة المعاصرين للبلدان الإسلامية هم قادة صالحين » .

أما بالنسبة للجهاد ، فقد عالجه قطب على أنه إعلان للحرب ضد كل الذين لايفكرون مثله ، من أجل ترسيخ المجتمع المسلم الذي سيصبح هو قائده . وفي النهاية « رغم أنه في أسلوبه ، أي الكتاب ، مليء بالآيات القرآنية والإشارات لتاريخ المسلمين ، إلا أن أسلوبه في الواقع أسلوب مخرب ، لذلك النوع من البشر الذين يخلطون ، في أي مجتمع ، بين الحقيقة والكذب ، أفضل الطرق للخداع . وهذا الكتاب « يسعى إلى إيهام بسطاء العقول وتحويلهم إلى متعصبين وقتلة عميان » « وهذا مايجب أن نأخذه في الاعتبار في ضوء الأحداث الأخيرة (إشارة إلى مؤامرة « الإخوان المسلمين » عام ١٩٦٥ .

« وإذا ربطنا بين سيد قطب وبين الأحداث المعاصرة . ونظرنا إلى ذلك الاتجاه في ضوء الثورة المصرية ، وما ظفرت به من نجاح باهر في كل مجال من مجالات الحياة وضح لنا أن الدعوة الإخوانية ، دعوة مدسوسة على ثورتنا باسم

الغيرة على الدين ، وأن الذين تزعموا هذه الدعوة أو استجابوا لها إنما أرادوا بها النكاية للوطن والرجوع به إلى الخلف ، وتلك هى الفتنة الكبرى »(١٨) .

وقد قضى هذا النص على أى احتمال لاستخدام النظام لفكر سيد قطب ، إلا ان هذا لم يكن حال بعض التيارات الأخرى فى حركة الإسلاميين ، التى أضفت على « معالم فى الطريق » صورة العمل الذى ينظر إليه على أنه خطرا على وجود النظام القائم . وقد اكتسب النقد الذى وجهته للكتاب العناصر الإصلاحية فى حركة الإسلاميين نفسها أهمية أكثر بكثير . وفى الفصل الأول ذكرنا أن المرشد العام قد أبدى إعجابه بهذا الكتاب ، وأكد لز ينب الغزالى « أن الكتاب أثبت صحة كل الآمال التى علقها على سيد قطب »(١٢) . ومع هذا ، فإن أول رد فعل هام ظهر داخل صفوف الإخوان المسلمين على كتاب « معالم فى الطريق » ، عام ١٩٦٩ ، كان عملا لحسن الهضيبى نفسه ، سعى به إلى تصحيح أخطاء إخوان « معينين » . وقد كتب كتاب « دعاة لاقضاة » ، مثله مثل « معالم فى الطريق » ، فى أحد المعتقلات التى وضع فيها الإخوان بعد عام ١٩٦٥ . حيث غذى التعذيب الذى تعرضوا له فكرة « التكفير » ، وخاصة بين شباب المعتقلين . فقد كان من المستحيل بالنسبة لهم أن ينظروا إلى من يعذبونهم أو الذين أعطوهم الأوامر على أنهم مسلمين ، وكذلك هؤلاء الذين تخلوا عن الثورة على هؤلاء الحاكمين الظالمين(٥) . وقد كتب الهضيبى « دعاة لاقضاة » فى محاولة منه لإرشاد شباب حركة الإسلاميين ثانية إلى الطريق القويم والواضح . وتضمن الكتاب انتقادات واضحة لكتاب المودودى « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ، إلا أنه لم يكن من الصعب على من يقرأ ما بين السطور ، ملاحظة تفنيده لمقاطع بعينها فى كتاب « معالم فى الطريق » .

وقد أدرك الجميع ذلك ، أو بحد أدنى محمد قطب ، الذى نشر عام ١٩٧٥ خطابا طويلا فى صحيفة « الشهاب » ، صحيفة الفرع اللبنانى للإخوان ، دافع فيه عن ذكرى أخيه ، سيد قطب ، فى مواجهة هؤلاء الذين اتهمهم بالتعبير عن أفكار تخالف عقيدة الإخوان المسلمين . « فأنا نفسى سمعته أكثر من مرة يقول « نحن دعاة ولسنا بقضاة » وهدفنا ليس أن نحكم على الناس ولكن أن نعلمهم

حقيقة : أن لا إله إلا الله . والمشكلة هى أن هؤلاء الناس لم يفهموا مادا تتطلب هذه الحقيقة منهم » .

وأما مهمة الإخوان ، بالنسبة للهضيبى ، فقد كانت الدعوة للإسلام فى المجتمع الذى يعيشون فيه . وهو لم يصف المجتمع بالجاهلية ، لكنه ذكر فقط أن بعض المسلمين مازالوا يعيشون فى حالة من الجهل . وهاتان الكلمتان ، الجاهلية والجهل ، جرى اشتقاقهما من نفس المصدر ، لكن بينما يفهم المسلم المصطلح الأول بمعانى عديدة ، لايعنى المصطلح الثانى ، بالنسبة له ، سوى ذلك النوع من الجهل الذى يمكن معالجته من خلال الدعوة . وأكد حسن الهضيبى مرارا على أن كل ما هو مطلوب من المرء لكى يغدو مسلما هو نطق الشهادتين ، أن « لا إله إلا الله » وأن « محمدا رسول الله » . و بالطبع ، هناك مسلمون آثمون ، لكن أن يكفر المرء مسلما فهذا هو الإثم بذاته .

و بتأكيده على هذا المبدأ ، الذى أثبت أنه يقوم على تعاليم القرآن والسنة ، اختلف الهضيبى مع المودودى ، الذى زعم أن نطق الشهادتين قد أسىء فهمها اليوم ، حيث لم تعد المجاهرة بالإيمان تصريحا فقط بل يجب أن تترجم إلى فعل قبل أن ينطقها المرء وبهذا فقط يمكن للمرء أن يصبح مسلما .

وأثبت الهضيبى أيضا اختلافه مع تلك الفقرة التى وردت فى كتاب « معالم فى الطريق » والتى تحدث فيها قطب عن أن المرء لن يكون مسلما ونطقه بالشهادتين : « ليس المجتمع الإسلامى هو الذى يضم ناسا ممن يسمون أنفسهم « مسلمين » ، بينما شريعة الإسلام ليست هى قانون هذا المجتمع ، وإن صلى وصام وحج البيت الحرام » ! .

وهنا نأتى إلى ذروة المشكلة التى قسمت حركة الإسلاميين ، فى هذا الوقت و بعد ذلك خلال حكم السادات : فقد اعتقد الثوريون بأن المجتمع المصرى مجتمع جاهلى بكل معنى الكلمة ، ومعنى هذا أن « الحركة هى الآداة المناسبة لنشر الإسلام ، بينما اعتقد الإصلاحيون بأن « الدعوة » وحدها يمكن أن تأخذ بيد المجتمع المسلم ، الجاهل الآن بصلاحية أحكام القرآن لكل زمان ومكان ، ثانية إلى الإسلام .

وتتخذ المسألة شكلا أكثر عملية عند تقييمهم المتشعب لطبيعة النظام السياسي في مصر في ظل عبدالناصر وفي ظل خليفته . هل سمح للإخوان بممارسة الدعوة أم لا ؟ . أجاب حسن الهضيبي ، و بعد موته ، الإخوان الجدد الذين التفوا حول عمر التلمساني ومجلة الدعوة ، على هذا السؤال بالإيجاب . وتصوروا أن الدولة الناصرية لم تختلف بنيويا عن تلك الدولة التي تلتها . بينما أجاب سيد قطب ، والإسلاميون الشباب الذين قرأوا أعماله ، على هذا السؤال بالنفي . واعتقدوا أن الدولة المستقلة تمثل عهد الجاهلية ، عهد البربرية في ظل حماية حاكم ظالم . وأن الكلمات أصبحت عديمة الجدوى في مواجهة ذلك النظام ، وأن انتشار الإسلام لايمكن أن يستمر الآن إلا من خلال « الحركة » .

والجاهلية كانت في الأصل مصطلحا قرآنيا . و بالتالي فهي بالنسبة للهضيبي مصطلح يجب أن نفهم دلالته الحقيقية بدقة . إلا أن الأمور تختلف تماما مع مصطلح « الحاكمية » ، الذي استخدمه المودودي كمرادف معاصر للمصطلح القرآني « رب » في مصطلح « الحاكمية لله » .

وقد اعتقد المرشد العام أن معالجة المودودي برمتها قد جانبها الصواب ، حيث لا توجد في الواقع حاجة للبحث عن مرادفات عصرية للمصطلحات الإسلامية الأربعة ، فالحديث الشريف قد فسرها طوال تاريخ الإسلام . و بالتالي أصبحت معانيها واضحة تماماً . وعلاوة على ذلك ، فإن تعريف العقيدة الإسلامية على أساس معيار « الحاكمية » حماقة كبرى ، كذلك النص على أن المسلمين هم فقط الذين يؤمنون بأن لا حاكمية إلا لله : « وهناك بعض الذين أقاموا إيمانهم على مصطلح لم يذكر سواه في أي آية قرآنية أو أي حديث شريف ، مصطلح من صنع الإنسان ، وهو ليس مقدساً و بالتالي فهو مصدر للخطأ والوهم » (١٥) .

تعرض المودودي لنقد الهضيبي في كتابه « دعاة لا قضاة » ، إلا أن الهضيبي لم يعتبر أبدا أن قطب وريث المودودي الروحي . حتى أنه لم يتعرض له أحد ، حتى عام ١٩٨٢ عندما كتب التلمساني « لم يمثل سيد قطب إلا نفسه ولم يمثل الإخوان المسلمين . وطوال الستينات والسبعينات ، كان الجناح الإصلاحي » متميزا لعمل سيد قطب ومفتونا به . فالحركة ، في الواقع ، لن تخرج ثانية مفكرا في منزلة قطب ، وقد قرأ كل من « معالم في الطريق » و « في ظلال القرآن » بشغف وعلى

نطاق واسع ، إلا أن المجاهدين الإسلاميين الشباب فسروا هذين الكتابين بطريقة تكيفت بصعوبة مع التيار الفكرى السائد داخل الإخوان المسلمين .

وبعد مساهمة الهضيبي ، سعى عدد من الإخوان القدامى لمناقشة عمل سيد قطب . وكانت كل هذه المقالات تنويعات على لحن واحد ، تبدت أولا فى الخطاب الذى أرسله أخو سيد نفسه ، محمد قطب ، لجريدة الشهاب اللبنانية . وكان هذا الخطاب عبارة عن توضيح ودفاع عن فكر الشهيد وأيضا لتقديم مفتاح لقراءته بطريقة لاتشكل خطورة . وقد كتب محمد قطب « ليس هناك شيئا فى كتاباته (أى سيد قطب) يتعارض مع القرآن والسنة ، وليس فى كتاباته شيئا يتعارض مع أفكار الإمام الشهيد حسن البنا ، مؤسس الإخوان ، وخاصة مع تعليقات حسن البنا فى « رسالة التعليم » ، فى الفصل ٢٠ ، « من غير المسموح به تكفير المسلم الذى ينطق بالشهادتين ، و يعمل وفقا لتعاليمهما ، و يؤدى الفرائض الخمس » .

وأردف ، أن سيد قطب ، الوريث الروحى لحسن البنا لم يكن أبدا بالمفكر النموذجى بالنسبة لهؤلاء الذين سعوا للانسحاب من المجتمع ، لخوارج القرن العشرين . فإساءة تفسير كتابات سيد قطب هى فقط التى يمكن أن تغذى هذا الادعاء : « أما بالنسبة لمشكلة الانفصال (المفاصلة) ، فقد أوضحت عباراته أنه كان يقصد الانسحاب العقلى « الذاتى » للمسلم الملتزم بعيدا عن هؤلاء الذين لايشعرون بأى التزام تجاه تعاليم الإسلام ، وليس انفصالا ماديا فعليا . فهذا هو المجتمع الذى نعيش فيه والذى سنبشر فيه بالإسلام ، فكيف يمكننا أن نبشر به إذا نأينا بأنفسنا عن هذا المجتمع ؟ » .

وقد حاول محمد قطب ، فى هذه الرسالة ، أن يعبر بفكر أخيه عقبتين : متطرفى حركة الإسلاميين ، وبشكل خاص أعضاء جماعة المسلمين بقيادة شكرى مصطفى ⁕ ، حيث لايمكن أن تكون هجرتهم ، أو انسحابهم من المجتمع . قد قامت على أساس رؤى قطب ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى هؤلاء المغالون فى

⁕ سيأتى ذكرها فى الفصل الثالث .

اعتدالهم ، مثل الهضيبي ، الذين وقفوا ضد الأخذ بكتاب « معالم فى الطريق » حرفيا وتجنبوا الرد على الأسئلة التى أثارها الكتاب ووجهوا هجماتهم نحو المودودى ، الذى يشبهونه ضمنا بسيد قطب .

وبعد نشر هذه الرسالة ، بذل المؤلفون المنتمون للتيار « الإصلاحى » فى حركة الإسلاميين جهودا مضنية للوصول إلى تفسير للنص الذى قدمه سيد قطب . فبينما لم ينكروا أن التيار الأكثر تطرفا « ثورية » فى حركة الإسلاميين كان يتلقى الوحى من سيد قطب ، فقد سعوا إلى إثبات أن هذا الوحى قد نشأ فعليا من قراءة خاطئة لعمل قطب . ومن ثم فقد كانوا مطالبين بأن يقدموا التفسير الذى يستعيد للكتاب دلالاته الأصلية .

فكان الهدف من تفسيرهم لـ « معالم فى الطريق » و « فى ظلال القرآن » هو إنكارهم لأى علاقة فكرية بين سيد قطب وبين مجاهدى حركة الإسلاميين الأكثر تطرفا فى السبعينات . ولبلوغ هذا الهدف اتخذوا ثلاث خطوات . أولا ، قارنوا بين مايبدو أنه أكثر المقاطع « خروجا وتطرفاً فى كتاب قطب وبين الفقرات الأخرى فى الكتاب تظهر تمسكه بالعقيدة ، ومن ثم حاولوا أن يحسموا الالتباس فى الفقرات الأولى لصالح الوضوح فى الفقرات الثانية . وثانيا ، حللوا المصطلحات والتعبيرات المثيرة للجدل بالطريقة التى تحد من تأثيراتها المدمرة وإعادة تجميعها لتتفق مع الحديث الشريف ، وثالثا ، عندما تتعارض أجزاء من كتب قطب مع هذا الأسلوب ، فإنهم يلجأون إلى القول بأن مؤلف « معالم فى الطريق » كان إنسانا وليس نبيا : وهو بالتالى معرض للخطأ .

وقد قدم يوسف العظم أفضل التفسيرات لسيد قطب فى إطار هذه الروح « الإصلاحية » ، وهو واحد من أكثر شخصيات الإخوان المسلمين الأردنيين بروزا وكاتب لواحدة من أفضل السير الذاتية جيدة التوثيق (٤) . فأوضح العظم أن تناول قطب على أنه قديس لن يفيده : فالعالم الراحل كان إنسانا ، وبالتالى معرضا للخطأ ، ومناقشة أفكاره لن تكون إنتهاكا لحرمة موته . بل بالعكس ، يجب علينا أن نناقشها بالتفصيل ، بحيث لايكون هناك مجال لأى خطأ ، ومهما كان مانتناوله بالنقد قد تم نقده من قبل . ويتساوى فى الخطأ الإدانة الانفعالية له والدفاع الأعمى عن أخطاءه . والأخطاء التى يحتمل أن يكون قد وقع فيها وردت

فى كتابين له ، « معالم فى الطريق » و« فى ظلال القرآن » ، والكتابان ، كما أكد العظم على ذلك ، كتبا فى السجن بينما كان يعانى عذاب لايستطيع إلا نفر قليل من البشر احتماله .

و« يظن البعض أنه قد كفَّر كل المسلمين الذين لم ينشطوا فى صفوف جماعية ، أو فى « الحركة » ، التى كانت تعمل على نصرة الإسلام ، وأنه اعتبر أن كل المجتمعات المعاصرة فى العالم الإسلامى يشكل أفرادها وحكوماتها وتنظيماتها جزءا من الجاهلية » . ومن وجهة نظر يوسف العظم ، يجب التفرقة بين التكفير والجاهلية . فقد استخدم سيد قطب الجاهلية ليشير إلى التخلف الفكرى والأخلاقى . وبهذا المعنى ، فمن المنطقى تماما أن نسمى المجتمع المعاصر مجتمعا جاهليا ، ويجوز للدعاة أن يفعلوا ذلك ، ومضيفا أنه من الواضح تماما أن هذا لايعنى تكفير هذا المجتمع . وفى شرح يوسف العظم لدور الطليعة أكد على أن طليعة الأمة ليست بالفرقة التى تكفر المجتمع ، بل هم جماعة من الأفراد المختارين الذين « يتولون رعاية » أتباعهم من المواطنين ، الذين لوثتهم الأخطاء ذات المصدر غير الإسلامى . وبنفس الطريقة . اختزل العزلة ــ الانسحاب أو الانفصال ــ التى دعى إليها قطب فى الفصل التمهيدى ، حينما كتب أن الطليعة يجب « أن تمضى وهى تزاول نوعاً من العزلة » ص ٩ ، إلى حالة من « التجرد الروحى » الخالص .

إلا أن بعض مصطلحات قطب لم تكن لتتفق تماما مع تفسير العظم . وفى هذه الحالات ، كان يخلص ، إلى أنه يجب ألا نتردد فى الاعتراف بأن قطب قد ارتكب بعض الأخطاء . فعلى سبيل المثال أكد على أن « البلاد التى يعيش المسلمون فيها هى دار الإسلام وجماهيرها مسلمة ، تلك حقيقة لايمكن إنكارها » . وإذا كان سيد قطب قد رفض أن يدرج المجتمعات المعاصرة « التى تدّعى الإسلام » ضمن دار الإسلام ، فإن هذا يرجع إلى الظروف التى كتب فيها كتابه ، إلى التعذيب الوحشى الذى تعرض له فى المعتقلات الناصرية . وبشكل عام ، أكد العظم ، على أن صياغة معالم فى الطريق لايجب أن نأخذها بشكل حرفى على الإطلاق . فقد كان سيد قطب مؤلفا وليس فقيها ، وأحيانا ماكان يجرفه أسلوبه الخاص ،

ولهذا السبب لايجب أن تنشر أعماله دون تعليق ، والرجل الذى يتوافر فيه كل الشروط لانجاز مهمة شرح سيد قطب هو أخو سيد نفسه ، محمد قطب .

وفى الواقع ، يؤكد موقف يوسف العظم على الموقف الغامض تجاه قطب الذى اتخذه معظم المنتسبين لجماعة الإخوان المسلمين . فمكتب العظم فى عمان تزينه صورة كبيرة « للشهيد » وهو خلف القضبان ، بوجهه المنهك الملىء بالأسف الذى تضيئه تعبيرات حادة . وفى نفس الوقت ، فإن التعليقات التى بين أيدينا ، تشير إلى سعيه لوضع مؤلف « معالم فى الطريق » فى خط أقرب إلى حسن البنا و يبرئه من خطايا جماعة شكرى مصطفى ، أى جماعة المسلمين ، بينما فى نفس الوقت استصوب انتقاد الشهيد فى نقاط بعينها .

لم يقدم هذا الفصل سوى النصوص التى كتبت حول « معالم فى الطريق » ، وأبطال الجدل الأيديولوجى الذى نشأ عن الكتاب . فأعمال قطب وأعمال منتقديه ، يمكن بالطبع ، و بسهولة ، أن تقرأ و يعاد قراءتها ولمدة طويلة * ، وأن نقارن بين استشهاداتهم القرآنية ، وأن تدرس المكان الذى تحتله وجهات نظرهم فى تاريخ العقيدة الإسلامية . لكن هدفنا هنا مختلف تماما . حيث يجب علينا فيما يتعلق بهذا الموضوع أن ندرس تمفصلت البنى الرؤ يوية لهذه النصوص مع ، أو انتقلت إلى ، الواقع الإجتماعى فى مصر السبعينات .

★ See, in paruicular, Oliver Carré, Mystique et poliuique, revolutinary reading- of the Koran by Sayyid Qutb, radical Muslim Brother, Presses dela fondation National des Sciences Politipues and Editions du Cerf, Paris 1980.

ملحق
أعمال سيد قطب

واحد وعشرون عمل هى أعمال سيد قطب التى نشرت خلال حياته . والقائمة التالية توضح تاريخ النشر كلما أمكن ذلك . أما الأبحاث التى كتبها لوزارة المعارف العمومية فلم يتعذر الحصول عليها .

١ — « مهمة الشاعر فى الحياة وشعر الجيل الحادر» ، ١٩٣٣ ، نقد أدبى .

٢ — « الشاطىء المجهول » ، يناير ١٩٣٣ ، شعر .

٣ — « نقد كتاب : مستقبل الثقافة فى مصر» ، ١٩٣٩ ، نقد أدبى .

٤ — « التصوير الفنى فى القرآن » ، إبريل ١٩٤٥ ، نقد أدبى ودينى .

٥ — « الأطياف الأربعة » ، ١٩٤٥ ، سيرة ذاتية فى صورة رواية ، كتبها بالتعاون مع إخوته .

٦ — « طفل من القرية » ، ١٩٤٦ ، سيرة ذاتية .

٧ — « المدينة المسحورة » ، ١٩٤٦ ، قصص قصيرة .

٨ — « كتب وشخصيات » ، ١٩٤٦ ، نقد أدبى .

٩ — « أشواق » ، ١٩٤٧ ، قصة رومانسية ، سيرة ذاتية .

١٠ — « مشاهد القيامة فى القرآن » ، إبريل ١٩٤٧ ، دين .

١١ — « النقد الأدبى : أصوله ومناهجه » ، ١٩٤٨ .

١٢ — « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » ، ١٩٤٩ ، عمل دينى سياسى .

١٣ — « معركة الإسلام والرأسمالية » ، فبراير ١٩٥١ ، عقيدة إسلامية .

١٤ — « السلام العالمى والإسلام » ، أكتوبر ١٩٥١ ، عقيدة إسلامية .

١٥ — « فى ظلال القرآن » ، الطبعة الأولى أكتوبر ١٩٥٢ ، تفسير للقرآن .

١٦ — « دراسات إسلامية » ، ١٩٥٣ ، عقيدة إسلامية .

١٧ــ « هذا الدين » ، بدون تاريخ (بعد ١٩٥٤) ، عقيدة إسلامية .

١٨ــ « المستقبل لهذا الدين » ، بدون تاريخ (بعد ١٩٥٤) ، عقيدة إسلامية .

١٩ــ « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » ، ١٩٦٠ ، عقيدة إسلامية .

٢٠ــ « الإسلام ومشاكل الحضارة » ، بدون تاريخ ، (بعد ١٩٥٤) ، عقيدة إسلامية .

٢١ــ « معالم فى الطريق » ، ١٩٦٤ .

الفصل الثالث

جماعة المسلمين

- وجاء الله إلى شكرى .
- الهجرة الجديدة .
- الحياة معا وفقا لسنة الرسول .
- موت عالم .

عرضت الصحف المصرية على قراءها فى الفترة من ٤ يوليو إلى ١ ديسمبر ١٩٧٧ — وهى أيضاً نفس الفترة التى انشغلت هذه الصحف فيها بإضفاء المجد على زيارة السادات، «الرئيس المؤمن»، للقدس فى نوفمبر من نفس العام — صورا يومية لشباب ملتحين متهمين بالانتماء لجماعة إرهابية اسمها «التكفير والهجرة»*. حيث نسبت للجماعة قائمة طويلة من الاتهامات اشتملت على هجمات بالقنابل وعلى العديد من الجرائم الأخرى، هذا فضلا عن اتهام الجماعة باختطاف واغتيال الشيخ محمد الذهبى، العالم الدينى، ووزير الأوقاف الأسبق.

ويبدو أن عنف بهذه الصورة وبهذه النتيجة المأساوية — حيث أن احتجاز الرهائن كان شيئا جديدا على الحياة السياسية فى مصر — شىء لا يمكن تفسيره: فباسم أى نوع من التعصب يمكن للمسلمين أن يقتلوا واحدا من إخوتهم فى الدين؟ وأى إسلام هذا الذى كان فى عقولهم؟ وأخيرا متى كان احتجاز واستجواب المعارضين يجعل الرأى العام قادر على تكوين فكرة واضحة عن

* كان الإسم الحقيقى للجماعة هو «جماعة المسلمين».

ممارسات هذه الفرقة وعاداتها ، وعن أيديولوجية قائدها (كان مهندسا زراعيا اسمه شكرى مصطفى) ، ومجالات تجنيدها ، فى الوقت الذى صدم هذا العمل المجتمع المصرى .

وقد كان الوجود المجرد لهذه الفرقة كفيلا بأن يمثل فى حد ذاته ظاهرة اجتماعية . إلا أن النتائج السياسية لنمط وتوقيت صراعها مع الدولة تأتى لتشكل حلقة هامة فى سلسلة الأحداث التى جعلت من عام ١٩٧٧ عاما فاصلا بالنسبة لنظام السادات . حيث كانت المواجهة بين جماعة المسلمين والنظام ، هذا إلى جانب مواجهة النظام لأحداث الشغب التى وقعت فى يناير ١٩٧٧ ضد زيادة الأسعار ، وخطاب الرئيس فى الكنيست فى نوفمبر ، بمثابة مقدمة للمعركة التى كسبتها الحكومة فيما بعد ضد حركة الاسلاميين ، التى رفضت تنظيماتها الجماهيرية « السلام المخزى مع اليهود » .

وكانت العلاقة بين قطبى الحياة السياسية فى مصر ، قبل بداية عملية السلام ، دافئة تماما . حيث تعامل النظام مع الجناح « الإصلاحى » لحركة الإسلاميين ـــ الذى التف حول مجلة « الدعوة » الشهرية ومثّله داخل الجامعات « الجماعات الإسلامية » ـــ بشكل ودى للغاية ، هذا الود الذى كان متبادلا بدرجة كبيرة ، حيث طهر الإسلاميون الجامعات من أى شىء قد تفوح منه رائحة الشيوعية أو الناصرية . وحظى الجناح المتعصب ، والهامشى ، فى حركة الإسلاميين ، فى غضون ذلك ، بعطف النظام الذى كان يضبط إيقاع حركة ، أى حركة هذا الجناح المتعصب ، من خلال تسلل بعض العناصر البوليسية داخله : حيث كان النظام يهدف بتقديمه بعض المنافذ للمعارضين الإسلاميين أن يصرفهم عن التخطيط للإنقلابات ، تلك الانقلابات التى سلطت الأضواء على خطورتها محاولة الانقلاب التى أجهضت فى إبريل ١٩٧٤ فى الكلية الفنية العسكرية بمصر الجديدة .

وبحلول عام ١٩٧٧ ، تحول هذا العطف المتبادل ، مع ذلك ، إلى عداء مستحكم . هذا العداء الذى أحدثته رحلة السادات للقدس وظل يتصاعد حتى بلغ الذروة فى الإنفجار الذى حدث فى صيف عام ١٩٨١ وماترتب على ذلك من

أحداث ، أى اغتيال رصاصات الإسلاميين للسادات فى أكتوبر من نفس العام وقد كانت المواجهة بين النظام وجماعة شكرى مصطفى ، التى كان من الواضح أن أدوات النظام هى التى أضفت عليها قيمة حقيقية ، مقدمة لهذه العملية . و برز خلال هذا الصدام صوتان ، مثَّلا المؤسستين اللتين عارضتا شكرى مصطفى وجماعته ، حيث سعت كل منهما لأن يكون لها الكلمة الفاصلة : مؤسسة الجيش ومؤسسة الأزهر . وفى آخر الأمر كانت الغلبة للمؤسسة الأولى ، وكانت الكلمة العليا للمحكمة العسكرية التى تولت القضية .

وقد تولت المحكمة تطويق هذه المسألة ، التى بدأت ذات طبيعة دينية واجتماعية ، واصطدمت فى النهاية بالسياسة . فأصرت هيئة المحكمة ، مع ذلك ، على حصر القضية فى النطاق الجنائى . واختفت الأوجه الاجتماعية والدينية والسياسية لهذه القضية تحت طوفان هائل من الكتابات عن شكرى ، بينما حجبت كلماته هو أو عرضت بشكل مشوّه .

● وجاء الله إلى شكرى

كان « معالم فى الطريق » كتابا تم انجازه فى السجن ، وكان الشبان الذين جعلوا منه برنامجهم (أو المانيفستو الخاص بهم) ، أو بحد أدنى مصدر إلهامهم لتطوير عقيدتهم الخاصة ، سجناء أيضا فى الفترة من ١٩٦٥ وحتى عام ١٩٧٠ .

وقد تمثلت الجذور الفكرية لشكرى مصطفى فى التطلع إلى مجتمع مسلم ، واعتبار المجتمع المصرى مجتمع جاهلى ، والاعتقاد بأن هذا المجتمع يجب تدميره وعلى أنقاضه سيقام المجتمع المسلم . ونسب معظم المراقبين المصريين لحركة الإسلاميين المذهب الذى طوّره شكرى مصطفى أثناء سجنه إلى رد الفعل الغريزى لرجل عانى من الاعتقال ظلما . وعلى أى حال ، فأنه من الصعب ، من ناحية أخرى ، إدراك كم عمر هذه الأفكار حينما أفرج عن صاحبها عام ١٩٧١ . فقد بشَّر شكرى وأتباعه بدعوتهم وأخذوا فى تجنيد الأعضاء فى بلد أعلن رئيسه مرارا أن معتقلات عبد الناصر قد غدت شيئا من مخلفات الماضى . ولم تعد مصر السادات تعاقب « مجرمى الرأى » مثلما كان يفعل نظام عبد الناصر ، إلا أن النموذج الجاهلى قد استمر مع هذا جاهليا بكل ما تعنيه هذه الكلمة . فبالنسبة للإسلاميين استمرت « عبادة الإنسان للإنسان » و « حكم الإنسان للإنسان » ، وإن كانت فى شكل معدل .

وفى الواقع فإن الغارات البوليسية عام ١٩٦٥ لم تحصد الإخوان السابقين الذين قبض عليهم قبل ذلك عام ١٩٥٤ ، وحكم عليهم بالسجن ، وأفرج عنهم بعد انقضاء فترة عقوباتهم (وكانوا بالتالى تحت المراقبة البوليسية) فحسب ، بل حصدت أيضا جيلا بأكمله من الإخوان المسلمين الذين إما كانوا قد أفلتوا من الاعتقال ، مثل زينب الغزالى ، أو لم يصلوا بعد إلى سن الإدراك السياسى أثناء حملة اعتقالات ١٩٥٤ . وقد كانت تلك حالة شكرى مصطفى ، الذى ألقى القبض عليه لأول مرة عام ١٩٦٥ . وسجن لتوزيعه منشورات الإخوان المسلمين فى جامعة أسيوط . ونتيجة لذلك ظهرت هوة عميقة بين هذين الجيلين ، الجديد والقديم ، فبينما انخرط الجيل القديم فى اتجاه إصلاحى سعى للتكيف مع نظام السادات حتى عام ١٩٧٧ ، أعلن معظم راديكاليو الاتجاه الأول تكفير المجتمع الجاهلى وتأسيس « جماعة المسلمين » على أطراف هذا المجتمع .

وبالعودة إلى عام ١٩٦٥ ، لاحظ بعض المراقبين وجود نسبة كبيرة من الشباب ، ولا سيما من الطلاب ، بين ضحايا الغارات البوليسية . وقد ذكر زعيم اليسار المصرى ، خالد محيى الدين ، أن الإخوان قد كسبوا تأييد شباب المتعلمين وأن هذا قد مثَّل إلحاحا متزايدا على الاتحاد الاشتراكى العربى لكى يشرح عقيدته فيما يتعلق بالمسائل الأيديولوجية المختلفة . وقد مثل هذا ، فى الواقع ، ظاهرة جديدة : أى ثورة عناصر من جيل تربى فى ظل الناصرية على المجتمع الذى لم يعرفوا سواه وذلك باسم القيم الإسلامية وانضمامهم بالتالى إلى الإخوان المسلمين . فالاعتقالات والقمع ، التى شعر المتعاطفون الشباب مع الإخوان المسلمين أنها لا تتناسب إطلاقا مع جرائم الرأى التى زُعِم ارتكاب الإخوان لها ، قد حولتهم إلى القادة الجدد لحركة الإسلاميين وأمدَّت هذه الحركة بجيل من الكوادر الذين قادوا بعد ذلك الجناح الثورى للحركة فى ظل نظام السادات .

ولد شكرى مصطفى فى بلدة أبو قرقاص ، على بعد حوالى ثلاثين كيلومترا جنوب أسيوط ، فى مصر الوسطى . (كانت موشا ، مسقط رأس عائلة سيد قطب ، على بعد عدة ساعات فقط سيرا على الأقدام ، وكانت قرى المنطقة قد غدت بشكل عام منطقة نفوذ للإسلاميين) .

وكان والده عمدة لهذه البلدة الشديدة التحصين ، التى تقع على التلال المنخفضة التى تجثو فى أحضان الجبال الليبية فى أقصى أطراف المنطقة الزراعية ، حيث زودت الشعاب الصحراوية الممتدة والمليئة بالمقابر القديمة والمغارات للمهربين ، وتجار السلاح ، وزراع الحشيش ، لمدة طويلة بملاجىء يختبئون فيها . ومع حلول نهاية السبعينات شقت الحكومة طريقا عسكريا جديدا بين سلاسل الجبال ، واستطاعت السلطات بذلك اختراق هذه المنطقة التى كانت تقليديا خارجة على القانون . إلا أن التواجد الحكومى ، أثناء طفولة شكرى ، كان مجرد وجود عرضى : حيث كان الجيش يرسل لإحدى القرى من حين لآخر لجباية الضرائب ، أو لاقتفاء آثار قطاع الطرق ، أو للقضاء على إحدى عصاباتهم مؤقتا . وأثناء هذه الهجمات ، كان السكان يلجأون إلى المغارات ، ثم يعودون إلى منازلهم بمجرد انسحاب الجيش .

أى أن شكرى مصطفى ولد إذن فى منطقة نائية قاومت تقليديا اختراق الدولة المركزية ، فى ركن منسي فى مصر عاش فيه ، ولهذا السبب بالتحديد ، العديد من المسيحيين . إلا أن شكرى مصطفى كان عليه أن يغادر البلدة مبكرا : فقد طلق والده والدته ، ومن ثم رحلت إلى أسيوط ، العاصمة الإقليمية ، حاملة معها طفلها .

وفى هذه المدينة ، ذات القصور المزخرفة والواسعة التى عاش فيها ملاك الأراضى المسلمون والمسيحيون حياة مترفة إلى درجة كبيرة قبل أن تجبرهم تأميمات عبدالناصر على الرحيل (وتحول قصورهم التى تنتمى للعصر البائد إلى مقار للاتحاد الاشتراكى ومراكز للبوليس) ، لم يذهب شكرى إلى المدرسة التى أسسها المبشرون الأمريكيون ، وإنما ذهب إلى مدرسة تديرها جمعية خيرية إسلامية . وبالكاد حصل على الثانوية العامة ، والتحق بكلية الزراعة فى جامعة أسيوط . ويبدو أن اتصاله بالإخوان المسلمين قد تم على الأرجح هناك . وعلى الأرجح أيضا أنه قد انضم إليهم ، منذ عام ١٩٦٥ ، فى عامه الثالث والعشرين ، حينما قبض عليه لتوزيعه منشوراتهم داخل حرم الجامعة . وكان هذا العام ، بالطبع ، هو عام موجة الاعتقالات الكبرى التى أعقبت خطاب عبدالناصر الذى ألقاه فى موسكو وكشف فيه النقاب عن ضبط مؤامرة للإخوان المسلمين . وقد

أودع شكرى مصطفى أولا فى سجن طرة ، لكنه تم ترحيلة عام ١٩٦٧ إلى معتقل أبوزعبل . ثم أفرج عنه فى ١٦ أكتوبر ١٩٧١ كجزء من سلسلة الإجراءات التى اتخذها السادات بعد « ثورة التصحيح » فى ١٥ مايو من نفس العام .

وقد أمضى شكرى مصطفى ست سنوات فى المعتقلات فى المرحلة العمرية التى يحفظ فيها أقرانه عن ظهر قلب مايمليه عليهم أساتذتهم ، وقرأ فى السجن للمودودى وسيد قطب وتعلم أن يسمى المجتمع الذى يضم المعتقلات والتعذيب مجتمعا جاهليا .

انقسم المجاهدون الإسلاميون المعتقلون وفقا لقراءتهم لكتاب « معالم فى الطريق » . فبينما دفع الجناح المحافظ المؤيد للهضيبى عن العقيدة الراسخة فى مواجهة البدع من خلال نشر كتاب المضيبى « دعاة لاقضاة » ، انقسم الشباب منذ البداية إلى عدة فرق ، يمكن تقسيمها إلى اتجاهين رئيسيين ، اختلفا حول تفسير واضح لمصطلح سيد قطب « المفاصلة » أو « العزلة » . فبينما اعتقد أصحاب الاتجاه الأول أن العزلة عن المجتمع تعنى فقط العزلة الشعورية ، فهم الاتجاه الثانى « العزلة » على أنها عزلة كاملة عن المجتمع .

وقد عُرف هؤلاء الذين دعوا إلى « الانفصال الشعورى » عن المجتمع باسم « جماعة العزلة الشعورية » . وزعموا بأن المجتمع المصرى الجاهلى المعاصر يجب تكفيره ، إلا أنهم كانوا مدركين للعواقب الوخيمة التى ستجلبها المجاهرة بتكفير المجتمع ، حيث وجدوا أنفسهم فى موقف « استضعاف » بالمقارنة بالمجتمع الجاهلى المعادى * . ولأنهم واصلوا العيش داخل ذلك المجتمع ، فقد أخفوا آرائهم ، ودعوا إلى التكفير سرا فيما بينهم مترقبين مجىء مرحلة « التمكن » التى ستمكنهم من تكفير المجتمع الذى سيكون فى مقدورهم حينئذ محاربته دون أن تكون الهزيمة مصيرهم . ولم يختلفوا فى هذا مع فرق « الشيعة » التى مارست « الكتمان » ، حيث كانوا يتظاهرون بالصلاة فى أيام الجمع خلف إمام حكموا عليه فعليا بالكفر . فرسالتهم

---

* آمنت هذه الجماعة بأن الفترة التى أقام فيها الرسول فى مكة قبل الهجرة ، كانت مرحلة « استضعاف » ، أجبرته على تجنب المواجهة الصريحة مع قبيلة قريش الوثنية الحاكمة . وبعد الهجرة جاءت مرحلة « التمكن » ، التى كان قادرا فيها على تحقيق النصر فى معركته ضدهم .

ستصبح نافذة المفعول بالتدريج ، طبقا لمبدأ « الحركة بالمفهوم » : أو بمعنى آخر ، فخلال تطور الجماعة فى ظل الكتمان ، يتم الإفصاح عن طبيعة المجتمع المعاصر وأهداف الجماعة شيئا فشيئا ، وذلك حسب درجة عضو يتهم فى الجماعة .

وللأسباب السابقة ، لم يكن هناك سوى نقاشات قليلة خلال رئاسة السادات عن الفرق المنتمية إلى هذا التيار الفكرى ، لأنهم كانوا وفق تصوراتهم فى مرحلة استضعاف و بالتالى كانوا يتجنبون الظهور فى الساحة الاجتماعية . وخلال فترات التوتر مع حركة الإسلاميين ، ألقى البوليس القبض على الأعضاء المعروفين فى هذا التيار. و بعضهم كان مسجوناً فى سجن طرة عام ١٩٧٧ (١) .

أما الاتجاه الآخر ، الذى دعى إلى « المفاصلة الكاملة » عن المجتمع ، فقد اتفق مع الاتجاه الأول على أن المجتمع الجاهلى يجب تكفيره وفى تجنب خطر المجاهرة بهذا التكفير بينما يعيش أفراده فى « مرحلة الاستضعاف » . إلا أن طريقتهم لتجنب هذا الخطر كانت هى الانسحاب من المجتمع ، وإقامة مجتمع إسلامى صغير ، على أطرافه ، وهذا المجتمع الصغير سيقوم بالتالى بتكفير المجتمع دون أى « كتمان » .

وقد انتمى شكرى لهذه الفرقة ، إلا أنه لم يكن قائدها الأصلى : فقد احتل هذه المكانة الشيخ « على عبده اسماعيل » ، وهو أحد خريجى الأزهر الشبان ، الذى ظل حتى عام ١٩٦٩ ، القائد المعترف به لهؤلاء الذين آمنوا بالانفصال الكامل عن المجتمع . أما رفاق السجن الذين رفضوا أن يقسموا يمين الولاء لدعوة الجماعة التى كان يقودها الأزهرى الشباب فقد اعتبروا كفار .

وفى واقع الأمر ، فإن أعضاء الفرق المتنافسة فى معتقل أبوزعبل ، رغم كثرتها ، قد تبادلوا تكفير بعضهم البعض ، ووصل الأمر إلى حد رفضهم تبادل السلام ، وأحياناً كان الأمر يصل إلى درجة العراك . وفى هذا الجو من التفتت لم يتخط قادة الإخوان المسلمين مرحلة حفظهم لكتاب الهضيبى .

وقد تعثرت حركة التكفير ، إلا أنها لم تتوقف ، بسبب ارتداد الشيخ على ، الذى اقتنع ببراهين المرشد العام حسن الهضيبى ، حيث أعلن عن تخليه عن التكفير بشكل دراماتيكى إلى حد بعيد : فبعد ظهر أحد أيام صيف ١٩٦٩ ، بعد

أن أمّ جماعته فى الصلاة ، خلع جلبابه الأبيض ، وأعلن أنه قد تخلى عن التكفير بالضبط كما تخلى عن جلبابه . وعلى أثر ذلك تصدعت فرقته .

وبقى شكرى مصطفى على أفكاره حتى أصبح فى النهاية العنصر الوحيد فى الجماعة ، إلى أن انضم إليه ابن أخته ماهر بكرى . وانتقل سلاح التكفير بالتالى من يد خريج الأزهر إلى يد الشاب القادم من الصعيد* ، الذى كانت ثقافته مجرد ثقافة أولية ، ليصبح بالتالى ، أى سلاح التكفير ، واقعا تحت التأثير الشديد للضغط الثقافى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى تعرض له شكرى من خلال المجتمع المصرى . إلا أنه أثبت قدرته على استخدام ذلك السلاح بفعالية فى النطاق الاجتماعى ، وجمع حوله طائفة عريضة شاركته تصوراته .

وفى ١٦ أكتوبر ١٩٧١ أفرج عن شكرى مصطفى من المعتقل . فعاد إلى أسيوط ، حيث أنهى دراسته الزراعية بينما استمر فى التبشير لدعوته . ونال شهرة واسعة فى دوائر الإسلاميين . ويحكى قطب سيد حسين ، أحد خريجى الأزهر وأحد الأعضاء الأوائل فى جماعة المسلمين ، أنه سافر إلى أسيوط من القاهرة لكى يرى شكرى مصطفى ، وبعد ذلك ، اقتنع بآرائه من خلال فصاحته وطريقة ممارسته للسُنة (لحيته ، ورأسه الحليق ، وجلبابه الأسود) ، ومن ثم قرر أن يقيم معه . وقد كان شكرى وأتباعه الأوائل يجوبون ضواحى أسيوط ، كل يوم جمعة ، يبشرون بدعوتهم فى القرى والنجوع ويجمعون الشبان الراغبين فى الانضمام للجماعة . وأحرز نجاحا سريعا ، أدى إلى وضع البوليس نشاطاته تحت المراقبة منذ عام ١٩٧٢ .

وفى بداية ١٩٧٣ ، ألقى القبض على بعض أتباعه ، وضبطت لديهم بعض النصوص التى كتبها شكرى . مما أدى بالجماعة إلى الهجرة بين مغارات الجبال ، أى أنهم هاجروا بالفعل ، أو انسحبوا من المجتمع الجاهلى . ولم تعتبر الدولة شكرى وجماعته خطرين بشكل خاص ، حتى أن الذين قبض عليهم منحهم الرئيس عفوا فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

---

* « صعيدى » : أحد مواطنى مصر العليا أو الوسطى ، واعتبر تقليديا مواطنا ساذجا فى عاداته وفى كلماته .

وحتى هذا الوقت ، كان من الواضح أن الجماعة قد اعتبرت فرقة شاذة تسعى للانسحاب من العالم المعاصر والهجرة إلى اليمن ، وكانت نقيصتها الرئيسية هى التغرير بالفتيات القاصرات وتحريضهن على الهرب من أسرهن والعيش مع أعضاء الجماعة .

وفى عامى ١٩٧٤ و١٩٧٥ وضع المجاهدون الإسلاميون المعروفون للبوليس تحت المراقبة المنتظمة لأجهزة الأمن وذلك فى أعقاب محاولة انقلاب نظمتها جماعة مناوئة لشكرى مصطفى* . وفى مايو ١٩٧٥ نشرت صحيفة الأخبار القاهرية مقالا عن شكرى وأتباعه ، أسمتهم فيه أهل الكهف . ويبدو أن ترحال أعضاء الجماعة بين مغارات الجبال قد ألقى بظله على الذين كتبوا تقارير أجهزة الأمن وبالتالى على الصحفيين الذين نقلوا عن هذه التقارير . وفى " اقع ، وعلى الرغم من هذا ، فإن الجماعة لم تقيم سوى فترة قصيرة جدا فى المغارات . فمعظم المنتسبين إليها أقاموا معاً فى غرف مفروشة فى الأحياء الفقيرة الواقعة على أطراف القاهرة والمدن الأخرى .

ورغم وضعهم تحت المراقبة ، أى شكرى وأتباعه ، إلا أنهم لم يتعرضوا للاضطهاد السياسى بشكل منتظم . وقد تغير كل هذا بصورة درامية فى خريف ١٩٧٦ ، عندما حاولت جماعة إسلامية صغيرة مناوئة له استمالة بعض أعضاء جماعته ، وهو الذى أصبح لديه فى هذا الوقت مايقرب من ألفين من الأتباع ، للخروج منها . ومن وجهة نظر قائدها ، فالخروج على الجماعة يعنى الخروج على الإسلام ومن ثم الكفر ، وعقاب هذا هو الموت : وقد تواصلت حملات البوليس ضد بعض أتباعه ، خلال حملته لتأديب المارقين عليه ، فقامت ببعض الاعتقالات . وأصبح شكرى نفسه مطلوب القبض عليه بعد ذلك . وأدركت وسائل الإعلام القصة وصورت الجماعة على أنها جماعة من المجرمين وقطاع الطرق . وأسمتهم جماعة التكفير والهجرة . لأن الجماعة مارست تكفير أفراد المجتمع « تكفير » وانسحبت إلى الجبال « هجرة » .

---

* كانت هذه الجماعة تسمى جماعة الفنية العسكرية ، وسنتعرض لها فيا بعد .

وقد حاول شكرى مصطفى ، من المكان الذى هرب إليه ، أن يصدر بيانا يصحح به هذا التشو يه ، على أمل أن يحول محاكمة أتباعه بحد أدنى إلى منبر لنشر أفكاره . إلا أن بيانه هذا لم ينشر فضلا عن عدم تقديم أتباعه للمحاكمة .

وفى ٣ يوليو ١٩٧٧ ، قامت الجماعة باختطاف الشيخ محمد الذهبى ، وز ير الأوقاف الأسبق ، عسى أن ينتزعوا استجابة الحكومة لمطالبهم . إلا أن النتيجة الوحيدة لذلك كانت القمع ، فقتل أعضاء الجماعة الشيخ الذهبى . وخلال عدة أيام ألقى القبض على المئات منهم ، بما فى ذلك قيادة الجماعة بأكملها . و بعد محاكمة سر يعة ، حكم على خمسة منهم من بينهم شكرى مصطفى بالإعدام ، ونفذ فيهم الحكم ، وأرسل بالعشرات منهم إلى السجن .

ذلك كان تصورا عاما عن الأحداث الرئيسية التى مرت بها جماعة شكرى مصطفى مرتبة ترتيبا زمنيا . إلا أن الصحف المصر ية لم تذكر ، خلال معالجتها الشاملة للقضية ، حتى الإسم الحقيقى للجماعة ، أى جماعة المسلمين . بل نشرت روايات كاذبة عن أيديولوجيتها وممارساتها الاجتماعية . وكان أكثر الأشياء أهمية بالنسبة لها هو ضمان أن يبدو شكرى فى صورة المجرم المختل عقليا ، وتعر يضه للغضب الشعبى . وهكذا فقد أعلنت الدولة أنها قد فضَّت تحالفها مع حركة الإسلاميين .

دعونا إذن نحاول بترو أن نلقى بعض الضوء على رسالة شكرى مصطفى التى أخفيت ، من أجل إعادة بناء أيديولوجية الفرقة وممارساتها الاجتماعية على أساس من المعلومات المتفرقة التى لدينا . وسيتيح لنا هذا أن نفهم ليس فقط حقيقة جماعة شكرى مصطفى ، ولكن أيضا الدولة والمجتمع التى تشكلت هذه الجماعة فى مواجهتها .

● **الهجرة الجديدة :**

أقيمت المحاكمة الجنائية لجماعة المسلمين فى محكمة عسكر ية لأمن الدولة فى السادس ، والسابع ، والثامن من نوفمبر ١٩٧٧ . وقد طلب القاضى من المتهم الأول أن يشرح أفكاره ، فكانت فرصة له لكى يقدم عرضا متماسكا مبنى على معاييره العقلية وليس من خلال الأسئلة التى توجهها له المحكمة .

لم يكـن الاعـتـزال عـنـد شكرى مصطفى ــ أى الانسحاب من المجتمع ، هذه الـدعوة التى صدمت معاصريه بشدة ــ سوى أحد نتاجات الفكر الإسلامى الذى يجب أن نـأخـذه فى شـمـولـيـتـه . ولا يمكن أن نفهم الاعتزال بالتالى إلا فى سياق الصورة الكاملة لهذه الشمولية .

أولا ، ذكَّـر شـكـرى الحاضرين ، بأن على المسلمين أن يؤمنوا بأن العلم إنما هو لله وحـده . وهـذه الـفـرضـية ، التى تؤكد عليها عدة آيات قرآنية ، ليسلم بها معظم المؤمـنين الـيـوم بـصـورة مجازية ، إلا أن شكرى ذكر على خلاف ذلك أن المعنى المـادى للـعلم يجب أن تنطوى عليه هذه الفرضية أيضا : « فالمسلم مُلزم بأن يبحث عـن سـبـيـلـه وعـن الـعـلم أمام الله وحده ، أما ما نسميه نحن بـ « العلم » ، فهو فى الحـقـيـقـة لـيس بعلم على الإطلاق ، وهو حرام ، لأنه لم ينشأ نشأة إلاهية » . وفى واقع الأمـر ، فـقـد ورد بالقرآن (سورة البقرة ، الآيات ٢١٦ ، ٢٣٢) أن الله يعلم وأنتم لا تـعـلـمـون » . وهذا يعنى ، عند شكرى مصطفى ، أن كل ما جاء بعد القرآن والـسنة ، يجب إخراجه من مجال علم الفقه . وأن المذاهب الفقهية الأربعة للسنة ، مـذهـب أبـو حـنـيـفـة ، وابـن حنبل ، ومالك ، والشافعى على وجه الخصوص هى مذاهب ضعيفة و باطلة . و وفقا للإسلام المتشدد orthodox ، فإن هذه المدارس الـديـنـيـة الأربع ، قد رسخت ، منذ القرون الوسطى ، حدود الاجتهاد الفقهى فى الآيـات القرآنية . و بعدها أقفل باب الاجتهاد . وقد أكد شكرى لهيئة المحكمة على مـايـلـى « أود أن ألـفـت انـتـبـاهكم للحقيقة التالية : الإسلام فى تدهور منذ ذلك الحين الـذى انـقـطـع فيه البشر عن تلقى تعاليمهم مباشرة من القرآن والسنة ، واتبعوا بدلا من ذلك تعاليم بشر آخرين ، أى هؤلاء الذين أسموا أنفسهم بالأئمة » .

وزعـم شكرى ، أن الأعمال الاجتهادية للأئمة الأربعة ، كانت كلها بلا قيمة حقيقية . فالقرآن نزل بالعربية ، وهو من ثم واضح تماما ، والأداة الوحيدة التى قد نحتاجها لشرح معانى بعض مصطلحاته هى قاموس جيد . فإلى أى حد جعلت هذه التفاسير معانيه أكثر سهولة ؟ ولماذا لا تحتاج تفاسير الائمة أنفسهم لتفاسير أخرى ؟

و بـعـد ذلـك ، وفى محـاولـة لاسـتمالة تعاطف مستمعيه ، أطلعهم شكرى على الـسـبـب الـذى جـعـل الائمة يـغلقون باب الاجتهاد : وهو أن تصبح أعمالهم وأن يـصـبـحـون هـم أنفسهم محط كل تبجيل واحترام . وليصبحوا هم أنفسهم أصناما

تعبد مثلما كانت تعبد فى الماضى أرباب الهياكل الوثنية . لقد احتلوا مكانا بين الله و بين المؤمنين ووضعوا أنفسهم بالتالى خارج حدود الإسلام ، أى انهم ينتمون إلى الجاهلية ، إلى البربرية .

ولكن أبواب الاجتهاد لم تغلق دائما فى وجه كل الناس : « هل هؤلاء الذين سعوا إلى إغلاق أبواب الاجتهاد نجحوا فى ذلك حقيقة ؟ » . « لا ، إنهم لم يغلقوها إلا فى وجه عامة الشعب ، بينما تركوها مفتوحة على مصراعيها أمام العديد من أجيال العلماء الذين دعموا حكامهم ، هؤلاء العلماء الذين كانوا يصدرون الفتاوى التى فصّلوها لتلائم رأى الحاكم ـــ مهما كان هذا الحاكم ، ومهما كانت آراؤه ـــ لنشر المعاصى ، وإباحة المحظورات باسم الإسلام . وإذا أردنا أن نقدم أمثلة سواء من الحاضر أو من الماضى ، فلن يستطيع أحد أن يقول بغير ذلك ، وتتضمن هذه الأمثلة حالات واضحة أبيح فيها الربا والزنا ، وعلى تشريعات حكومية شُيدت على قانون غير القانونِ الإلهى ، إلى حد الموافقة على الدعارة وعلى شرب الخمر باسم الإسلام » .

وتدعيما لرأيه استشهد شكرى بالشيخ محمود شلتوت ، شيخ الأزهر خلال فترة حكم عبد الناصر ، الذى أفتى بشرعية فوائد البنوك ، بينما اعتبرها مسلمون آخرون ربا . واستشهد أيضاً بالشيخ الشعراوى ، أكثر دعاة الإسلام الرسمى شهرة خلال فترة حكم السادات ، الذى قرر أن سندات الخزانة لاتتعارض مع التشريع الإلهى ، وبالشيخ سعاد جلال ، الذى أفتى بأن شرب البيرة لاينذرج تحت تحريم شرب الخمر (وقد أطلق عليه لقب « الشيخ ستلا » ، وهو الإسم التجارى للبيرة المصرية) .

وكما هى حالة الزنا ، التى لم يجرمها أحد ، والتى قبلها هؤلاء الذين يُقرون بوجود القانون المدنى ، ذلك القانون الذى لم يعتبرها جريمة ، والذى لم يذكر أيضا هؤلاء الذين عملوا كرسل لتحرير المرأة أوللاختلاط بين الجنسين ، وهى أسوأ الدعوات حتى الآن ، ولاتقل عن الحث على الدعارة ، التى يمكن أن ترتكب ، كما أكد شكرى ـــ معتمدا على السنة ـــ باليد ، والعين ، والأذن .

ويجب علينا أن ننأى بأنفسنا عن الفقه الإسلامى الذى ينتمى إلى العصور الوسطى ككل . فمنذ إغلاق أبواب الاجتهاد ، كان تاريخ الإسلام عبارة عن

تاريخ لتواطوء العلماء مع الحكام . وقد ألقى اليوم على عائق شكرى ، الذى اختاره الله و « تولى إرشاده للطريق القويم » ، مهمة فتح هذه الأبواب ، لكى يفسر القرآن والسنة كما فهمهما ، ولكى يستقى منهما التشريع .

وإذا كان شكرى قد تخلّى عن الماضى ، ناسخا بذلك تاريخ الحضارة الإسلامية لصالح الالتجاء المباشر لعهد نشأتها الأسطورى ، فإنه قد هاجم أيضا الرموز المعاصرة التى من خلالها يكتسب المجتمع ــ الذى اعتقد شكرى أنه أحد صور المجتمع الجاهلى ، أى بربرية ماقبل الإسلام ، أو أكثر من هذا يغتصب ــ طابعه الإسلامى . وعلى رأس هذه القائمة تأتى المساجد .

« يجب أن تسمى المساجد التى يؤدى المصلون فيها صلاتهم باسمها الشرعى ، أى « بيوت الله » . ويجب ألا تنشأ إلا فى طاعة الله . والمرء لا يجب ألا يؤدى الصلاة فى المساجد لم تقام فى طاعة الله » .

وفى مصر ، كما فى البلدان الإسلامية الأخرى ، هناك نوعان من المساجد . المساجد الحكومية التى تديرها وزارة الأوقاف ، والداعية الذى يأم المصلين فيها يوميا و يلقى خطبة الجمعة موظف حكومى ، وهو عادة أحد خريجى جامعة الأزهر ، حيث يتلقى هناك مقررات دراسية دينية . والمساجد الأهلية التى أقامها أناس عاديون ، وهم الذين يختارون الداعية دون أى تدخل من جانب الدولة .

وفى رده على سؤال لهيئة المحكمة « هل تعتقد أنه يجوز للمسلمين أن يؤدون الصلاة فى المساجد الموجوة فى مصر الآن (٢) ؟ أجاب شكرى « لقد قلت إن هناك بعض المساجد الأهلية التى لا تخضع للنفوذ السياسى ، وهذه لا تسيطر عليها المدارس السنية الأربع للجاهلية ، وأنا لم أمنع الصلاة فيها . وعلى الرغم من ذلك ، فقد قررت أن منزلى ومنازل المسلمين (منازل أتباع شكرى بالطبع) هى أنسب الأماكن الصالحة لآداء الصلاة » .

وقد اعتبر البعض أن تأكيد شكرى على هذا الرأى نوعا من أنواع الخروج . حيث دنس شكرى مكانا يرمز إلى الإسلام ، واعتبر المساجد مجرد معابد تعبد فيها الأصنام وذلك فى ظل توجيه النظام السياسى . وفى حقيقة الأمر فإنه لا يوجد شىء مستقبح فى آداء الصلاة فى المنازل . فالمسلم يمكنه تأدية الصلاة فى أى مكان

يشاء ، شريطة أن يتوضأ ، وأن يتوجه شطر الكعبة ، خالعا نعليه ، ولا يقف مباشرة على الأرض . وفى مصر اليوم ، على سبيل المثال ، يمكنك أن ترى عددا لا يحصى من المسلمين راكعين فى أى مكان وفى كل مكان فى أوقات الصلوات الخمس : فى الشوارع ، وفى أماكن العمل أو فى المنازل ، واقفين على قطع من الكرتون ، أو على صحفات من الجرائد ، ونادراً ، على سجاجيد صغيرة للصلاة .

والصلوات اليومية فريضة يؤديها الفرد رغم أن المرء باستطاعته أن يؤدى الصلاة جنباً إلى جنب مع المؤمنين الآخرين : حيث تظهر هذه الصلوات علاقة الفرد فى حد ذاته بالله . وفى أيام الجمع ، يلتقى المؤمنون ، من ناحية أخرى ، فى صلاة جماعية خلف الإمام الذى يلقى أيضاً خطبة الجمعة . وهذه الصلاة من الواجب إقامتها فى المسجد .

وعلى الرغم من أن الصلاة هى أحد « الأعمدة الخمسة » فى الإسلام (بالإضافة إلى الشهادتين ، وصيام رمضان ، وإخراج الزكاة ، والحج فى مكة) ، إلا أن شكرى لم يتردد على الإطلاق فى تأكيده لهيئة المحكمة على أن صلاة الجمعة ، التى تعنى لمّ شمل المؤمنين فى هذا اليوم ، لا تجوز فى المجتمع الجاهلى . « ذلك هو الشرط الأول لإقامة صلاة الجمعة : فهى لا تجوز إلا فى المجتمع المسلم فقط شريطة أن تؤدى فى مكان عام ومفتوح (ظاهر) » . وهذا الشرط يتوفر فقط إذا كانت جماعة المسلمين فى مرحلة القوة « التمكن » ، أى عندما تتبدل علاقات القوى التى تربط بين الجماعة والجاهلية المحيطة بها لصالح الجماعة . وفى عام ١٩٧٧ ، كانت جماعة المسلمين ، من ناحية أخرى ، ما تزال فى مرحلة الضعف (الاستضعاف) وبالتالى رفض شكرى آداء صلاة الجمعة . وتأكيداً لوجهة نظره ، سرد شكرى لهيئة المحكمة حديثاً شريفاً معناه أن محمداً وأصحابه ، عندما كانوا فى مرحلة الضعف فى مواجهة مشركى مكة قبل الهجرة ، لم يقيموا صلاة الجمعة جماعة ، لكنهم أقاموها فقط بعد ذلك ، فى المدينة .

وقد شرح شكرى كيفية الانتقال من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكن بهذه العبارات . « مرحلة التمكن ، مثلها مثل أى شىء آخر ، لها درجات . وهذه المرحلة تبدأ ، فى رأيى ، عندما نكسر دائرة الاضطهاد والضعف ، وبالتالى نتقدم إلى الفتح والانتشار . وليس هناك شك ، فى أن المسلمين عندما هاجروا من مكة

إلى المدينة ، كانوا فى أول خطوات مرحلة التمكن ، حيث لم يعد باستطاعة أحد أن يفرض عليهم شيئا آخر بعد ذلك » .

وبعد هذا سُأل شكرى ، « وهل لم تتجاوز جماعتك بعد هذه الخطوة الأولية ، حتى تستطيع الصلاة فى أى مكان فى أيام الجمع ؟ » . فأجاب شكرى « لا ، بالطبع » . « والدليل على ذلك أنه خلال خمس سنوات كنا متهمين فى أكثر من خمسة عشر قضية تعرضنا فيها للسجن ، وقد قبض على العديد منا هذه المرة أيضا . أين ، إذن ، هذا التمكن ؟ » .

و يبدو أن رفض شكرى لتبجيل المسجد وكذلك رفضه لتأدية صلاة الجمعة خلال مرحلة الاستضعاف يعكس ، بعبارات ترمز إلى عنف شديد ، تصلبا فى تصور شكرى عن العزلة ، ونوع من التذكرة الدائمة بأن الجماعة وجدت نفسها فى موقف مؤقت فحسب ، ولم تصل حتى الآن إلى هدفها ، ألا وهو إعادة فتح هذه الأمة . واللحظة التى سيتحقق فيها هذا الفتح هى اللحظة .. التى سيؤدون فيها فريضة الله جماعة . وهذا يساوى ، سياسيا ، رفض للذين أظهروا ارتياحهم ، حتى لو كان نسبيا ، لتأثير التسامح الهامشى الذى أيدته الدولة حتى نهاية ١٩٧٦ . وقد يوضح هذا طريقة المحكمة فى توجيه أسئلتها . فمن خلال بناء مجتمعها المضاد ، على الرغم من انحراف ممارساته ، عملت جماعة المسلمين كقطب جذب للمعارضين الإسلاميين الشبان ، ورغم تحول الأعضاء إلى داخل الجماعة ، فإنهم كانوا بحد أدنى يتحولون عن التفكير فى تدبير الانقلابات . و بإقامتهم الصلاة فى مساجدهم الخاصة ، يثبتون رغم كونهم معارضين ، أن هذا المجتمع الذين يعيشون فيه مجتمع مسلم . لكن برفضها للمساجد ولصلاة الجمعة ، وضعت جماعة المسلمين مشروعها الخاص موضع التنفيذ : أى القضاء على الجاهلية وإقامة المجتمع المسلم على أنقاضها . و بذلك أظهرت هذه الفرقة أنها تمثل خطرا ثابتا على النظام القائم .

وقد أثبت شكرى من خلال الممارسة أنه فيما يتعلق به ، فإن المجتمع المصرى فى السبعينات كان مجتمعا جاهليا ، مجتمعا بربريا من النوع الذى وصفه سيد قطب فى « معالم فى الطريق » . و بذل قصارى جهده لكى يزيح النقاب عن هذا المجتمع الجاهلى ، وأن يكشف زيف تلك الرموز التى اعتصبها هؤلاء الذين سعوا للإيهام بأن هذا المجتمع إسلامى . ومتسقا مع رأيه هذا ، أخذ على عاتقه مهمة تدمير

تلك الأدوات التى يستمد منها النظام المصرى شرعيته . فبعد المؤسسات الدينية ، كان الهدف التالى للهجوم هو الجيش .

وفى حقيقة الأمر، فإن أحد الأسباب الرئيسية للصلاحيات الواسعة لضباط الجيش داخل النظام المصرى هو حالة الحرب مع إسرائيل التى استمرت حتى عام ١٩٧٧ . وحالة الحرب مع الدولة اليهودية كانت أحد القضايا الرئيسة التى عبئت الشعوب العربية والإسلامية خلف حكوماتها المختلفة ، والتى كانت كافية لتبرير الوحدة المقدسة لدعم الطبقة البيروقراطية التى سيطرت على السلطة . والدولة اليهودية ، فى معجم القومية العربية ، زريعة للامبريالية على أرض عربية مختلفة ، أما فى المقولات الإسلامية ، فإنها تصبح أرضا اغتصبها الكفار من دار الإسلام ، وبالتالى فهى جزء من دار الحرب ، التى يجب إعلان الجهاد عليها بلا هوادة . الذى يحركه و يتولى مسئولية إعلانه عليها قائد المجتمع المؤمن .

و بينما شكلت الصيغة الأولى قلب عقيدة الدولة الناصرية حتى عام ١٩٧٧ ، كانت الصيغة الثانية هى التيمة المفضلة لمجلة الدعوة ، مجلة الإخوان المسلمين الجدد ، فى الفترة من عام ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٨١ . لكن شكرى عارض الآن هذا الموقف ، كما عارضه بعد ذلك عبدالسلام فرج عام ١٩٨١ .

وعندما سأل القضاة شكرى عن موقف جماعة المسلمين إذا غزت القوات الإسرائيلية مصر ، كانت هذه إجابته : « إذا جاء اليهود أو غيرهم ، فلن تسعى حركتنا للحرب فى صفوف الجيش المصرى ، بل بالعكس ربما قد نلجأ إلى الهرب لموقع آمن . و بشكل عام ، فإن خطنا هو تجنب العدو الخارجى والداخلى المتشابهين ، وليس مقاومتها » .

ومن الصعب أن نجد تعبيرا أكثر حدة من تعبير شكرى عن رفضه للقومية المستقلة . مثل تلك القومية التى شيدتها الأسطورة الناصرية القومية التى تبلورت فى النضال ضد إسرائيل . و بالنسبة لجماعة المسلمين ، يتساوى الجيش الإسرائيلى والمخابرات المصرية وهما عدوان لا يمكن التفريق بينهما : وخلال مرحلة الاستضعاف ، فإن سخط الجماعة على « العدو الصهيونى » أخذ شكله العملى فى رفضها للتجنيد الإجبارى . فأعضاء الجماعة لم يشعروا بأى ولاء للدولة .

وبالتالى فإنهم لم يرفضوا فقط ارتدائهم للزى العسكرى بل رفضوا أيضا أى شىء آخر قد يربطهم بالدولة أو حتى بخدمتها . وعلى سبيل المثال ، فقد حظر شكرى على أتباعه التوظف لدى الدولة ، وهؤلاء الذين كانوا يشغلون وظائف فى أجهزة عامة تخلوا عن وظائفهم بمجرد انضمامهم لجماعة المسلمين .

ورفض شكرى أيضا التعليم الذى يقدمه نظام المدارس المصرية ، وقد شرح ذلك فى إجابته على سؤال المحكمة العسكرية .

س : تود هيئة المحكمة أن تعرف رأيك فى تعليم الكتابة .

جـ : تعليم الكتابة فى ذاته حرام .. فالرسول لم يفتح كُتَّابا ولم يفتح مؤسسات لتعليم المسلمين الكتابة والحساب ، ولكن أباح لهم أن يتعلموا وفقا للإحتياجات والضرورات » .

ولا يبدو لى أن رفض شكرى للوظائف الحكومية وللتعليم ، كما زعم منتقدوه ، يقوم فقط على إساءة تفسيره للآية القرآنية (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ..)* ، والتى قيل إن شكرى قد استنتج منها أن الأمية هى الأمل الوحيد . وقد يبدو الأمر أكثر اتساقا إذا نظرنا إلى هذا الرفض فى ضوء ظروف التوظيف العام والتعليم فى مصر السادات .

فلكل خريج فى مصر ، بموجب القانون ، الحق فى التوظف لدى الدولة . ويعتبر هذا الإجراء ، الذى اعتبره البعض سلاحا فعالا ضد البطالة ، فى الواقع المورد الرئيسى للبطالة المقنعة المستشرية فى مكاتب الهيئات الإدارية المتكدسة والتى تنخفض فيها الإنتاجية بنفس الدرجة التى يعانى منها الموظفون من انخفاض دخولهم . وإذا احتاج الموظف الحكومى لمصدر إضافى لدخله ــ سواء حصل على وظيفة اضافية واحدة أو أكثر أو حصل على مساعدة من أسرته ــ فإنه لكى يقتات عليه أن يقوم بشراء السلع الحكومية المدعمة من الجمعيات التعاونية ، ولكنه يصبح عاجزا عن الارتفاع فوق هذا المستوى من الحد الأدنى للحياة . فأى شىء يتحدد سعره من خلال السوق يصبح فوق طاقته . وتقريبا فإن كل موظف حكومى لديه

---

* سورة الجمعة ، آية (٢) .

وظيفة ثانية وأحيانا ثالثة ، لا تمت بصلة لمؤهلاته الثقافية ، وليس لها علاقة بما تلقاه من علوم دراسية ، تكفل له الجزء الأساس من دخله . فهناك عدد لا يحصى من الموظفين الذين يجلسون كل صباح إلى مكاتبهم فى هذه المكاتب الوزارية أو تلك والتى يصعب حصرها يقضون بعد الظهر فى العمل كحرفيين أو كسائقين لسيارات الأجرة . فالوظائف التى يشغلونها غير ملائمة لدرجة أن الأميين يمكن أن يشغلونها ، والحرفيون المهرة هاجروا إلى شبه الجزيرة العربية ، حيث تساوى أدواتهم هناك وزنها ذهبا . والمرأة الريفية التى تصل إلى المدينة وتعمل خادمة لدى أحدى الأجانب سوف يدفع لها مايوازى أو يزيد عن ضعف مرتب أستاذ الجامعة .

وهذه هى الخلفية التى يجب أن نأخذها فى اعتبارنا عند النظر إلى مبادرات شكرى : ففى تحريمه لتعليم الكتابة عندما لا يقابل هذا التعليم احتياجا محددا ، وفى حثه أعضاء جماعة المسلمين على التخلى عن الوظائف الحكومية ، لم يكن متعصبا ينتمى إلى القرون الغابرة ، كما يحلو للبعض أن يقول ذلك . فقد وضع شكرى اصبعه ــ بأسلوبه الخاص (وفى مجموعة مفردات ، رغم أنها لم تكن مفردات ماركسية أو تنتمى لعلم الاجتماع ، إلا أنها كانت بدرجة كبيرة ذات مغزى واضح ومباشرة ومفهومة للطبقات التى يخاطبها) ــ على المشكلة الحاسمة فى المجتمع المصرى المعاصر . وفى واقع الأمر فإن تعليم الكتابة كان بالنسبة للعديد من المصريين بلاجدوى ، ونسوا حتى المبادىء التى تعلموها فى المدرسة ، دون أن يكون لهذا أى أثر سلبى عليهم .

وبنضاله ضد التشريع الدينى للدولة ، وعدم اكتراثه بالصراع ضد الصهيونية الذى قاده حاكم ظالم ، ولرفضه الجذرى لأى تعاون مع المؤسسات الجاهلية ، بما فيها الوظائف الحكومية والنظام التعليمى : وضع شكرى مصطفى نفسه على هامش المجتمع ، ساخرا من العرف السائد داخله . أى أنه تحدى الأعراف الإجتماعية السائدة فى الحياة اليومية ، كاشفا النقاب عن كونها أعرافا سياسية فى الواقع .

العيش معا على سنة الرسول :

لم تخلص مؤسسة الزواج من السلوك الاجتماعى الهش لجماعة المسلمين . والواقع أن أول العمليات البوليسية الواسعة ضد أعضاء الجماعة يبدو أنها قد تمت فى أعقاب تلقى البوليس لعدة بلاغات من أسر أختفت بناتها وانضممن للجامعة ، وتزوجن هناك وفى حقيقة الأمر ، فإن جماعة شكرى على خلاف معظم التنظيمات السرية الإسلامية الأخرى ، كانت تضم لنساء فى عضويتها ، حيث يتزوجن من خلال الجماعة وفقا لطقوس خاصة و ينجبن أطفالا ، وهذا مايكفل بقاء المسلمين الحقيقيين .

وقد مثلت « غواية النساء » بالنسبة للرأى العام عملا مشينا ، وأمدت الصحف المصرية بمادة وفيرة من العناوين والصور الفوتوغرافية . وطبقا لروايات الصحف ، كان السينار يو دائماً واحداً : إغواء الفتيات من خلال انبهارهن بحديث شكرى أو أحد أتباعه ، وفتاة صغيرة تهجر منزل العائلة ودفأها ، وتهجر دراستها ، وتذهب لتعيش بين أعضاء الجماعة . وهذه إحدى القصص ، التى رواها أحد الشهود الذين وقفوا أمام المحكمة ، يرويها والد حزين اختفت اثنتان من بناته . والشاهد ، رجل فى الخامسة والأربعين ، يعمل بشركة لحلج القطن بالفيوم . وكان يتكلم بلهجة ريفية .

« العام الماضى ، قبل العيد الصغير بقليل ، جاءت ابنتى سامية فى أجازة الجامعة ، و بعد ذلك جاءت إلىّ اختها الصغيرة راوية وقالتا لى « خذنا معك لنشاهد القاهرة » . وقد أخذتهما إلى القاهرة وتركتهما بمنزل أختهما الكبرى ، التى كانت قد تزوجت وأقامت هناك ، ورجعت ثانية إلى الفيوم لكى أعيد هناك » .

بعد ذلك قالت لى أمهما« إذهب لتعرف لماذا لم تعد البنتان للمنزل بعد » . فذهبت إلى القاهرة وسألت محمود ، زوج أختهما الكبرى ، « أين البنات ؟ » فأجاب « أخذهما أخوهم سيد ليرجعهما للبلدة » ، فقلت له « لقد وصلت لتوى من البلدة ، وهم لم يصلوا إلى هناك » فقال لى « ربما تكونوا قد سلكتم اتجاهين متضادين » . و بعد ذلك عدت إلى الفيوم ، حيث قالت لى أمهم « أين البنتان ؟ اذهب واحضرهما بأى شكل ، حتى لو كان الشيطان نفسه هو الذى أخذهما » .

فذهب ثانية إلى محمود وقلت له « إن البنات لم يعدن إلى البيت » فقال لى « ماذا تريدنى أن أفعل فى ذلك » « لقد أخذهم أخوهما » . واستمر هذا الحال لمدة ثلاثة أسابيع ، جيئة وذهاباً ،حتى قال لى محمود أخيرا « إذا كنت تريد أن تعرف مكانهما ، فاذهب وقابل شخص اسمه مصطفى الجمل فى أم المصريين » فذهبت وقابلته فقال لى « انس هذا الموضوع ، فإنهما متزوجتان الآن ، وقد تزوجاهما رجلان مسلمان » . بعد ذلك ــ لقد كان ما حدث فى غاية البشاعة ــ قال لى « نحن نفصل المسلمين عن الكفار » فقلت له « حسنا ، أنا أريد أن أراهما فقط . فكيف يمكننى أن أعرف أنهما بخير؟ » فقال لى اذهب وتعال بعد ثلاثة أيام » . وفعلت ذلك ، إلا أنه قال لى مرة أخرى « تعال فى الأسبوع القادم » . فرجعت إلى الفيوم . لكن أمهما لم تتحمل ذلك ، فرجعت ثانية إلى مصطفى هذا ، الذى قال لى « انتظر لحظة » ، وبعد ذلك دخل على هذا الرجل والذى كان اسمه مصطفى الجمل عبد الفضل . وقد تكلمت معه فقالى لى « أى بنات ، انهما متزوجتان » . فقلت له « هل تسمى هذه رحمة ؟ يهربان من المنزل ثم تتزوجان ؟ » . واحداهما لم تتجاوز الرابعة عشر فقط » فقال لى « هذا ما قد حدث » . وبعد هذا ذهب الأب إلى البوليس . وفى نهاية شهادته ، صاح به ابنه ، سيد ، من قفص المتهمين « ألا تخجل ياأبى ، من تمثيل هذه اللعبة التى دبرها البوليس » . وبالطبع فإن الزواج ، كما مارسه أعضاء جماعة المسلمين ، لم يكن يستلزم تلك العقود البالغة التعقيد والشائعة فى المجتمع المصرى لكى تضمن لأسرة العروس أن يقوم العريس بإعداد منزل الزوجية . لقد كان زواجا إسلاميا ، كل مايشترط لإتمامه موافقة الزوجين ووجود حضور الشهود .

وبقدر ما هو معروف ، فإن شكرى نفسه كان له زوجتين . وفى بعض الأحيان كان العريس المرتقب يعيش خارج مصر ، فى أحد البلدان المصدرة للنفط حيث كان يرسل النقود من هناك لصالح جماعة المسلمين . وربما لا تشاهد عروس المستقبل من عريسها سوى صورته الفوتوغرافية . وأحيانا كانت تتعقد الأمور ، عندما لا يجد الزوجان مفراً سوى العيش مع أعضاء آخرين من الفرقة فى نفس الغرفة المفروشة التى تؤجرها الجماعة . وفى هذه الغرفة ، ونتيجة للازدحام

الشديد ، لم يكن هناك حل سوى إقامة أكثر من زوجين فى نفس الغرفة ، حيث لم يكن يفصل بينهم سوى ستارة معلقة .

هذه التفاصيل ، بالإضافة إلى الحق الشرعى الذى نسبته الصورة الشعبية لشكرى ، خلقت صورة يانوسية * ذات وجهين للنساء المنقبات المنتميات إلى الجماعة ، الوجه الأول كان لنساء شديدات الاحتشام يخفين وجوههن من آمام عدسات المصورين ، والآخر كان لنساء يخفين تحت قناع الورع الدينى المفرط فسق لا حدود له ، هذا الفسق كان شكرى هو زعيمه المفترض .

وقد زعم شكرى أنه فى حالة انضمام أحد الزوجين للجماعة ورفض الطرف الآخر ، فإن رباط الزوجية الذى يجمع بينهما يصبح باطلا ومحرما و بالتالى يحل لعضو الجماعة أن يعقد زواجا آخر . وإذا كان هذا العضو رجلا ــ كما فى حالة المهندس فتحى عبد السلام ** ، الذى أجبر زوجته على أن تبيع الثلاجة ، والغسالة ، وموقد البوتاجاز ، و بعد ذلك هجرها وذهب ليعيش مع إحدى عضوات الجماعة فى المنصورة ــ فإن القصة قد تثير بعض الشفقة على الزوجة المهجورة ، بالطبع ، لكنها لا تثير اعتراضا حقيقيا . فالإسلام يسمح للرجل بأن يجمع بين أربع زوجات ، والطلاق إجراء سهل للغاية . إلا أن نفس الخطوة إذا اتخذتها المرأة فهى حرام . وخلال المحاكمة طرح عليه سؤال عن موقفه من الحالة السابقة . فأجاب شكرى بأنه يجوز للمرأة أن تطلب الطلاق بسبب الأختلاف فى العقيدة ، لكن إذا رفض هذا الطلب ، فإنه لا يجوز لها الرجوع إلى زوجها . وأكثر من هذا فإنها ، إذا أرادت ، تستطيع الزواج من أحد أعضاء الفرقة ، لأن الروابط الزوجية الجاهلية ليس لها قيمة داخل جماعة المسلمين .

جعلت جماعة المسلمين إذن من الزواج أمرا ممكنا ووفرت للأزواج الشباب مكانا للعيش معا ، وإن كان ضيقا ، فى أحد « الغرف المفروشة » . ولكى نفهم لماذا بالذات « الغرف المفروشة » ، فعلينا أن نتذكر أن زوج المستقبل فى مصر يجب عليه أن يقدم لزوجة المستقبل دليلا على أن لديه منزلا . ونظريا ، فبإمكان

* يانوس Janus إله الابواب والبدايات عند الرومان وكان له رأس و وجهان ، « المترجم » .

** أنظر جريدة الأهرام ، ١١ / ٧ / ١٦٧٧ ، « المترجم » .

كل الناس استئجار الشقق ، لأن القانون قد ثبَّت الايجارات عند مستو ياتها الإسمية وقت الحرب العالمية الثانية ، والتى حولها التضخم إلى قيمة رمز ية . إلا أن ملاك العقارات أصبحوا يحصلون على أر باحهم من خلال طلبهم لخلو رجل من المستأجر الجديد ، وهو سلوك بلغت درجة شيوعه درجة عدم قانونية . والمبلغ المدفوع قد يساوى أو يقل عن تكلفة شراء الشقة ، ولأن الشاب فى مستهل حياته لا يستطيع الاقتراض (ولا يستطيع ذلك حتى هؤلاء الذين لا يمثل راتبهم الوظيفى إلا جزءا من دخلهم الحقيقى) ، فان الطر يق الوحيد المتاح لكى يستطيع توفير خلو الرجل هو الهجرة إلى بلدان الخليج لعدة سنوات . وهذا هو السبب الذى دفع بمعظم الشباب إلى مغادرة بلدهم فى الفترة ما بين العشر ين والثلا ثين من عمرهم ، وخلال هذه الفترة لا تملك الفتيات سوى الانتظار .

ورغم هذا فقد كان هناك نوع من الشقق يمكن الحصول عليه دون دفع لخلو الرجل هذا . أى « الشقق المفروشة » ، التى تحتوى عادة على القليل من الأثاث أو لا تحتوى على أى شيء منه ، والتى يتحدد سعرها وفقا للعرض والطلب . وهذه الشقق المفروشة يقطنها عادة الأجانب ، و بنات الليل ، والذين يعيشون على هامش المجتمع ، أو البعض ممن لا يستطيعون أو لا ينوون الاستقرار فى مكان واحد لمدة طو يلة ، حيث وفرت لهم سكنى عصر ية . ومثلهم مثل العناصر الهامشية ، لم يستطيع أعضاء جماعة المسلمين سوى توفير هذه الغرف المفروشة وفقط . و بالتالى فقد أسكن شكرى أتباعه فى هذه الغرف ، وهناك عاشوا بشكل جماعى .

كان هذا هو المكان الحقيقى للهجرة ، هجرة الجماعة ، انسحابها من المجتمع الجاهلى . وفى غرفهم المفروشة ، أقام أعضاء الجماعة مجتمعهم الإسلامى الصغير والصادق ، الذى بنوه على فهمهم الخاص للإسلام . وهناك تغيرت حياتهم جذر يا ، تزوجوا صغارا ، والإقامة أصبحت متوفرة دون دفع خلو الرجل ، والقيم السائدة فى المجتمع المصرى لم يعد لا محل بينهم . واعتبروا شهاداتهم الجامعية مجرد قصاصات من الورق ، ومساجد وزارة الأوقاف اعتبروها معابد يعبد فيها فقهاء العصور الوسطى ، وإسرائيل اعتبروها عدوا على نفس درجة عدائهم للحاكم الظالم وجهاز دولته . ونتيجة لتخليهم عن العمل الحكومى وفقا لأوامر شكرى ، قام أعضاء الجماعة بالاشتغال بالأعمال اليدو ية ، وزراعة الخضروات ، و بيع الحلى

الصناعية على عربات اليدولكن ما كانوا يكسبونه من هذه الأنشطة لم يكن يكفى لسداد إيجار الغرف المفروشة . ولذلك فإن معظم مصادر دخل الجماعة كانت تأتى من المبالغ التى كان يرسلها أعضاء الجماعة الذين بعث بهم شكرى للعمل فى المهجر، من السعودية ، ومن الكويت ، ومن الأماكن الأخرى فى الخليج .

كان إذن لأعضاء الجماعة هجرتان ، الهجرة الأولى داخلية وتمثلت فى الانسحاب من المجتمع الجاهلى إلى العيش فى الغرف المفروشة لجماعة المسلمين ، والثانية كانت الهجرة الطبيعية خارج البلاد مثلهم فى ذلك مثل سائر الشباب المصرى ، باستثناء أن الدخل الذى كانوا يحصلون عليه كان يعاد توزيعه لمساندة بقية الأعضاء فى مصر . وعند عودتهم للوطن ، يبدو أن الجماعة كانت ترشح زوجة لكل منهم .

وهذا ، بالطبع ، كاريكاتير لذلك النوع من الهجرة الذى فرضه على المصريين تخلف وطنهم ، إلا أن الخط من تجربة شكرى لهذا السبب وفقط سيصبح خطأ فاحشا — فقد كان يسعى للحصول على مصدر للدخل من خلال الوسائل المتاحة أمام المحرومين فقط . أما أصحاب النزعة الإصلاحية فى حركة الإسلاميين فقد كانوا يتمتعون ، نظرا لتمثيلهم فى دوائر رجال الأعمال ، بالدعم المادى من الرأسماليين المصريين .

إن أهمية وأصالة مفهوم الهجرة والشكل الذى مارست به جماعة المسلمين هذه الهجرة أشياء لايمكن أن نكون قد بالغنا فى تقديرها . فالهجرة ، فى التراث الإسلامى ، تشير إلى هجرة الرسول ، وهى بالتالى جزء من الاستراتيجية السياسية لمواجهة الجاهلية ، وتعنى تجنب العدو الذى يجب محاربته فى حالة عدم وجود أى فرصة للنجاح خلال مرحلة الاستضعاف . لكن الهجرة الداخلية التى مارستها جماعة المسلمين كانت ظاهرة اجتماعية تعكس حال المجتمع المصرى فى السبعينات بنفس الطريقة التى تعكس بها المرآة المقعرة فى مدينة الملاهى صور الأشياء ، أى مبالغتها فى إظهار التشوهات والعيوب .

وكان باستطاعة شكرى إذن ، بلغته النظرية غير المعقولة — التى شكلتها ذكريات الطفولة فى صعيد مصر ، وقراءته لأعمال قطب والمودودى ، وخبرة المعتقلات — أن يجذب الأطفال الضائعين فى دولة العالم الثالث المستقلة الذين

اقتنعوا ، فى الواقع ، بأن الحياة أصبحت لا تطاق . والعرف الاجتماعى السائد داخل جماعة شكرى مصطفى هو خليط من النفايات التى تعبر، حتى فى أكثر صورها التزاماً ، عن ارتباكهم إزاء التغيرات المؤلمة التى أفرزتها الحياة العصرية . وعلى الرغم من ذلك ، يبدو أن تحديد هوية الخلل الاجتماعى يصبح أكثر وضوحاً ، وأصالة ، وإبداعاً عندما تجسده مقولات شكرى مصطفى الإسلامية أكثر مما تعبر عنه اللغة الجافة للماركسيين المصريين .

والزواج كما مارسته جماعة المسلمين أحد الأمثلة ذات الدلالة الواضحة على هذا التناقض الواضح . فقد لاحظ شكرى أن الزواج فى المدن المصرية نتيجة للظروف السابق شرحها لابد أن يأتى فى سن متأخرة وأن الشباب يعانى من ذلك أشد المعاناة .. ومن ثم فقد أعاد ترسيخ مفهوم الزواج المبكر بين أعضاء الجماعة ، بالشكل الذى يتم به فى القرى المصرية . لكن الجماعة نظمت فى نفس الوقت زواج أعضائها ، وكان شكرى نفسه هو الذى يملك هذا القرار و يفرضه على الزوجين فرضا .

وقد عبرت لغة شكرى مصطفى ، رغم أنها قد تبدو لغة متحجرة بالنسبة للمراقبين الغربيين ، عن الحاجات التى حركت مشاعر المسلمين ، الذين كانوا يتخبطون مثله ، فى مجتمع يغوص تدريجيا فى هاوية التخلف . ومثل هذا الوضع صعوبة بالغة لشكرى الذى كان يؤثر الصمت . إلا أن الموقف قد أصبح أبعد ما يكون عن السهولة ، حينما التجأت الدولة للجيش . وليس هناك شك فى أن آخر انتصارات شكرى مصطفى ، الذى اختاره الله ليقود المسلمين للطريق القويم ، كان إجباره المجتمع العسكرى على الخروج للنور ليحمله وزر استشهاده .

● موت عالم :

لم تكن جماعة المسلمين التيار الإسلامى الوحيد بأى حال من الأحوال ، ولم تكن حتى الجماعة السرية الوحيدة للمعارضين الإسلاميين . وكان موقف شكرى من جماعة الإخوان المسلمين وأتباعهم فى مجلة « الدعوة » موقفا واحد لايتغير ، ألا وهو العداء التام . لقد قدم نفسه ، فى الواقع ، كمعارض لخط الإخوان السائد ، هذا الخط الذى وضعه المرشد العام حسن الهضيبى ، مؤلف كتاب « دعاة ،

لاقضاة » ، وهو الذى نُسب إليه ، أى إلى شكرى مصطفى ، هذه الكلمات الفظة عن الإخوان : « إننى أتهم قادة الحركة الإسلامية هؤلاء بأنهم قادوا رجالهم إلى هلاكهم ، ... ، قادة الإخوان المسلمين الذين سلموا إخوانهم إلى جلاديهم ، وأوصلوهم للمشانق ، وللسجون ، وللخيانة العظمى ... لقد دمروا حياة رجالهم ، وعبثوا بهم دون أدنى مسئولية .. »(١) .

وفى واقع الأمر ، كان هناك شك ضئيل فى أن ترد المرشد العام حسن الهضيبى وافتقاره للحس التكتيكى قد أتاح الفرصة للهجمة القمعية ضد الإخوان عام ١٩٥٤ فى أن تحصد أجزاء أكبر من التنظيم . ومنذ ذلك التاريخ ، بذلت كل التيارات المختلفة فى الحركة ، من ناحية أخرى ، جهودا مضنية حتى لا تترك نفسها عرضة لأى هجمة قمعية . و بينما سعى الاتجاه الإصلاحى الذى التف حول مجلة الدعوة إلى اكتساب اعترافا بشرعية وجوده من النظام لكى يتجنب شبح المشانق والمعتقلات . آثر الاتجاه الراديكالى ، الذى استلهم عمل قطب ، الانسحاب من المجتمع أو التزام أقصى درجات السرية .

و باختياره الانسحاب من المجتمع ودفاعه عن نظرية « مرحلة الاستضعاف » ، حافظ شكرى على حياة أتباعه دون أن يتهادن مع المجتمع الجاهلى بنفس القدر الذى انشغل به بهدفه البعيد : أى إقامة الدولة المسلمة على أنقاض المجتمع الجاهلى . ولم يُكِنْ شكرى سوى الاحتقار لاستراتيجية الإخوان المسلمين الجدد الذين التفوا حول هيئة تحرير مجلة الدعوة . فهو لم يعتبر الإخوان المسلمين ، و بدرجة أقل من سار على دربهم ، جزءا من حركة الإسلاميين ، وقد قال لقاضى المحكمة العسكرية : « جماعة المسلمين هى الحركة الإسلامية الوحيدة التى وجدت منذ قرون . أما بالنسبة للإخوان المسلمين ، فإن الله لم يشد من أزرهم ، وهذا برهان دامغ على أنهم لم يكونوا على حق ولم يكونوا حركة إسلامية شرعية ، وعلى أن دعوتهم كانت محض خداع » .

وعلى الرغم من إنكار كل من جماعة شكرى وهيئة تحرير مجلة الدعوة لحق الأخرى فى الحديث باسم الإسلام ، فقد واجهت كل منهما الأخرى بشكل متقطع ، إذ بينما عاشت الجماعة الأولى على هامش المجتمع ناورت الأخرى داخله . إلا أنه كانت ، مع هذا ، صدامات ، وكانت أحيانا عنيفة ، بين جماعة

المسلمين وجماعات إسلامية معارضة أخرى أكثر أو أقل منها شهرة . وهذه الصدامات ، أو ما يسمى بالتصفية الجسدية للمعارضين ، كانت البوادر الأولى لميل جماعة المسلمين لاستخدام العنف .

وفى حقيقة الأمر، فإن جماعة أخرى من جماعات الإسلاميين هى التى بدأت باللجوء إلى العنف فى مصر السادات . هذه الجماعة هى جماعة « الفنية العسكرية » وقد تزعمها أحد الفلسطينيين الذى حاول أن يقود تمردا فى الكلية الفنية العسكرية فى أحد ضواحى القاهرة ، عام ١٩٧٤ ، لاغتيال رئيس الدولة . ووقائع هذه القضية مازالت ضبابية حتى الآن ، إلا أنها ذات أهمية قصوى لاعتبارات عدة . وأول هذه اعتبارات ، أن هذا التمرد الذى تم إجهاضه كان بمثابة بروفة للهجوم المباشر الذى شنته جماعة الجهاد عام ١٩٨١ . وثانيها ، أن هذا التمرد من صنع اتجاه فى حركة الإسلاميين يختلف تحليله للدولة وللمجتمع عن تحليل شكرى لها . وأخيرا ــ ورغم أن هذا من باب التخمين فقط ــ فمن المحتمل أن تكون للأجهزة السرية فى البلدان العربية المعادية للتقارب المصرى الأمريكى الذى أعقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ علاقة بقائد المجموعة .

وقائد هذه الجماعة ، وصل إلى القاهرة فى نهاية ١٩٧١ ، وهو نفس الوقت الذى أفرج عن شكرى فيه من المعتقل ، وكان اسمه صالح سرية وقد ولد فى جزيم ، قرب حيفا ، عام ١٩٣٣ . وجزيم كانت أيضا مسقط رأس الشخصية الغامضة فى الحركة الإسلامية العربية : تقى الدين النبهانى ، مؤسس حزب التحرير الإسلامى . وعلى الأرجح فإن سرية كان عضوا فى هذا الحزب ، الذى أسس عام ١٩٥٠ كرد فعل لهزيمة الجيوش العربية فى حرب ١٩٤٨ فى فلسطين من جهة ، ومن جهة أخرى لاغتيال حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين ، عام ١٩٤٩ . وعلى خلاف الإخوان المسلمين ، الذين سعوا إلى نشر الدعوة بين الجماهير الإسلامية من أجل إنشاء المجتمع الإسلامى ، قرر حزب نبهانى ضرورة الاستيلاء على السلطة السياسية أولا وذلك من خلال انقلاب عسكرى بالقوة . ومن ثم فستقوم الدولة الإسلامية من أعلى . وبسبب أهدافه ، منع الحزب قانونيا فى كل البلدان العربية ، وطورد أعضاؤه فى كل مكان .

عاش سرية فى الأردن ، مثله مثل العديد من الفلسطينيين ، حتى سبتمبر ١٩٧٠ ، إذ غادرها فى أعقاب انتصار بدو الملك حسين على الفدائيين الفلسطينيين فى الحرب الأهلية . وقضى بعد ذلك سنة فى العراق ، إلا أنه أجبر على الفرار منها فى النهاية ، حيث حوكم غيابيا عام ١٩٧٢ بسبب عضويته فى الحزب . ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة ، حيث التحق بوظيفة فى الجامعة العربية (كان حاصلا على دكتوراة فى التربية) .

وعقب وصوله إلى القاهرة ، بدأ سرية فى التردد على الإخوان المسلمين ، خاصة المرشد العام حسن الهضيبى (الذى توفى عام ١٩٧٣) ، وزينب الغزالى ، باسيوناريا * الحركة ، التى كسب ثقتها ، وخاض معها مناقشات عديدة . فى نفس الوقت الذى بدأ فيه فى تكوين مجموعة من الشباب ، كان معظمهم من الطلاب فى القاهرة والاسكندرية .

وعلى عكس شكرى ، لم يؤسس سرية مجتمعا مضادا ولم ينظم أى هجرة لأعضاء جماعته لشقق القاهرة المفروشة . بل استمر أتباعه فى ممارسة حياتهم العادية ، حتى لا يلفتوا نظر السلطة إليهم . وعلى أى حال ، فهم لم يقروا بأن المجتمع المصرى بأكمله مجتمع جاهلى ، لكنهم اقتنعوا فى المقابل بأن الحاكم الظالم وحده هو الذى يقف عقبة أمام انتشار النمط الإسلامى فى المجتمع .

وبتنظيمهم لجماعة من المتآمرين ، تحين سرية وأتباعه أفضل اللحظات الملائمة لتنفيذ انقلابهم . واختاروا لذلك يوم ١٨ إبريل ١٩٧٤ وكان من المفترض فى هذا اليوم ، أن يسيطر عدد من المتآمرين ، من طلبة الكلية الفنية العسكرية بمصر الجديدة ، على مخزن السلاح الموجود بالكلية ، ويهاجمون به موكب رئيس الجمهورية ، الذى كان من المفترض مروره بالقرب منها ، و يقتلون السادات .

* الإسم الحركى الذى اشتهرت به المناضلة الشيوعية الأسبانية ، ورئيسة الحزب الشيوعى الأسبانى منذ عام ١٩٦٠ ، دولوريس يباروى (١٨٩٥ —) . ومما عرف عنها أثناء الحرب الأهلية هناك إطلاقها لشعارين ما يزالان يترددان على ألسنة المناضلين حتى اليوم : « لن يمروا » ، و« الأفضل أن نموت واقفين على أن نحيا راكعين » . (المترجم) .

وقد بدأوا بالفعل فى تنفيذ خطتهم ، إلا أن المؤامرة أحبطت داخل الكلية ، حينما فتح حراسها النار على المتآمرين .

ورسميا ، حملت الأجهزة ليبيا مسئولية هذه المؤامرة ، وعقدت لهم محاكمة ، حكم بعدها على اثنين من المتهمين ، سرية وساعده الأيمن كارم الأناضولى ، بالإعدام شنقا . وحكم على تسعة وعشرين آخرين بالسجن وأفرج عن ستين منهما .

وقد بذلت الحكومة جهودا مضنية لإثبات تورط عناصر أجنبية فى المؤامرة ، تلك المؤامرة التى فاجأتها على حين غرة بانبثاق مفاجىء لعنف الإسلاميين فى الوقت الذى كانت قد أفرجت فيه عن كل أعضاء الحركة الذين اعتقلهم عبد الناصر وفى الوقت الذى كانت فيه حركة الإسلاميين تنمو باضطراد فى الجامعات ــ بمباركة السلطات ، كما سنرى بعد قليل .

وهكذا فإن السجون ما إن اخليت من سجناء عبد الناصر الإسلاميين ، حتى امتلئت ثانية بسجناء السادات الإسلاميين . وعلى الفور أصبح « شهداء » الحركة الجدد موضع احترام الجماعات السرية الأخرى للإسلاميين ، حيث انضم أحد قادة « مجموعة الفنية العسكرية » ، وهو طلال الأنصارى ، إلى جماعة المسلمين أثناء سجنه . ومن ناحية ثانية حاول أحد أتباع سرية المفرج عنهم ، وهو حسن الهلاوى ، استمالة بعض أنصار شكرى لتأسيس مجموعته الخاصة . وقد أعطى هذا الجو الذى تفتّت فيه حركة الإسلاميين إلى فرق متنافسة بالإضافة إلى الأحداث التى وقعت بين هذه الفرق الفرصة للبوليس للتدخل فى الشئون الداخلية لحركة الإسلاميين .

وفى نوفمبر ١٩٧٦ قرر قادة جماعة المسلمين الرد على عدد من الأعمال التى أحسوا أنها تهدد سلطاتهم . حيث خطط حسن الهلاوى لاستمالة عدد أكبر من أعضاءهم . وجاء التهديد الأكثر جدية ، من رفعت أبو دلال ، الذى كان مسئولا عن الإعداد البدنى فى جماعة شكرى ، والذى انشق عن الجماعة ، آخذا معه العديد من الأعضاء .

وقد بدأت الحملة التأديبية « لتأديب المرتدين » بالهجوم على منزلى الهلاوى وأبو دلال فى ١٨ و٢٢ نوفمبر . حيث اعتبر شكرى أن ما حدث مسألة داخلية ، وتوقع أن تدعم هاتان العمليتان التماسك الداخلى للجماعة من خلال إثناء

المعارضين عن الخروج من الجماعة مستقبلا . لكن بلجوئه لمحاولة قتل اثنين من المواطنين ، سمح للسلطات القضائية بأن تتولى القضية ، وجلب على نفسه هجمات الجاهلية أثناء مرحلة الاستضعاف . فتدخل البوليس لكى يضع حدا لحملته « لتأديب المرتدين » واعتقل أربعة عشر عضوا من أعضاء الجماعة . وصدر أمرا بالقبض على شكرى نفسه بعد ذلك .

كان هذا هو ماميز بداية المواجهة بين الدولة وجماعة المسلمين ، هذه المواجهه التى انتهت بتدمير الجماعة وإعدام قادتها . و يصعب حتى الآن إدراك السبب الذى دفع بشكرى إلى المغامرة بهذه المواجهة . فربما اعتقد أن التعدى على سلطاته من قبل بعض الاتجاهات المناوئة له كان تحديا لايمكن السكوت عليه ويهدد مستقبل جماعة المسلمين . وربما اعتقد أيضا بأن البوليس لن يتدخل . وحتى دور البوليس فى هذه القضية مازال غامضا : فليس من الصعب اشتراك الهلاوى وأبودلال فى مؤامرة لجر شكرى إلى هذا الشرك . وعلى كل حال ، فمن المعروف أن المباحث المصرية كانت على اتصال بالرجل الثانى فى جماعة المسلمين ، ماهر بكرى ، الذى أيد التعاون بين الجماعة ومباحث أمن الدولة فى مواجهة الفرق الأخرى فى حركة الإسلاميين ، وعلى الأخص دعاة الفتنة والمعجبين بسرية (١) . وعلى الرغم من اعتباره الدولة المصرية دولة جاهلية ، إلا أن رأى شكرى فى العلاقات اليومية مع الدولة كان أقل حدة من الناحية النظرية : « ليس هناك شك فى أن نظام السادات أحسن ألف مرة من نظام عبد الناصر ، فعبد الناصر لم يسمح لنا بأن نعمل كما نعمل الآن ، ولا بأن نمارس دعوتنا بشكل علنى » (١) . ورد أحد رفاق شكرى المقربين على ذلك بأنه بينما كان عبد الناصر يضرب الحركة بالمطرقة ، فإن السادات يخنقها بخيط من الحرير . أى أن قادة الجماعة لم يكن لديهم إذن تكتيكاً واضحاً لعلاقتهم بالدولة ، وتشبثوا بدلاً من ذلك باستراتيجيتهم العامة ، أى الانسحاب من المجتمع ، الهجرة منه ، خلال مرحلة الاستضعاف . وفى هذا السياق ، فوجئوا على حين غرة بالقبض على أربعة عشر عضو منهم ، كما فوجئوا كذلك بالاتهام الذى وجهته جريدة الأهرام اليومية حسنة الإطلاع فى صور صفحتها الأولى « جماعة المجرمين المتعصبين المتطرفين » .

وخلال الأشهر الستة الأولى من عام ١٩٧٧ ، طالب شكرى دون هوادة

بالإفراج عن « الشهداء » الأربعة عشر ، فى نفس الوقت الذى عرضت الصحف فيه على قراءها صورة دقيقة لجماعة المسلمين . ومن ثم عبّء شكرى كل طاقات جماعته ، حيث قرّر أن الجماعة قد دخلت الآن مرحلة « البلاغ العام » . فأرسلت الجماعة إلى الجرائد عدة بيانات وحاولت تسليم عدة بيانات أخرى لمراسلى الإذاعة والتليفزيون . وأراد شكرى أن يصدر كذلك كتيبا قام بكتابته ، وأسماه « الخليفة » . إلا أن شيئا من هذا لم يتم إنجازه ، وتهددت بالتالى مصداقية شكرى داخل الجماعة مرة ثانية .

وعليه فقد قرر أنه بحاجة إلى « ضربة معلم » يستعيد بها سلطته ، وفى نفس الوقت تشكل تحديا مباشرا للدولة . فقام بعض أعضاء الجماعة الذين تنكروا فى ثياب البوليس ، فى مساء ٣ يوليو١٩٧٧ ، باختطاف الشيخ محمد الذهبى ، وزير الأوقاف الأسبق . وفى الصباح التالى ، أصدروا بيانا أعلنوا فيه مسئوليتهم عن عملية الاختطاف وقدموا فيه المطالب الآتية :

١ ــ الإفراج الفورى عن الاخوة المسجونين ، وعلى رأس هؤلاء طلال الأنصارى (وهو عضو فى جماعة الفنية العسكرية تم تجنيده منذ فترة قصيرة) .

٢ ــ العفو عن كل أعضائنا المحكوم عليهم بالسجن .

٣ ــ يسلم إلينا ٢٠٠,٠٠٠ جنيه مصرى نقدا .. دون علامات مميزة ، ونقودا مستعملة ، دون أرقام مسلسله .

٤ ــ تعتذر لنا جرائد الأهرام والأخبار والجمهورية ومجلات آخر ساعة ، وأكتوبر ، ومجلة الأزهر عن الأكاذيب التى نشرتها عنا ، و ينشر هذا الاعتذار فى الصفحات الأولى .

٥ ــ الأمر بنشر كتابنا الأول ، وعنوانه « الخليفة » ، والجاهز للطبع الآن ، وإزالة أى عقبات قد تقف أمام نشره بالصحف .

٦ ــ تشكيل لجنة من الخبراء للتحقيق فى نشاطات الأجهزة التالية : مكتب النائب العام فى محكمة أمن الدولة ، القضاة ، المباحث العامة ، مكتب النيابة فى المنصورة .

٧ ــ يذاع هذا البيان فى نشرة أخبار الثامنة والنصف مساء ٣ يوليو فى الإذاعة .

٨ ــ ينشر هذا البيان فى الصحف المصرية اليومية الثلاث يوم الاثنين ٤ يوليو، و ينشر أيضا فى الصحف اليومية الآتية ، البعث فى سوريا ، والنهار اللبنانية ، وفى صحف السعودية والكويت ، والأردن ، والسودان ، وتركيا ، وإيران ، كما تنشره أيضا النيويورك تايمز الأمريكية ، ولوموند الفرنسية ، والصانداى تايمز والجارديان البريطانيتين ، كل بلغته .

٩ ــ وكمسلمين فإننا نلتزم بما نقوله و بالشروط التى وضعناها ، وفقا لما أمرتنا به الشريعة .. (أعقب ذلك تهديد بقتل الرهنة لوبحث البوليس عنه أولو ألقى القبض على الذين قاموا بتسليم هذا البيان) .

والبيان نفسه عبارة عن مزيج غريب من المطالب قد يبدو بعضها مقنعا إلا أن البعض الآخر كان غير واقعى على الإطلاق فى مصر السادات ، مثل تشكيل « لجنة من الخبراء » للتحقيق فى نشاطات المباحث العامة . والأخيرة تشير إلى القصور فى إدراك شكرى للفهم الصحيح والفعال لأجهزة الدولة .

ونظرا لأن عملية اختطاف الشيخ الذهبى كانت قد تمت أثناء زيارة كان يقوم بها السادات للمغرب . فقد رفض القادة السياسيون الباقون فى مصر التعامل مع جماعة المسلمين . و بالتالى كان شكرى ظهرة للحائط مرة أخرى ، فأعدم الرهينة ووجدت جثته فى ٧ يوليو* .

وقد عمت البلاد غضبة شديدة ، عملت الصحف على تضخيمها . وخلال عدة أيام ألقى القبض على معظم أعضاء الفرقة فى حملات بوليسية جارفة . أعقبها قرار السادات بتقديمهم لمحاكمة عسكرية خاصة .

وقد أثار تكليف محكمة عسكرية وليس مدنية بالنظر فى هذه القضية ، رغم عدم انتساب أحد من المتهمين للقوات المسلحة ، بعض الجدل . وكان تولى المحكمة العسكرية إذن للقضية وفقا للقانون قد أضر بهيئات أخرى حاولت التصدى لجماعة المسلمين مثل هيئة العلماء ، التى احتلت من ثم مكانة ثانوية . والذى تولى عرض وجهة النظر الرسمية فى شكرى وجماعته للصحف وللجمهور، كان

* يدعى بعض الإسلاميين أن البوليس هو الذى قتل الشيخ الذهبى . وأنا لا أعتقد ذلك ، رغم أنى لا أستطيع تقديم برهان دامغ على ذلك .

المدعى العام العسكرى ، اللواء مخلوف ، بينما لم يسمح لشيخ الأزهر ، أعلى سلطة إسلامية فى مصر ، حتى بالإدلاء بشهادته أمام المحكمة : وبمعنى آخر ، لم يستمع أحد إلى رأى الهيئة التى كان الضحية ينتسب إليها ، أى العلماء .

وفى حديثه الأول لجريدة الأهرام * ، أوضح اللواء مخلوف أن « السبب فى إحالة القضية للقضاء العسكرى هو أننا الآن فى فترة العطلة السنوية للمحاكم والتى تنتهى فى أغسطس ومثل هذه القضية الخطيرة التى تهز الرأى العام لابد وأن تنجز بالسرعة الواجبة والقضاء العسكرى ليس فيه أجازات قضائية » . وقد تمت التحقيقات الأولى حقيقة بسرعة كبيرة . وأصبحت التحقيقات منتهية فعليا فى ٢٧ يوليو رغم وجود عدة مئات من المتهين . وفى لقاءه الثانى مع الأهرام » ** هنأ اللواء مخلوف نفسه على الانجاز الرائع لهذه المهمة ، وطمئن أى قارىء قد تثور لديه أدنى الاعتراضات. « فكل الضباط الذين شاركوا فى التحقيقات لديهم بحد أدنى درجات علمية فى القانون ، إن لم تكن الدكتوراة » ، وبدأ فى شرح المنهج الذى اتبعه المحققون العسكريون فى تعاملهم مع قضية جماعة المسلمين ، ذلك المنهج الذى ستتضح معالمه من خلال الاتهام وهذا سيملى حقيقته الخاصة وتحليله الخاص للمسألة ، وأسبابها ، والحلول اللازمة .

كان شكرى ، كما أوضح اللواء مخلوف دجالا . لقد زعم أنه يفسر القرآن والحديث ، إلا أن معرفته بهذا المجال لم تتعد معرفته بقواعد النحو ، التى كان جاهلا بها تماما . « للأفتاء فى الإسلام شروط ... أهمها التعمق فى معرفة أصول لغة القرآن ثم التفقه فى الدين ومعرفة أحكام القرآن .. ولا يتوافر شرط واحد منها فى زعيم جماعة التكفير والهجرة » . و « لم يكن يعرف حتى عام ١٩٦٥ آية واحدة من آيات القرآن .. وعندما دخل المعتقل فى ذلك العام أخذ يقرأ بعض الكتب التى تنطوى على أفكار منحرفة *** ثم خرج عام ١٩٧١ ليدعى أنه على علم بالقرآن

---

* أنظر : جريدة الأهرام فى ١٣ / ٧ / ١٩٧٧ ، (المترجم) .

** الأهرام ٢٧ / ٧ / ١٩٧٧ ، (المترجم) .

*** الإشارة إلى أعمال قطب والمودودى ، واللذين ذكرا بالإسم ، الأول فى شهادة عادل مجاهد ، مقدم المباحث المسئول عن مراقبة جماعات الإسلاميين ، والثانى فى مرافعة المدعى العام العسكرى .

والسنة يأخذ منها مايشاء ليضلل أتباعه باسم الدين .. وفيلسوف الجماعة والذراع الأيمن لزعيمها ـــ ماهر بكرى ـــ نجده شابا لم تتعد ثقافة الثانوية العامة .. » .

وفى رده على سؤال حول كيفية تمكنه من السيطرة على هؤلاء المثقفين أجاب اللواء مخلوف « بعض الأتباع ثقافتهم لاتخرج عن تخصص من التخصصات الجامعية كالهندسة والطب مثلا .. فهم يعانون من الفراغ الدينى » . وسبب هذه الكارثة أشار إليه اللواء مخلوف فقط عندما ألقى بيانه العلنى فى أكتوبر ١٩٧٧ : « الشباب لم يتربوا تربية دينية » . والحل الذى قدمه هو: تربية الشباب دينيا ، من المرحلة الابتدائية حتى مستوى الجامعة ، بجعل المواد الدينية مواد إجبارية * ، ويكمل هذا جزئيا الصحفيون ، والمؤلفون ، ورجال الأدب الآخرون لشرح وصيانة الدين الإسلامى فى كتاباتهم . أما بالنسبة للعلماء فقد ذكر الاقتراحين التاليين لتنبيههم إليها :

« على الأزهر ووزارة الأوقاف بحث القصور فى الدعوة الإسلامية . والبحث عن أسباب ذلك القصور، وكذلك أسباب نضوب المصادر التى تروى حقول التعليم الدينى » .

و « الخطوات التى يجب اتخاذها لرفع مستوى خريجى الأزهر فى مجالى الدعوة والإرشاد ، لكى يكونوا بالتالى قادرين على ملء الوظائف الشرعية التى يشغلونها ، بالأسلوب السهل الذى يسمح لهم بالوصول إلى قلوب وعقول الشباب » .

كان هذا هو موقف المؤسسة العسكرية من جماعة المسلمين : فشكرى ، دجال مجرم سعى إلى قلب نظام الحكم ، وكان قادرا على خداع الشباب بإخفاءه لمشاريعه الآثمة تحت عباءة الدين ، وهذا ماكان ممكنا لولا الفراغ الدينى الذى عانى منه الشباب نظرا لعجز الأزهر . أو بوضوح ، فقد فشل العلماء فى هذه المهمة .

---

* كان هذا النظام مطبق بالفعل فى المدارس الاعدادية والثانوية .

وقد وجد العلماء أنفسهم فى موقف لايحسدون عليه . ليس بسبب انتماء الضحية لصفوفهم ، بل لأنه بينما اعتبرتهم جماعة المسلمين مجرد « كلاب السلطان » ، و « ببغاوات المنابر » ، اتهمتهم المؤسسة العسكرية بالتقصير.

لم يختار شكرى الشيخ الذهبى عفويا ، بل اعتبره مسئولا بدرجة كبيرة عن تلفيق تلك الصورة السلبية لجماعة المسلمين . فالشيخ الذهبى كتب فى يوليو ١٩٧٥ ، بينما كان مايزال وزيرا للأوقاف ، مقدمة لكتاب رسمى موجه ضد الجماعة . وقد نسب فكر الجماعة فى هذا الكتاب ثانية إلى الخوارج ، وهذا الرأى هو صورة طبق الأصل من معالجة المؤسسة الدينية الإسلامية الدائمة لأى ظاهرة جديدة وهامة . فبدلا من إعطاء هذه الظاهرة ماتستحقه من تحليل حتى تتمكن الدولة من فهمها جيدا و بالتالى تعمل على الحد من تأثيرها بشكل أكثر فعالية ، لم ينجح الشيخ الذهبى إلا فى تركيزعداء شباب الإسلاميين على العلماء . وهكذا أثبتت المؤسسة الدينية الإسلامية للنظام السياسى أنها لم تكن هى المؤسسة التى يعول عليها القدرة على تأدية الدور المرتقب منها : أى تربية الشباب دينيا ، أو بمعنى آخر ، التأكد من أن سلوك المسلم يصبح قوة لتوحيد المجتمع وليس نمطاً للتعبير عن الثورة ضد العلماء .

وكان تحجر العلماء بمثابة تاريخاً مشهوراً نسبياً يرجع إلى عصر محمد على فى بداية القرن التاسع عشر . وقد سعى نظام ناصر ، بإصلاحه للأزهر عام ١٩٦١ وما أعقب ذلك فى العام التالى بإصلاحه لوزارة الأوقاف ، لأن يجعل هذه المؤسسات منفتحة على المجتمع ، و بالتالى تصبح هذه المؤسسات قادرة على العمل بشكل فعال كأدوات أيديولوچية النظام إلى الجماهير . إلا أن العلماء ، الذين تباطأوا فى آداء مهمتهم عامدين كما كانوا يفعلون فى القرن الماضى ، عارضوا إصلاحات الستينات وسعوا إلى الحفاظ على مكانتهم الخاصة . تجنبا لأن يصبحوا مجرد موظفين دينيين فى الدولة . وكان هذا ثمن محافظتهم على مصداقيتهم الشعبية . وفى المقابل ، فإن السلطة لم يكن لديها ، على الرغم من ذلك ، ثقة كاملة بهم : والحق يقال ، فقد خدم العلماء الدولة ، إلا أنه لم يكن لديهم أدنى نية لأن يتلقوا تعليمات لآداء واجبهم . وفى هذا السياق يمكننا أن نفهم موقف شيخ الأزهر فى

قضية الشيخ الذهبى ، وأيضا موقفه من المعارضين الإسلاميين من ذلك النوع الذى عبرت عنه جماعة المسلمين .

وكان الشيخ عبدالحليم محمود فى لندن ، فى الفترة من الثالث إلى السابع من يوليو ١٩٧٧ . ولم تظهر مساهمته فى الحملة الصحفية ضد جماعة التكفير والهجرة إلا فى ١٦ يوليو فى جريدة الأهرام . ورغم أن الامام الأكبر كان معارضا لأفكار الجماعة ، إلا أنه قد أرجع سبب الظاهرة رغم ذلك إلى أن السلطة السياسية فى مصر قد شغلها لفترة طويلة رجال لم تتأصل فلسفتهم السياسية بالثقافة الدينية للبلاد . وهذا مايفسر وصف هذه الجماعة الحائرة من الشباب للمجتمع بالجاهلية ، إلا أن هذا لم يكن منهج المدعى العسكرى فى تعامله مع هذه القضية ، حيث قال على خلاف ذلك إن الفرقة قد تسترت تحت عباءة الدين لكى تخفى جرائمها . ورفضت المحكمة طلب محامى شكرى ، الذى تقدم به فى بيان علنى فى ٢٣ أكتوبر ، لاستدعاء عبدالحليم محمود للشهادة أمام المحكمة ، و بالتالى فقدتم التعتيم على موقف الأزهر من جماعة المسلمين .

والدولة لم تكن لتسمح بأن تصبح الأصول العسكرية للنظام الذى أقامته ثورة ١٩٥٢ موضوعا للنقاش فى ساحة المحكمة . ومن ثم فإن صوت واحد هو الذى انفرد بإدانة نشاطات شكرى وأيديولوجيته . وكان على شيخ الأزهر إذن أن يلزم الصمت و يترك للمدعى العسكرى حق إصدار الحكم بإدانة شكرى على هواه . إلا أن نشر حيثيات الحكم فى ٢١ مارس ١٩٧٨ وضع العلماء ثانية فى قفص الاتهام ، حيث اتهمهم بالفشل فى آداء مهمتهم ، أى فى تربية وتثقيف الشباب دينيا . فأصدر الشيخ عبدالحليم محمود ، الذى غضب بشدة ، بيانا ليرد به على هذا الاتهام ، وقد حظى هذا البيان باهتمام واسع فى الصحافة العربية ، رغم أن هذا لم يكن حال الصحف المصرية . واتهم الشيخ فى بيانه المحكمة العسكرية بالعجز لأنها لم تميز بين اغتيال الذهبى من ناحية و بين أفكار شكرى من ناحية ثانية . وأكثر من هذا فقد أشار الشيخ إلى أن المحكمة لم تسع إلى اشتراك الأزهر فى عملها هذا سيىء الطالع : أى أن المؤسسة الدينية كانت تتوقع إذن تجريما لفكر شكرى — لمجرد كلام قيل عنه ، دون أن يسمح للعلماء بالاطلاع على أعمال المتهم أو مقابلة مؤلفها . لكن فى بلد تسود فيه حرية الرأى ، تلك الحرية التى يستفيد منها حتى

الملحدون والشيوعيون أنفسهم ، لم يكن من وظيفة الأزهر أن يجرم فكراً « فى السر» .

و يعكس العنف الشديد لمقالة شيخ الأزهر الموقف المحرج الذى وجد العلماء فيه أنفسهم : حيث حظيت وجهة نظر الجيش بالتأييد دون وجهة نظرهم فى مجال هو مجال تخصصهم ، أى فى تحديد معنى الأنحراف الدينى . فثورة التصحيح كان قد مضى عليها ست سنوات * ، تلك الثورة التى أعاد فيها السادات سيادة القانون وأعاد الدور العادى للمؤسسات ، أى أن النظام لم يكن مضطرا ، إلا فى عهد عبد الناصر ، لاستدعاء الجيش ، المؤسسة الوحيدة التى كان ولائها فوق كل الشبهات .

كانت جماعة المسلمين إذن ظاهرة فريدة فى مصر السادات . فبتنظيم شكرى لمجتمع مضاد فى الغرف المفروشة ، سمح لأتباعه بأن يقيموا مدنيتهم الفاضلة ، فى عالم سادت فيه القيم الإجتماعية المعكوسة . وكانت ثورتهم العنيفة ، والفقيرة ، والمحرومة ، واليائسة من الجموح بحيث أصبحت قصة تروى : وهذا الخليط النظرى المرتبك الذى تبنوه يحمل الطابع الحقيقى للأشياء التى كانوا يعانوا منها .

هذا الاتجاه فى حركة الإسلاميين أسدلت عليه ستائر النسيان . إلا أن إنجازاته وأخطاءه وفرت للآخرين غذاء فكريا ، وخاصة لتلك الجماعة التى دبرت المؤامرة التى أدت لاغتيال السادات . فقد مضت تلك المواجهة التى حدثت بين الدولة وجماعة المسلمين على نظرية « مرحلة الاستضعاف » ، التى وضعها سيد قطب . و بالتالى فإن الإسلاميين الشبان الذين جاءوا بعد شكرى اعتبروا أنفسهم قد تجاوزوا لتلك المرحلة .

* On the competiton among the various various intellectual discourses in Egypt tody, see my article «Les ouémas, l'intelligentsia et les islamistes en Egypt. Systeme social, ordre transcendantal et ordre traduit». Revue Fran[aise de. Science politique, Vol. 35 (1985), no 3.

الفصل الرابع

مجلة الدعوة

- التمويل.
- فرسان الرؤيا الأربعة.
- الإستفادة من البرلمان.

بتأسيسه لجماعة المسلمين ، أطلق شكرى مصطفى العنان للمفاهيم التى قدمها سيد قطب فى كتابه « معالم فى الطريق » . لكن اتجاه آخر فى حركة الإسلاميين سلك سبيلا مغايرا ، حيث حاول على العكس من ذلك الحد من شطحات «معالم فى الطريق» ، تلك الشطحات التى طاشت سهامها فى اتجاهات عدة ، وأن يقصر رسالة حركة الإسلاميين على الطريق الذى رسمه حسن البنا ، مؤسس الإخوان المسلمين .

والبداية المبكرة لهذا الاتجاه تعود إلى عام ١٩٦٩ ، عندما أصدر حسن الهضيبى، المرشد العام للإخوان المسلمين ، كتابه « دعاة لا قضاة » . وقد التف « الحرس القديم » من قادة الإخوان الذين ثبتوا على أفكارهم ولم يهربوا خارج البلاد ، والموجودون فى هذا الوقت فى متعقلات النظام ، حول هذا الاتجاه . وعقب إطلاق السادات لسراح الإسلاميين ، التم شمل الحرس القديم ثانية وقدموا طلبا للدولة لكى تمنحهم اعترافا شرعيا . ومع أنّ السادات لم يوافق مطلقا على إعادة تكوين جماعة الإخوان المسلمين ، إلا أنه منحهم رغم هذا عام ١٩٧٦ تصريحا بإصدار مجلة شهرية ، ومن ثم ظهرت مجلة « الدعوة » ، بانتظام حتى سبتمبر

١٩٨١ ، حينما فرض الرئيس حظرا على كل المجلات والصحف غير الحكومية وذلك قبل شهر واحد من اغتياله .

وقد أصبحت هذه المجلة لسان حال الجناح الإصلاحى فى حركة الإسلاميين ، وعبرت عن مواقفه من القضايا الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والدينية أمام الرأى العام ، وكانت كذلك بوقا لنشاطات الحركة المختلفة فى أفضل مجالاتها . و بالتالى فإن قراءتها ستسمح لنا بأن نتتبع رؤ ية الإسلاميين للأحداث من شهر لآخر ، لكى ندرك الأحداث العالمية كما صورتها هيئة التحر ير لقراءها فى مختلف أعمدتها .

والدعوة لم تكن المجلة الإسلامية الوحيدة التى كانت تصدر خلال العام الاخير لنظام السادات : فقد نافستها دور يتان أخرتان فى الوصول إلى القراء ، لكن دون أن تشكلا أى خطورة حقيقية عليها . كانت الدور ية الأولى هى « الاعتصام » ، وأخذت اسمها من الآية القرآنية « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . وقد ظهرت منذ عام ١٩٣٦ ، حتى سبتمبر ١٩٧٧ وكانت لسان حال الجمعية الشرعية الإسلامية التى أسسها الشيخ محمود خطاب السبكى لبناء المساجد فى انحاء مصر . واهتم رئيس تحر يرها ، أحمد عاشور ، بأن يفتح أبواب جر يدته لشباب الكتاب المنتمين لدوائر الإسلاميين غير السر ية . حيث أدخل تحسينات كثيرة على تصميمها ، محولا إياها إلى مجلة . ومع أنها كانت فى بعض الأحيان أكثر جذر ية أو ذات لهجة أعنف من « الدعوة » ، إلا أنها لم تصل إلى مستوى مناقشتها بأى درجة سواء من حيث مدى انتشارها أو من حيث انتظام صدورها . وآخر هذا الثالوث ، كان « المختار الإسلامى » ، وهى عبارة عن ترجمة إسلامية لطبعة باللغة العر بية لمجلة Reader's Digest ، وقد تتطابقت معها من حيث التصميم وترتيب المواضيع . واستهدفت مقالاتها الوثائقية الطو يلة والعميقة قراء ذوى ثقافة عالية أكثر من منافستيها . وقد اهتمت بدرجة أقل مباشرة بالقضايا المحلية ، ومالت بدلا من ذلك إلى التركيز على التيمات الإسلامية الشائعة . وقد ظهرت بشكل شهرى لمدة سنتين ، مى يوليو ١٩٧٩ وحتى سبتمبر ١٩٨١ ، عندما صودرت .

لم تكن « الدعوة » ، إذن ، الدورية الإسلامية الوحيدة ، إلا أنها ظهرت بانتظام تام لما يقارب الخمس سنوات * ، بمحتوى ثابت لا يتغير ، وحيث تكون عمودها الفقرى من عدد من القسمات الدائمة . وعلاوة على ذلك ، فإنها قد عبرت عن آراء الاتجاه الأكثر « إصلاحية » ، والأقل « ثورية » ، فى حركة الإسلاميين ، والذى كان قادته إخوان مسلمين ناضجين و بشكل عام أكبر سنا من أنصار شكرى مصطفى . وعلى الرغم من أن حذر الدعوة قد مكنها من الاستمرار لمدة خمس سنوات ، إلا أنه قد كفل أيضاً لجماعات الإسلاميين تدخلاً نشيطاً فى المجالات التى لم تتجاسر « الدعوة » أبدا بالخوض فى مناقشتها ، و بدرجة كبيرة فى مواجهة « الدعوة » نفسها .

وكانت الدعوة ، قبل أن يستولى الضباط الأحرار على السلطة عام ١٩٥٢ ، مملوكة لصالح عشماوى . و بعد عام ١٩٥٣ ، عندما أدى اختلافه مع المرشد العام حسن الهضيبى إلى انشقاقه عن جماعة الإخوان المسلمين ، حول عشماوى دوريته إلى مجلة إسلامية مستقلة . وقد نظر عبدالناصر بعين الارتياح إلى ظهور الانشقاق الداخلى فى الإخوان ، هذا الانشقاق الذى أضعف قيادة الجماعة . ومن ثم تم استثناء الدعوة وصاحبها من محنة القمع التى تعرض لها الإخوان بداية من نوفمبر ١٩٥٤ . وفى واقع الأمر فإن الدعوة استمرت فى الظهور بشكل متقطع خلال عهد عبدالناصر . وكانت عبارة عن عدد قليل من الصحفات ، وذلك لكى تحافظ على وضعها القانونى بالنسبة لقوانين النشر .

وفور أن عزَّز السادات من سيطرته على مقاليد السلطة عام ١٩٧١ ، أفرج عن بعض المعتقلين الإسلاميين المحتجزين . و بينما عاد شكرى مصطفى إلى أسيوط ليشكل جماعة المسلمين السرية ، ذهب عمر التلمسانى ، المحامى ، ورئيس تحرير مجلة الدعوة بعد ذلك وأحد المقربين جدا من المرشد العام حسن الهضيبى ، إلى قصر عابدين ، لكى يسجل فى سجل التشريفات شكره الشخصى وشكر أصدقاءه للرئيس للإفراج عنهم .

* عدد واحد من أعداد الدعوة لم يظهر ، وهو عدد مايو ١٩٧٩ ، نتيجة لمصادرة الحكومة له ، ثم أفرج عنه فى الشهر التالى .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن آخر الإخوان المسلمين المسجونين ، لم يطلق سراحه حتى ٢٢ مارس ١٩٧٥ . وفى ٨ يوليو من هذا العام صدر عفو عام شمل هؤلاء الذين حكم عليهم بالسجن بسبب أفكارهم السياسية قبل ١٥ مايو ١٩٧١ ، وهو يوم « ثورة التصحيح » الذى أبعد فيه السادات منافسيه فى المؤسسة السياسية . إلا أن المتهمين فى قضية الفنية العسكرية قد حلوا على الفور محل الإخوان المسلمين المفرج عنهم وراء القضبان ، حيث كفل هذا وجودا دائما للمجاهدين الإسلاميين بين نزلاء السجون المصرية . وقد استمر السادات فى الضغط على الإخوان المسلمين من خلال سياسة الإفراج التدريجى عن السجناء الإسلاميين . وعلى الأرجح أنه كان يأمل بهذا أن يقنع الإخوان بتأييد سياسته ، لكن الإخوان يزعمون أنهم تجنبوا هذا الفخ واستمروا فى رفضهم التعهد بالولاء للسادات . وكما كتب عبدالرحمن خليفة ، « رفض حسن الهضيبى أن يسمح للسادات بأن يستخدم الإخوان أو يستخدمه هو شخصيا فى مناوراته » . « وفى الواقع ، فإن الرئيس كان يريد منهم تأييد نظامه ، ليسمح لهم (بالمقابل) بأن يعمل كل عضو فى الإخوان المسلمين بمفرده على نشر الإسلام . ولكنه لم يكن ليسمح بإحياء جماعة الإخوان المسلمين ، خوفا من أن هذا قد يؤلب المعارضة على الحكام أو يشكل ضغطا على النظام لكى يحكم باسم الإسلام(٢١) .

وعقب وفاة الهضيبى عام ١٩٧٣ ، ورغم أنه لم يتم إشهار خليفة رسمى له كمرشد عام ، إلا أن التلمسانى أصبح الشخصية العامة الرئيسية فى صفوف جماعة الإخوان المسلمين فى مصر . وفى عام ١٩٧٦ ، التقى صالح عشماوى ، الذى كان قد طرد من الجماعة عام ١٩٥٣ ، بالتلمسانى ووضع « الدعوة » تحت تصرف الإخوان . ومن ثم فقد تم عمل تصميم جديد للمجلة ، وعهد بتمويلها إلى الشركة الإسلامية للنشر والتوزيع ، التى احتل التلمسانى منصب رئيس مجلس إدارتها . ولم تبذل الحكومة أى جهد لعرقلة هذه الصفقة ، وصدرت « الدعوة » لأول مرة فى شكلها الجديد فى يوليو ١٩٧٦ . وفى مقابلة تمت بعد ذلك بعدة سنوات ، أجاب التلمسانى على الذين اتهموا الإخوان بأنهم قد عقدوا صفقة مع النظام بما يلى : « الدعوة صدرت فى الأربعينات وليس للرئيس السادات فضل فى إعادة إصدار مجلة الدعوة لأن الأستاذ صالح عشماوى كان حريصا على إصدار المجلة بصفة

مستمرة ولكنها كانت تصدر متواضعة . فكان يصدرها فى صفحتين أو ثلاث ، محافظة على التصريح والرخصة » .

ولم يقنع هذا الدفاع الذى أبداه المحامى الكهل ، رغم ذلك ، مثقفى اليسار المصرى . حيث كتب أحدهم فى سبتمبر ١٩٧٦ ، وهو المؤرخ عبد العظيم رمضان ، فى مجلة روز اليوسف الأسبوعية ، يتهم « الاتجاه الرجعى داخل الإخوان » بأنه كان مسئولا عن هذه المجلة التى تفسر الإسلام « هذا الدين التقدمى » بشكل مغلوط . واستطرد عبد العظيم رمضان أن الإخوان قد واجهوا اختيارا حاسما : « إما الوقوف فى صف الجماهير العريضة ، مع الشيوعيين والناصريين ، أو أن يتحالفوا مع الأعداء ، الصهاينة ، والولايات المتحدة » .

وبغض النظر عن الاتهامات المختلفة وعن ردهم عليها ، فإن الحقيقة تظل أن الجزء الأكبر من المجلة كان من نصيب الإخوان الأوائل الذين أبعدهم المرشد العام عام ١٩٥٣ بسبب دعوتهم للتعاون مع النظام : لم يكن صالح عشماوى وحده ، بل كان هناك أيضا محمد الغزالى ، والذى كان يتبوأ منصباً هاماً فى الهيئة التنظيمية بوزارة الأوقاف المصرية فى أوائل السبعينات ، فى نفس الوقت الذى كان يعمل فيه فى المملكة العربية السعودية .

كان هؤلاء إذن ، إخوان مسلمين من نوع جديد . فقد عملوا باسم تراث الحسنين (البنا والهضيبى) ، إلا أنهم أثبتوا عجزهم عن إعادة بناء تنظيم يستعيضوا به عن التدمير الذى ألحقه عبد الناصر بالإخوان عام ١٩٥٤ ، كما أن دورهم فى الساحة السياسية الاجتماعية المصرية فى السبعينات ظل دورا هامشيا . وبالتالى فإننا يمكننا الزعم بأن تسمية الإخوان المسلمين يجب أن تظل قاصرة على جماعة الإخوان المسلمين ، أما هذا الاتجاه الذى كان يقف خلف مجلة « الدعوة » فيجب تسميته بالإخوان المسلمين الجدد . وهذه التسمية المثالية تشير إلى أنه على الرغم من أن الاتجاه الأخير كان فى واقع الأمر من صلب الأول ، إلا أن جانبا هاما من تراثه قد اختفى رغم ذلك .

التمويل :

متباهية فى ثوبها الجديد ، أوضحت « الدعوة » ، التى أسمت نفسها الآن « صوت الحق ، والقوة ، والحرية » ، فى عددها الأول (يوليو ١٩٧٦) أنها ستدعو إلى الإسلام ، وتنادى بالقرآن ، وتطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وهذا يعنى إلغاء مجموعة القوانين المدنية المصرية (التى استلهمت من القانون الفرنسى) واستبدالها بمجموعة تشريعات مستمدة من القرآن والسنة .

وقد احتلت المجلة مكانة مرموقة ، وارتفع توزيعها بسرعة إلى ٧٨٫٠٠٠ نسخة ، طبقا للبيان الذى قدمه مراجع حساباتهم ، وفى يناير ١٩٧٧ اصدرت عددا سعى لاجتذاب المعلنين . وفى واقع الأمر فإن المجلة نشرت الإعلانات منذ عددها الأول — ليس فقط تلك الإعلانات المتواضعة التى قدمتها المكتبات الإسلاية المختلفة ، لكن أيضا إعلانات احتلت عدة أعمدة قدمتها شركات المواد الغذائية ، ومستوردو وموزعو السيارات الأجنبية ، ومستوردو الملابس الجاهزة . وخلال عامها الأخير ، ثبتت « الدعوة » مساحة إعلانية « استهدفت » طبقة خاصة من أبناء الشعب وكان تأثيرها فعالا إلى الحد الذى دفع بنك مصر المملوك للدولة لأن ينشر إعلانا شغل صفحة كاملة فى ظهر غلاف عدد يوليو ١٩٨١ للإعلان عن افتتاح مشروع « فرع المعاملات الاسلامية » » ، وتحت شعار « استثمر أموالك طبقا للشريعة الإسلامية . وقد أوضح نص الإعلان أن المبلغ فى فرع المعاملات الإسلامية يفصل تماماً عن كل الودائع الأخرى وأن الذى يشرف على شرعية المعاملات المالية أحد علماء الأزهر وبالتالى فإن العميل الذى يختار أن يستثمر أمواله فى هذا الفرع لايمكن أن توجه له تهمة الربا ، التى مازال العديد من المسلمين يستعملونها فى وصف القروض ذات الفائدة . وبنك مصر كان أكثر شركات القطاع العام تباهيا بالإعلان فى الدعوة ، ومع هذا فإنه لم يكن الوحيد فى هذا المضمار . وفى بداية الأمر ، ومن ناحية ثانية ، فإن معظم المعلنين قد جاءوا من القطاع الخاص ، ومثلوا قطاعا عرضيا نموذجيا للنشاطات التى خلقتها سياسة الانفتاح ، التى اختارها السادات ونفذها وزيره عبدالعزيز حجازى بداية من عام ١٩٧٥ . فمن حوالى مائة وثمانين صفحة من الإعلانات الملونة فى مجلة الدعوة ، اشترى (٤٩) صفحة مقاولون وشركات عقارية ، و(٥٢) اشترتها شركات

لإنتاج الكيماويات ومواد البلاستيك، و(٢٠) صفحة لمستوردي السيارات، و(١٢) بنوك إسلامية وشركات استثمار، و(٤٥) صفحة اشترتها شركات منتجات غذائية. وقد اشترى مايقرب من خمس المساحة الإعلانية شركات يمكن تصنيفها كشركات قطاع عام، والتي يديرها موظفو الدولة. ونصف الأربعة أخماس الباقية قدمها ثلاثة معلنين فقط: الشريف للبلاستيك، وشركة مسرّة للمقاولات، ومودرن موتورز، وهم مستوردون للسيارات اليابانية وهذه الشركات الثلاث كان يمتلكها إخوان مسلمين كونوا ثرواتهم فى المملكة العربية السعودية خلال الأعوام الثلاثين السابقة واستثمروها بشكل مكثف فى مصر منذ عام ١٩٧٥، خاصة فى قطاعات الاستيراد والبضائع الاستهلاكية بشكل عام، والتى مكنتهم من تكديس أرباح لايستهان بها بسرعة كبيرة دون أن يتقيدوا بتوظيف جزء كبير من رأسمالهم فى المعدات الثقيلة. وهذا التداخل بين الأخوان المسلمين الجدد ودوائر أعمال معينة لم يقرها التلمسانى نفسه وذلك فى حديث صحفى على «النمط الأمريكى» أجراه مع صحفيى مجلة «المصور» الأسبوعية المصرية فى يناير ١٩٨٢:

«س: لانعرف إن كنت تدرك أن معظم الانفتاح الموجود فى السوق المصرية اليوم قائم على أكتاف بعض قدامى الإخوان المسلمين الذين عاشوا فى المهجر وعادوا إلى مصر بثرواتهم؟

ج: أنا لاأشك فى أن بعض أغنياء الإخوان يساهمون فى مسائل الانفتاح الاستهلاكى وأنا لا أقر هذا، فالانفتاح يجب أن يكون إنتاجيا أكثر منه استهلاكيا.

وبمعنى آخر، فإنه بينما كان شكرى مصطفى يقوم بتمويل جماعة المسلمين من خلال إرسال أعضاء جماعية للعمل فى بلدان الخليج، كان الإخوان المسلمين الجدد يشقون طريقهم إلى البنية الاقتصادية لمصر السادات فى الوقت الذى كانت فيه كل قطاعات الاقتصاد المصرى قد انقلبت إلى رأسمالية غير منظمة. فكان إذن بإمكانهم الاعتماد على دعم مادى لايستهان به. حتى أن المقاول عثمان أحمد عثمان، روكفلر المصرى، لم يخف تعاطفه مع الإخوان، مع أن اسمه لم يظهر

سوى مرة واحدة على صفحات إعلانات مجلة الدعوة ، ومما لاشك فيه أنه كان سخيا مع هؤلاء الذين نشط فى صفوفهم خلال شبابه فى الاسماعيلية .

وكان بعض مجاهدى حركة الإسلاميين المرتبطين بمجلة الدعوة قادرين أيضا على أن يحصدوا ثمار قصورات معنية شابت النظام القضائى المصرى مستغلين الخوف الذى ولدته نزعة العنف لدى الجماعات الإسلامية فى الجامعة (أنظر الفصل الخامس) . فقد أسس هؤلاء المجاهدون شركة تجارية فى الاسكندرية أسموها القادسية ، على اسم المعركة المظفرة التى خاضتها الجيوش الإسلامية الأولى ضد الفرس . وبعيدا عن إعادة بيع السلع المستوردة ، تخصصوا فى أحد الأشكال الشاقة الوفيرة الربح من التعامل فى العقارات ، فبعد أن ألغى السادات الحراسات التى كان سلفه قد فرضها على ملكية « الرأسماليين » ، استعاد الملاك الأصليون ممتلكاتهم قانونيا . إلا أنه خلال فترة الحراسة ، قامت شركات التأمين التى كانت مسئولة عن إدارة هذه الممتلكات الموضوعة تحت الحراسة ، رغم ذلك ، بتأجيرها أوحتى بيعها إلى سكان جدد (أو مشترين) . وقد خلّف هذا الوضع مأزقا قانونيا رهيبا . ورغم أن القضاء كان قد حكم لصالح الملاك الأصليين الذين سعوا لاستعادة ملكياتهم أولطرد المستأجرين ، إلا أنه لم يكن هناك قوة تنفيذية قادرة على وضع أحكام القضاء موضع التنفيذ . وبالتالى فإن الملاك الأصليين أصبحوا عاجزين طبيعيا عن استعادة أملاكهم . وهنا تقوم الشركة بشراء تلك الأراضى أوالمبانى التى نحن بصددها بمبلغ يساوى تقريبا ثلث سعر السوق . وما أن يتم دفع المبلغ المتفق عليه وتصبح شركة القادسية هى المالك القانونى للعقار ، يقوم المجاهدون الإسلاميون بزيارة شاغل المكان غير المرغوب فيه ويظهرون له ملكيتهم الجديدة ببناء جامع صغير . وكان هذا كافيا فى الغالب لإقناع الحائزين الذين يصيبهم الهلع بأن يغادروا المكان دون أى ضجيج ، لأنهم يصبحون أكثر رغبا من عصا الجماعات الإسلامية الغليظة وأكثر بكثير من خوفهم من التدخل البوليسى المحتمل ، إذ أن بإمكانهم التفاهم مع أفراده ! ولن يجرؤ أحد بعد ذلك أن يشغل هذا المكان ، وبالتالى يصبح المكان شاغرا لكى يشغله أى عدد من مشاريع التنمية ، تلك المشاريع التى ستظهر إعلاناتها فى مجلة الدعوة .

تعطينا هذه المعلومات المتناثرة عن كيفية تمويل المجلة ، مع ذلك ، رؤية انطباعية عن هذا التمويل فقط ، تلك الرؤية التى لا تسمح باستنتاجات محددة ، ومع هذا ، فإن الوسائل المختلفة التى استخدمتها جماعة شكرى مصطفى من ناحية وأصدقاء التلمسانى من ناحية أخرى جديرة بالملاحظة ، وتمثل طريقتين لإدراك طبيعة المشاكل الاقتصادية للمجتمع المصرى . وكانت الدعاية التى قام بها الإخوان المسلمون الجدد إصلاحية أكثر منها ثورية أوراديكالية ، وفى حالات عديدة كانت مرسومة لإعادة صياغة الهياكل القائمة فى شكل إسلامى دون أى فوران عنيف . ويتضح هذا تماما من قراءة كل أعداد الدعوة خلال فترة وجودها والتى استمرت أربعة وستين أسبوعا .

فرسان الرؤيا الأربعة : The Four Horsemen of hte Apocalypse

لسنا بحاجة هنا للتأكيد على أن « الدعوة » لم تكن من ذلك النوع من المجلات التى تنشر الأحداث دون تعليق . فتعليقات المجلة ، بتقسيمها للأحداث إلى نوعين ، الخير والشر ، وأحكامها المليئة بالدلالات وتقديراتها للموقف ، تمثل الجزء الأعظم من مساحة المجلة حيث تقدم لقراءها صورة ضخمة تمثل انتصار الإسلام كما يفهمه الإخوان المسلمون الجدد وتحدد أعداء الإسلام الذين فاقوا الحصر ، واضحين أم مستترين ، هؤلاء الأعداء الذين يتتبعهم صحفيو المجلة ويقومون بفضحهم دون هوادة ، يدفعهم لهذا حماسهم لكشف المؤامرات التى تحاك ضد الإسلام والتى لا تعد ولا تحصى . وهذا الانقسام الذى شمل الوجود كله بين الخير والشر ، بين الله والشيطان ، سنسترشد به فى قراءتنا للمجلة ، وهذا ماسيتيح لنا أن نعين بعض عناصر عملية تصنيف هيئة التحرير .

وقد دفعت رسالة الإسلام العالمية محررى الدعوة لأن يقوموا بعملية تذكير دائمة لقراءها بقوة العالم الإسلامى العددية ، وأن يقوموا بنشر مقالات منتظمة حول هذا الموضوع . حيث خصص عمود شهرى عنوانه « وطننا الإسلامى » . ليقدم أخبار تلك المعركة المتعددة الأوجه التى تدور رحاها بين الإسلام وأعداءه الكثيرين .

ولكن رغم كثرتهم ، يمكننا أن نختزل أعداء الإسلام إلى أربعة أنواع رئيسية ، رغم اتحاد بعضهم أحيانا أوتكوين هجين من البعض أحيانا أخرى . وفرسان الرؤيا الأربعة هؤلاء هم « اليهودية » ، و« الصليبية » ، و« الشيوعية » ،

و« العلمانية » . ونلاحظ هنا أن « الإمبريالية » ، هذا المصطلح الشامل الذى حدد مبدأ الشر المطلق خلال عهد عبدالناصر ، واستمر استخدامه بهذا المعنى من خلال اليسار المصرى ، لم تظهرها « الدعوة » كنوع مستقل ، بل نسبتها فقط إلى « الصليبية » . والآن فلنحاول أن نشرح محتوى هذه المصطلحات الأربعة ، معتمدين بتصرف على عدة أعداد من أعداد المجلة .

واليهودية ، كانت بالنسبة لمحررى الدعوة ، أكثرهم كرها للإسلام . ويهود العالم استخدموا بشكل عادى للإشارة إلى المقيمين فى إسرائيل والمقيمين خارجها على حد سواء . وقد نظروا إلى « المواطنية الإسرائيلية » ، فى الحقيقة ، على أنها مجرد انتماء إلى اليهودية ، وعرفوها طبقا لعلم الوجود على أساس المعايير العرقية ، والتاريخية ، والدينية . وفى ملحق للفتيان عنوانه « أشبال الدعوة » ، وهو قسم لتربية النشىء أدخل فى المجلة ، كان هناك عمود عنوانه « تعرف على أعداء دينك » . ونقدم هنا نص مقالة عنوانها « اليهود » ظهرت فى أكتوبر ١٩٨٠ :

أخى الشبل المسلم :

هل فكرت يوما لماذا لعن الله اليهود فى كتابه الكريم (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيس بن مريم) بعد أن كان الله قد فضلهم على العالمين (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتىَ التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) .. ولقد امتحن الله بنى إسرائيل بهذا الفضل ليظهر : أيشكرون أم يكفرون (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) فماذا كانت النتيجة ؟ افتروا على الله الكذب (لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) وأشركوا بالله وكفروا به (وقالت اليهود عزيرابن الله) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل إن هذا الفضل قد تحول إلى جحود بالله عز وجل وإنكار لقدرته ـــ سبحانه ـــ (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بماقالوا) وقد يكذب إنسان أويخطىء ولكن أن يبنى قوم مجتمعهم على قول الكذب وسماعه فذلك ما اختص به بنوإسرائيل وحدهم !! (ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرِّفون الكلم من بعد مواضعه) و(سماعون للكذب أكالون

للسحت) هؤلاء هم اليهود « أخى الشبل المسلم » أعداؤك أعداء الله وهذه هى حقيقتهم كما بينها كتاب الله ــ الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فهل اختلف اليهود ــ أعداء المسلمين اليوم ــ عن اليهود بالأمس ؟ إنها الطبيعة الواحدة التى جبلوا عليها ، والعقيدة الفاسدة التى تعودوا حملها ، فلا هم عادوا إلى المولى تبارك وتعالى وأقروا بوحدانيته وتركوا شركهم ، ولا هم تركوا مؤامراتهم وحبك مخططاتهم ضد العدو الأول لهم .. « وهم المسلمون » .

إنهم يقولون فى أحد كتبهم « نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسدوه ومحركوا الفتن فيه وجلادوه » .

إنهم لايرضون عنك ــ كشبل مسلم ــ ارتضيت الله ربا والإسلام دينا ومحمدا صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، وبإيمانك بالله وتمسكك بدينك « أيها الشبل المسلم » تهدم كيانهم الذى يريدون بنيانه لتسخير البشرية كلها لخدمة أغراضهم الشيطانية .

(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون)

ذلك كان تعريف « الدعوة » لليهود ، الذى أعدته لتثقيف الشبيبة المسلمة . فهذا الجنس فاسد من جذره ، تشبع بالنفاق ، وسيضيع المسلمون كل شىء لديهم بسعيهم للتعامل معهم : فهذا الجنس يجب استئصاله . وهذه كانت مبادىء المرشد العام عمر التلمسانى وأصدقاؤه فى فهم دولة إسرائيل ، وبالتالى لقضية اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية . وفى حقيقة الأمر ، فإن « الدعوة » لم تكن تنظر إلى فلسطين على أنها « أرض عربية » كما كان ينظر إليها « التقدميون » ، بل كجزء من الأمة الإسلامية اغتصبه اليهود .

وقد أظهرت الدعوة اهتماما خاصا بمسألة قبة مسجد الصخرة ، فى الجزء القديم من مدينة القدس . وظهرت قبة الصخرة على غلاف عدد مايو ١٩٨١ تحيطها سلسلة مقفلة بقفل عليه نجمة داود . ويد تحمل بلطة وتهم بتحطيم القفل . والرسالة هنا واضحة . فالدولة المصرية يمكنها أن توقع اتفاقيتها مع الدولة العبرية ، إلا أن القضية الرئيسية للمسلمين تظل كما هى : أحد أماكنهم المقدسة

يـرزح تحـت سـيـطـرة أعـداء الإسـلام ، والجـهـاد لتحرير القدس الذى وضعوه فى جدول أعماهُم أصبح الآن ضرورة ملحة أكثر من أى وقت سابق

وبـدايـة مـن أكـتـوبـر ١٩٧٦ ظـهر عمود عنوانه « إسرائيل اليوم وغداً عرض بـانـتـظـام كل ملامح « العار الصهيونى » . حيث أعاد إلى الأذهان بشكل خاص حقـيـقـة أن الـطـبـيعة الجوهرية لليهودى ، تجعل من السعى لتأسيس علاقات مع القـوى الـتـقـدمـيـة الإسـرائـيـلية ، كما اقترح ذلك ، ياسر عرفات ، رئيس منظمة الـتـحرير الفلسطينية ، عملية لاطائل منها . وفى الحقيقة ، « فإن كل « يهودى » ، مـثـلـه مثل مناحم بيجين ، يريق دم العرب ويغتصب أرضهم وبيوتهم ... فالميل إلى الـغـدر والـعـدوان شـىء مـغـروس فى روح كل يهودى . ولا يختلف فى هذا بن جوريون عن بيجين » .

وكما هو واضح فإن الدعوة لم تتقبل اتفاقية السلام المصرية الاسرائيلية بصدر رحـب . حيث نشر التلمسانى عام ١٩٧٨ ، خلال المفاوضات ، افتتاحية أكد فيها على أن إسرائيل كانت جزءا من دار الحرب ، وأن النظام إذا كان يريد أن يكون جـديـرا بـاسمه ، كنظام مسلم ، فعليه أن يدعو إلى الجهاد ، الحرب المقدسة : « إذا اغـتـصـب جـزء من أرض المسلمين . واستطاع المسلمون أن يسترجعوه فلم يفعلوا ، فهم آثمون جميعا . والتاريخ سيحكم على الجيل الحاضر بقسوة ، حكاما ومحكومين على السواء . لأنهم آثروا الرفاه المادى على الشرف والدين » .

إذن فـقـد انهـارت الـعـلاقـة بين النظام والإخوان المسلمين الجدد عقب زيارة الـسـادات للقدس . وطوال عام ١٩٧٨ هاجمت المجلة فكرة المفاوضات ذاتها ، وهذا معناه ضمنيا أن النظام كان يحكم بما يتنافى بشكل فاضح مع الإسلام . وقد وضع هذا الدعوة فى موقف شديد الحساسية ، حيث شككت فى شرعية النظام الإسلامية أمـام الـرأى العام ، وهذا مالم يحدث من قبل قط . ومع أن الأزهر كان قد صدق ، بـالـطـبـع ، على شـرعـيـة اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية ، بفتوى استشهد فيها بـالمـعـاهـدات الـتـى أبـرمـهـا الـنـبـى مع أهل قريش (صلح الحديبية) ومع قبائل الـغـطـفـان ، بالإضافة إلى الاستشهاد بالآية القرآنية : « وإن جنحوا للسلم فاجنح

لها » ، فقد نشر عبدالعظيم المطعنى فى يوليو ١٩٧٨ نقدا شاملا لتشبيه معاهدات الرسول بالاتفاقية مع إسرائيل . وفى عدد سبتمبر نشرت الدعوة ردا تلقته من مكتب شيخ الأزهر، عبدالرحمن بيصار، سعى فيه إلى دحض مزاعم المطعنى . والحقيقة البادية للعيان هى أن الأزهر رأى أن نشر رده فى مجلة الدعوة سيظهر يقظة مؤسسة الحاكم الدينية إزاء أى إنكار لوضعها هذا خاصة من قبل أصوات الإسلاميين المعارضة .

ومما لاشك فيه أن ثمة ضغوط مختلفة مارستها الحكومة سرا على هيئة التحرير حتى تدرك أنه إذا أرادت الاستمرار للمجلة ، فعليها أن تتوقف عن التشكيك فى الطابع الإسلامى للنظام . وقد تغيرت بالتالى ، عام ١٩٧٩ ، نبرة هيئة التحرير : حيث كتب التلمسانى « إن السلام هو الهدف الأسمى للإسلام ، ومن الخير أن نسعى إليه . إلا أن المشكلة أصبحت الشريك ، أى اليهود ، الذين لايمكن الوثوق بهم ، بسبب طبيعتهم الخاصة جدا » .

وقد ترك فهم الدعوة « لليهودى » بصمات واضحة على موقفها من قضية وجود دولة إسرائيل وإمكانية إقامة علاقات معها ، حيث يرجع هذا إلى بعض الصفات السلبية التى تحول فى حد ذاتها دون إمكانية إقامة أى علاقات معها سوى علاقة الحرب من أجل إبادتها . وفى الفترة من نهاية ١٩٧٧ وحتى نهاية ١٩٧٩ ، عندما اجتاحت الشعب المصرى نشوة جارفة ، لم تتلق اعتراضات « الدعوة » سوى آذان صماء . لكن مع ظهور الغيوم الأولى فى سماء العلاقات المصرية الإسرائيلية بسبب المماطلة فى إجراء محادثات الحكم الذاتى للفلسطينيين ، وما اعقب ذلك من إعلان الكنيست للقدس عاصمة موحدة للدولة العبرية ، اكتسبت افتراضات الدعوة بعض المصداقية ، وبشكل خاص لأن الحكومة ظهرت عاجزة عن الرد على مبادرات نظام بيجين المختلفة . وقد لفت نظر العديد من المصريين افتتاحية التلمسانى التى كتبها عام ١٩٨٠ ، بعنوان « اليوم القدس والجولان ... وغدا الأردن ولبنان » ، بما فى ذلك الذين لم يكونوا قراء منتظمين للدعوة . وأدركوا على الرغم من هذا أن إقامة علاقات ثنائية مع اليهود قد أصبحت لعبة خاسرة . ومن هنا فقد كان لقراءة الإخوان المسلمين للأحداث بعض التأثير . حيث اقتنع بعض القراء بطريقتها فى الاستدلال ، تلك القراءة التى فسرت سلوك إسرائيل مستر شدة

بطبيعة اليهودى ، ومن ثم فقد كسبت الدعوة بذلك مساحة واسعة من القراء الجدد من خلال عملية استقراء معكوسة : فكل الذين شعروا بأن إسرائيل تخدع مصر دون أن يجدوا دليلا على ذلك ، قدمت لهم الدعوة طريقا لإرجاع الظواهر ثانية إلى طبيعتها ، وفقا لمنهج متماسك داخليا . وأصبح بيجين أكثر دعاة الدعوة تأثيرا .

و يفضى إدراك الدعوة لليهود ، أو بالأحرى « اليهودى » ، والذى لخصنا خطوطه العامة ، بنا إلى عدة شواهد على مايمكن أن نسميه « السامية المعادية للسامية » . والنص القصير الذى تعرضنا له سابقا والذى كان الهدف منه تثقيف أشبال المسلمين ذو أهمية خاصة فى هذا المجال حيث أنه قدم تفسيرا لآيات قرآنية وتعليقا على « أحد كتب اليهود » — وفى حقيقة الأمر، فإنه لم يتمتع كتاب بمثل هذه السمعة السيئة التى تمتع بها « بروتوكولات حكماء صهيون » ، ومن المعروف جيدا أن هذا الكتاب قد اختلقته المخابرات السعودية فى عهد الملك فيصل من أجل الاستخدام الرسمى فى المملكة العربية السعودية . أما الرسم الذى زيّن ملحق الأشبال فقد أخذ مباشرة من رسم روسى ألمانى يصور اليهودى : وقد يتعجب المرء من مدى تأثير هذا الرسم فى بلد لاتختلف صفات سكانه الجسدية بدرجة كبيرة ، كما يراها رسامو الكاريكاتير الغربيون ، عن تلك التى يتمتع بها اليهودى ، فاليهودى فى هذا الرسم يرتدى قلنسوة ، مثله مثل أى مسلم متدين يرتدى الجلباب .

لكن تأثير معادة السامية الأوروبية على إدراك الدعوة « لليهودى » ترك بصمات واضحة على تفسيرها للآيات القرآنية ، وليّها فى اتجاه نظرى خاص . فالقرآن اشتمل على آيات معادية لليهود بشدة (وللمسيحيين أيضا على نفس المستوى) . واشتمل أيضا على آيات أخرى لم تكن معادية بشكل منهجى لهم ، و بشكل خاص تلك الآيات التى تحدثت عنهم على أنهم « أهل الكتاب » ، تلك المكانة التى أعطتهم الحق فى الاستمرار فى ممارسة شعائر دينهم فى البلدان التى يحكمها المسلمون، فى مقابل دفع الجزية ، وقد سمى هؤلاء الناس « أهل الذمة » . وقد استخدم دعاة الإسلام وجودهم كدليل على تسامح الإسلام . بينما استخدمه أعداءه كدليل على عدم تسامحه ، حيث أن كل جانب كان يقترب من المسألة بطريقة تنطوى على مفارقة تاريخية .

وكان رأى محررو الدعوة ، أن اليهود ، مثلهم مثل المسيحيين ، لهم الحق فى الوجود لأنهم ، كما قال البعض ، قد يصبحون مسلمين ، فهم مؤمنون لم تصلهم رسالة الإسلام بعد . وفى اليوم المبارك الذى ستبلغهم فيه هذه الرسالة ، سيصبحون على الفور مسلمين . (فى غضون عملى فى هذا الكتاب ، التقيت مرارا مع الإسلاميين المصريين ، الذين كانوا عادة يبدأون بمحاولة إقناعى بالتحول إلى الإسلام ونادرا ما كانت لقاءاتنا تمرّ بهدوء) .

أما المحظور على أهل الكتاب فهو الدعوة إلى دينهم ، أو وضع العوائق أمام مسيرة تحولهم التى لامفر منها نحو الإسلام . ومن خلال هذا الاستدلال ، فإنهم إذا كانوا ينظرون ، أى محررو الدعوة ، بازدراء إلى مقاومة مسيحيى الغرب ، فإنهم يعادون أى شيء تفوح منه رائحة إعادة إخضاع المناطق التى يحكمها الإسلام . وظل إخضاع الأسبان للأندلس الإسلامية مصدرا للخزى والعار ، لكن رغم أن جماعات مختلفة حثت المسلمين على الاعتقاد بأنهم سيعيدون يوما مافتح شبه جزيرة أيبيريا ، فإن المجلة لم تعتبر ذلك أحد مواضيع الساعة . فاستيطان اليهود فى فلسطين ، من ناحية ، وإنشاء دولة إسرائيل ، من ناحية أخرى ، هما ثمار المؤامرة الحالية التى مازال الوقت سانحا لإحباطها . والحرب المقدسة يجب أن تستمر حتى تعود قبة المسجد الأقصى والبلد التى تضمها ثانية تحت لواء الإسلام . ولأن إسرائيل دولة يهودية ، فإن اليهود يحتلون موقع الصدارة فى جبهة أعداء الإسلام .

ولم يكن هناك شيء جديد بالفعل فى استخدام التلمسانى وأنصاره لبعض اليهود بشكل عام كقوة دافعة لمعاداة الصهيونية وللنضال ضد إسرائيل . وحتى رسوم الكاريكاتير التى اعتادها المصريون فى الصحف الناصرية وكتيبات الدعاية فى الستينات لم تكن أقل عنفا من تلك التى قدمها الإخوان المسلمون الجدد . والإخوان المسلمون الجدد كان لهم نفس النزعة سواء من حيث الموضوع أومن حيث كيفية تصويره ، إلا أنهم اختصروها إلى جوهرها : فاليهودى يهودى ، وبالتالى فهو مقيت ، ولا يوجد داعى إذن ، حتى ولو على سبيل التسامح اللفظى ، للتمييز بين الصهيونى وغير الصهيونى بين الإسرائيلى وبين اليهودى فى الشتات ، إلخ . والنظام الناصرى أيضا لم يهتم بتلك الفروق الدقيقة حينما سجن اليهود

المصريين فى معتقلى طرة وأبوزعبل جنبا إلى جنب مع الشيوعيين والإخوان المسلمين ، دون أن يرتكبوا أى جريمة سوى ولائهم لعقيدتهم .

كان هذا « الخط المعادى لليهود » أحد المحاور الرئيسية فيما يتعلق بأفكار مجلة الدعوة . وقد رفض الإخوان المسلمون الجدد رفضا مطلقا زيارة السادات للقدس المحتلة واتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية التى أعقبت الزيارة ، حيث سببت كل منهما تشددا واضحا فى موقف الإخوان من النظام .

وقد احتلت « الصليبية » مكانة تلى اليهودية فى سلسلة الشيطان . وإذا كان اليهودى شريرا بطبيعته ، فإن المسيحى شرير فقط بشكل عرضى . ورغم أن كل اليهود أشرار ، فإن هناك مسيحيون طيبون ومسيحيون أشرار . والمسيحيون الأشرار ، مع ذلك ، هم الأكثرية ، وهم الذين يعملون على تضليل المسيحيين الطيبين وذلك من أجل خدمة أهدافهم : أى تدبير المؤامرات لتدمير الإسلام .

ونادرا ماكان يلجأ الصليبيون إلى العمليات الحربية ضد المسلمين فى قلعة الإسلام ، أى فى مصر . إلا أنهم عملوا بدلا من ذلك من خلال المبشرين ، و بعثات التبشير ، التى أسست فروعا لها بطول البلاد وعرضها ، إلخ . و بارتدائهم رداء الخدمة الاجتماعية الجذاب ، سعى الصليبيون على سبيل المثال لزرع الشك والتشويش فى عقول المسلمين . وعملوا كذلك ، بمساعدة المستشرقين ، على نشر الإشاعات التى تشوه النبى محمد . وتأثير الصليبيين على النظام التعليمى بشكل خاص كتأثير المرض الخبيث : فبفحص كتاب التاريخ المقرر على تلاميذ الشهادة الابتدائية عامى ١٩٧٥ و١٩٧٦ ، لاحظت الدعوة أن الطبعة الثانية قد خصصت مساحة كبيرة جدا لأماكن حج المسيحيين فى الشرق الأوسط ولم تخصص مساحة كافة للأماكن الإسلامية المقدسة . وهذا مرتبط ، فى الواقع ، كما قالت المجلة ، بأن الطبعة الثانية كتبها مؤلفان أحدهما مسلم والآخر مسيحى ، بينما شارك فى الطبعة الأولى ثلاثة مؤلفين مسلمين ومسيحى واحد فقط . وعلاوة على ذلك ، فمن المؤسف أن نعلم أطفالنا ومعظمهم مسلمون أن قبر السيد المسيح موجود فى القدس : وهذا مايؤمن به المسيحيون فقط ، وليس المسلمين .

وقد أتاح حلول القرن الخامس عشر للهجرة عام ١٩٨٠ الفرصة للإخوان المسلمين الجدد لتقديم الدروس المستفادة من التاريخ الإسلامى . فى محاولة لاستخلاص دروس للمستقبل . وكانت إحدى الظواهر التى تصدت لها الدعوة هى ظاهرة الاستعمار (الامبريالية) بمختلف أوجهه :

« يجب أن نعلم بداية أن أعداء الإسلام عصابة من الأفاقين يمثلهم ثالوث المستعمرين اليوم : اليهودية ، والشيوعية والرأسمالية . وقد نبهنا القرآن طوال أربعة عشر قرنا على أن ملات الكفر واحدة « ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى » « ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا .. » .

ولأن الصليبية لم ترد بالإسم فى القرآن ، فإنه لمن الجدير بالذكر أن القاعدة القرآنية التى اعتمدت عليها حملتها ضد « ثالوث المستعمرين » كانت آية قرآنية موجهة أساسا ضد المسيحيين . والتأرجح فى تمييز المسيحى الذمى الطيب الذى يصلى فى كنيسته دون أن يحاول استمالة المؤمنين الجدد الخاضعين لأحكام الشريعة عن الصليبى الشرير يصبح ظاهرة لايمكن التخلص منها ، إذ أن التمييز بينهما عملية ذاتية تماما ، تخضع للأهواء التى تترتب على تغيير المواقف .

مثل نشاط المستشرقين أحد عناصر المؤامرة الصليبية ، كما تظهر ذلك « وثيقة ريتشارد » الغامضة التى زعم أنها كانت بمثابة توجيهات للمسيحيين . وقد احتلت مكانة بارزة فى الأحداث الطائفية التى وقعت فى المنيا* عام ١٩٨٠ . وريتشارد هذا هو ريتشارد . ب . ميتشل ، وهو مستشرق أمريكى ألف كتاب هاما عن الإخوان المسلمين ، بعنوان « جماعة الإخوان المسلمين » عام (١٩٦٩) . وإذا نقبنا عن أصل هذه القضية سنجد يد أصدقاء التلمسانى ، حيث اخترعوا عام ١٩٧٩ ، مايمكن أن نسميه « قضية ميتشل » . وقبل هذا التاريخ ، لم يَكُنْ الإخوان المسلمون الجدد أى عداء خاص تجاه المؤرخ الأمريكى ، بل كانوا فخورين لحدما بان عمل على هذا المستوى كرّسه صاحبه من أجل الجماعة التى أسسها حسن البنا . حتى أن الدعوة أولت الكتاب اهتمامها وأثنت عليه

---

* أنظر الفصل الخامس .

لقراءها . وفجأة فى يناير ١٩٧٩ ، و بينما كان ميشل فى القاهرة يقضى عطلته السنوية ، نشرت المجلة « وثيقة » مكتوبة باللغة العربية « أرسلها كاتبها إلى رئيس الجهاز السرى بالمخابرات المركزية الأمريكية » ، وكانت تدعو للتدمير العاجل لحركة الإسلاميين على يد الدولة المصرية . وقد كان دليلهم الذاتى على مصداقية الوثيقة هزيلا للغاية . فما هو مبرر لجوء أستاذ أمريكى ، حتى لو كان عميلا للمخابرات المركزية الأمريكية ، لمراسلة جهاز رسمى أمريكى باللغة العربية . بل . أن الدعوة كانت عاجزة عن الرد على إنكار ميتشل والسفارة الأمريكية بالقاهرة . لكن ادعاء الدعوة وصل لقراءها وحدث ماقد حدث ، و بعد عام ونصف من هذه الواقعة ، فى المنيا ، زُعم أن « وثيقة ر يتشارد كانت السبب الرئيسى وراء الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون من قبل الصليبيين . والشباب الذين قرأوا الدعوة لم يصدقوا على الإطلاق إنكار هذا الادعاء . وأصبح ميتشل عميلا للمخابرات المركزية الأمريكية والمسيحيون أصبحوا طابورها الخامس .

وفى يوليو ١٩٨١ اندلعت أحداث خطيرة فى الزاوية الحمراء ، وهى أحد الأحياء الفقيرة فى مدينة القاهرة و يقطنها خليط من المسيحيين والمسلمين . و بالنسبة للدعوة كانت هذه الأحداث دليلاً واضحاً كل الوضوح على المؤامرة الصليبية ضد الإسلام فى مصر . وقد ظهرت ثلاث مقالات فى يوليو وأغسطس سعت للبحث عن أصل هذه الأحداث وتحديد تسلسل زمنى لها . حيث أكدت على أن « أقباط مصر هم أسعد الأقليات على ظهر الأرض وكل حقوقهم المادية والأدبية ميسرة بل مضاعفة » . وأنهم قد عاشوا فى انسجام تام مع المسلمين ونعموا بمنزلة يحسدهم عليها الآخرون . و « سارت الأمور على أفضل ما يكون إلى أن تعين السيد شنودة بطر يركا لأقباط مصر . فظهرت أمور بعد انتخابه لم تكن قبل ولم يسبق لها مثيل .. ابتدأ نوع التحدى فى القول والعمل ... سمعناه يقول إن مصر قبطية وليس للمسلمين فيها مكان ، .. إلخ » . وقد أدانت « الدعوة » قوى أجنبية ، خاصة الأقباط الذين يعيشون فى أمريكا ، لتحريضهم أسعد أقليات العالم على التعالى والعصيان . وقد طمس الانفعال الذى ساد هذه المرحلة حتى هذا التميز التقليدى بين المسيحيين الطيبين الذين خضعوا للإسلام و بين الصليبيين

الأشرار. حتى أن إحدى المقالات قد ذهبت أبعد من ذلك إلى الحد الذى اقترحت فيه مقاطعة المتاجر التى يملكها الأقباط دون تمييز.

إلا أن الخلط بين الأقباط والصليبيين، على عكس الاندماج التام بين كل اليهود، ليس بنيوياً، ولكنه لحظى. إنه لا يحدث إلا فى مرحلة التوتر القصوى، مثل تلك المرحلة التى سبقت اغتيال السادات بشهور، حيث كانت قبضة السلطة مرتعشة وحركة الإسلاميين فى مجملها ذات مزاج راديكالى، وتصور الإسلاميون أن لحظتهم قد حانت. فدعوى مثل التهديد بمقاطعة المتاجر القبطية تساوى ببساطة هجوماً مباشرا على الوحدة الوطنية المصرية، التى كانت فى ذاتها أحد المرتكزات الأساسية لشرعية النظام. وكان هذا أحد المبررات التى قدمها السادات لما اتخذه من إجراءات قمعية فى مواجهة حركة الإسلاميين فى نهاية صيف ١٩٨١.

وقد أدان الإخوان المسلمون الجدد الشيوعية كما أدانوا اليهودية والصليبية. ونقلا لمحرر الدعوة، «فإنها لم تكن مصادفة أن عبد الناصر كان فى موسكو عاصمة الإلحاد عندما ألقى خطابه الذى كان فاتحة لاشتشهاد سيد قطب ورفاقه عام ١٩٦٥. وبالتالى فإن الشيوعية هى العدو الأبدى للإسلام. وساقت المجلة عدة أمثلة للتدليل على رأيها. فمن سياسة محو الطابع الاسلامى للجمهوريات المسلمة فى الاتحاد السوفيتى، إلى بناء المتاحف الملحدة التى أقيمت لهذا الغرض. والشيوعية تحارب الإسلام فى كل أنحاء العالم: فى أرتيريا والصومال شاركت الصليبيين فى حلف لاستئصال الاسلام، وفى سوريا دعمت الدكتاتور حافظ الأسد، الذى ذبح الإخوان المسلمين، وأخيرا، فى أفغانستان حيث ذبحت المسلمين دون تمييز. وفى مصر كانت هى النظام السائد من ١٩٦١ وحتى ١٩٧١. «وقد تم تخريب هذه البلد فى تلك السنوات العشر، وعانى عباد الله من الفقر المدقع، واستشرى الفساد..، فالشيوعية مثل السرطان، لا تستأصل إلا بعد تضحيات عظيمة. سيطر الشيوعيون على ما يسمى «بالاتحاد الاشتراكى العربى». وقد سيطروا على كل مكان فيه: فى هيئته التأسيسية، وفى فروعه المختلفة. وفى ظلهم عاشت الجماهير أسود لياليها، فتجسس العامل على زميله فى العمل، والطالب على زميل الدراسة. وتحولت الصحافة إلى سجن ضخم يخنق العاملين فيه. وقد سيطر الشيوعون على موقعين آخرين، منظمة الشباب

الاشتراكى .. والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الذى كان شعاره « الاشتراكية طريقنا ، والميثاق دستورنا ، والناصرية عقيدتنا * » .. إلا أن عصر الشيوعية قد انتهى بموت عبد الناصر » .

وإذا كان هناك حاجة لدليل إضافى على الطابع الشرير للشيوعية ، فقد قدمته الدعوة لقراءها ، الذين كان عليهم أن يتذكروا أن الماركسية والصهيونية لهما أصل مشترك : « ففكر ماركس كان اجتهادا يهوديا ، وماركس نفسه كان حفيدا لحاخام مشهور » .

فالشيوعية إذن تحيط بها الشكوك من عدة أوجه . تبدأ من ارتباطها باليهودية البغيضة والصليبية البالية ، وطبيعتها الملحدة المتشددة ، وأخيرا تخريبها للبلدان التى تحكمها ، بما فى ذلك البلدان التى تحكمها بشكل مستتر ، مثل حالة مصر فى ظل الناصرية .

وقد أدانت الدعوة الشيوعية فى كل صورها ــ الحقيقية ، والرمزية ، والخيالية ــ فى توافق تام مع الأيديولوچية الرسمية لعصر السادات . وفى مواقف عديدة ، وافقت الحكومة على إقامة الإخوان المسلمين الجدد للمؤتمرات التى خصصت لإدانة الأسد ، الرئيس السورى ، الذى نشب بينه وبين السادات صدام عنيف فى أعقاب توقيع اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية . كما سمحت لهم بإقامة المؤتمرات وجمع التبرعات لتدعيم المجاهدين المسلمين فى أفغانستان . وكانت مواقف الإخوان والنظام ــ فى حربه ضد الشيوعية داخل وخارج مصر ــ متطابقة تماما ، فالمجلة كانت تهاجم الأعداء المشتركين لهما ــ الناصرية ، على سبيل المثال ــ بحجج لم يكن باستطاعة النظام نفسه أن يستخدمها .

أما رابع وآخر قواعد الشر فكانت العلمانية . ورغم أنها تمتعت بنفوذ أقل من أسلافها الثلاثة (والتى كانت تخدمهم ، على أى حال ، كمحدد لاتجاهاتهم) ، إلا أنها لم تكن تقل عنهم من حيث خطورتها على الإسلام ، حيث أنها تقوّض أحد

* صياغة جديدة لشعار الإخوان الشهير : « الإسلام طريقنا ، والقرآن دستورنا » ... الخ .

أركانه الرئيسية ، وهو أن « الإسلام دين ودولة » . أو بمعنى آخر ، فإن الإسلام يراد به الحكم فى أمور الدنيا والآخرة .

وكان داعية العلمانية فى البلدان الإسلامية « الخائن مصطفى كمال أتاتورك » ، وقد حظى مرتين بمكان الصدارة فى عمود « تعرف على أعداء دينك » المخصص لأشبال الدعوة . وفى عام ١٩٨٠ استهل المحرر التعريف الذى قدمه لشخصية أتاتورك بما يلى :

« أخى الشبل المسلم

الإسلام نظام شامل لكل نواحي الحياة ، حياتك وحياة مجتمعك . « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » ، والخلافة هى النظام السياسى الذى أقامه لنا ورسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، واستمر طيلة أربعة عشر قرنا من الزمان ــ قوة وضعفا ــ حتى جاء رجل يدعى (مصطفى كمال أتاتورك) وأسقط الخلافة العثمانية وحول تركيا إلى دولة علمانية لا تدين بالإسلام ... إنه عدوك « أيها الشبل المسلم » وعدو دينك ، ينتمى للعدو الأول للمسلمين ــ وهم اليهود ــ فهو من طائفة منهم تسمى « يهود الدونمة » ولها عقائد خاصة تبطنها ولا تعلنها ، وكانوا يظهرون الإسلام ستارا لدعوتهم وخوفا من قوته وسلطانه فى عهد الخلافة العثمانية ... وخائن كهذا يسخره اليهود لتنفيذ مخططاتهم الشيطانية ، ومن يقف أمام تنفيذ هذه المخططات سوى الخلافة الإسلامية .. وعلى رأسها الخليفة « السلطان عبدالحميد » الذى رفض بيع فلسطين » « أرض المسلمين » لليهود نظير الذهب .. »

« لقد أراد لك « أخى الشبل المسلم » أن تنشأ غريبا عن دينك ، غريبا عن كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غريبا عن كل ما تركه لنا علماء السلف الصالح ، وذلك بما قام به من تحريم استعمال اللغة العربية وإحلال اللغة التركية بحروفها اللاتينية « الأوروبية » محلها .

وهذا النوع من الاستدلال الذى استخدم لتشويه أتاتورك هنا يذكرنا بالأسلوب الذى استخدم قبلا لتشويه ماركس : وكل ما هنالك أنه بينما قالوا إن ماركس كان حفيدا لأحد الحاخامات ، ادعوا هنا أن أتاتورك كان عضوا فى

جماعة يهودية . وتاريخيا ، فإن الفرقة موضوع النقاش عرفت باسم دونم Donme ، وأسسها أتباع اليهودى المخلّص messiah شابيتاى زيفيل shabbetai zevil (١٦٢٦ — ١٦٧٦) و بينما ادعى أعضاؤها إيمانهم بالإسلام ، احتفظوا سرا بولائهم لليهودية . ورغم أنه من المعروف تاريخيا أن بعض كوادر حركة تركيا الفتاة قد جاؤا من هذه الفرقة (و بشكل خاص جافيد باى Diavid Bey ، وزيرمالية أتاتورك) ، إلا أنه لا يوجد هناك دليل على عضوية كمال أتاتورك نفسه فى هذه الفرقة . ومصدر هذه الإشاعة أن أتاتورك كان أصلا من مدينة سالونيكا ، المدينة التى تركزت فيها حركة دونم ، بالإضافة إلى سميرنا * . وقد ضخم هذه الإشاعة أعداء أتاتورك من رجال الذين أجبروا على النفى وتجمعوا فى مصر . وهذا يوضح الكيفية التى انتقلت بها إلى الصفحات المخصصة للفتية فى مجلة الدعوة .

ولم يسمع أحدا من المصريين الذين قرأوا هذه الصفحات من الدعوة وقت بسؤالهم عن الدونم ، إلا وأجابوا كلهم بلا استثناء بنطق اسمها « الدونمة » ، وهى كلمة بلا معنى أوجدتها الترجمة . والذى بين يدينا الآن لم يكن سوى ملتقى طرق التقت فيه الثقافة التى نقلها المنفيون الأتراك للإخوان المسلمين والاتجاه المعادى لليهودية الذى كان على استعداد لاستخدام أى سلاح يجده فى طريقه .

إذن فقد كان الادعاء بأن أتاتورك يهودى من الأهمية بما كان بالنسبة لأصدقاء التلمسانى ، لأنه بهذا يكون غريبا على الإسلام ، و يفسر إقدامه على إدخال العلمانية والأبجدية اللاتينية إلى تركيا ، وهى التى تجعل من الشبل المسلم غريبا عن كتاب الله . اما إذا تم التسليم بإن أتاتورك كان مسلما ، وهى حالته على الأرجح ، فسيكون من الصعب تبرير أعماله : فكيف يستطيع مسلم ، وهو الذى يملك بصيرة ثاقبة نتيجة لإيمانه ، أن يتخلى عن هذا الإيمان و يفضل عليه نتاجات الثقافة الغربية ؟ . وهذه الحالة تستوجب الحكم عليه بالردة ، وهذا الحكم يتطلب حذراً بالغاً فى استخدامه ، لأنه يفتح الباب أمام التكفير ، هذا التكفير الذى أثار

* الإسم القديم لمدينة أزمير التركية (المترجم) .

ريبة الإخوان المسلمين الجدد حيث أن شكرى مصطفى وجماعته قد استخدموا ليطلقوا العنان بالتالى لتطور لولبى فى استخدام هذا السلاح الذى أصبح من الصعب السيطرة عليه .

وقد غدت العلمانية ، منذ اللحظة التى أدخلها فيها أتاتورك للعالم الإسلامى ، إحدى المؤامرات العديدة ضد الإسلام . خاصة أنها قد شجعت على الدعوى للقومية العربية وللوحدة العربية ، « وهى التى كانت على الدوام ، فى كل مرحلة من مراحلها ، حركة علمانية ضد الإسلام قادها مسيحيون سوريون أو لبنانيون ، ومتغربين ، ويهود » . وحزب البعث ، على سبيل المثال ، جزء من هذه المؤامرة . وفى مصر تقوم العلمانية على قاعدة من النظام القانونى المستورد من الغرب ، وعلى كل مسلم أن يفضح العلمانية أينما وجدت ، ولم يكن « من قبيل الصدف » أنها ظهرت على السطح ثانية فى أثناء الأحداث الطائفية فى الزاوية الحمراء .

ففى ٢٢ يوليو ١٩٨١ ، نشرت جريدة الأهرام اليومية شبه الرسمية ، رسما كاريكاتوريا ، بقلم صلاح جاهين ، كان عنوانه « أحداث تسىء إلى الوحدة الوطنية . وصور الكاريكاتير سيدة جليلة ، ترمز إلى « مصر » ، وأمامها ثلاثة أطفال يمثلون « الاتحاد » و« الوئام » ، و« العلمانية » . وهى تقول لبنت قبيحة تمثل « الفتنة الطائفية » ، « دول أولادى وعارفاهم حلوين .. وإنما إنتى بنت مين .. » وقد أثار ذكر العلمانية كأحد أبناء مصر سخط الدعوة . حتى أن صالح عشماوى نفسه زاد الطين بلّة بمطالبته باستقالة الحكومة لأنها سمحت بنشر مثل هذا الكاريكاتير .

وكان تعريف الدعوة وتحديدها بدقة للفئات الأربع المعادية للإسلام والمسلمين مؤشرًا واضحا على الموقف الثقافى الخاص لتلك الطبقات التى انعكست عواطفها على صفحات المجلة . حيث قدم محررو الدعوة للقراء منظومة من المفاهيم التى تم تفصيلها لكى تعمل كدرع إسلامى يقيهم من الأزمات المتشابهة التى يعانون منها . وغدا سنرى كم كان هذا السلاح فعالا فى مواجهة هجمات الحياة العصرية وأى ضغوط تعرض هؤلاء الذين استخدموا هذه المفاهيم .

وبجعلها من اليهودية ، والصليبية ، والشيوعية ، والعلمانية فرسان الرؤية الأربعة ، برهنت الدعوة ، من وجهة نظر قراءها ، على أن أرض الإسلام تواجه الآن موقفا رؤيويا apocalyptic . ورغم أن كل اتجاهات حركة الإسلاميين قد اتفقت على هذا الرصد ، إلا أنها قد اختلفت حول تحديد هوية الفرسان الأربعة . ومن الاشياء ذات الدلالة بالنسبة لهذا الموضوع أن الإخوان المسلمين الجدد قد وقع اختيارهم على أربعة نماذج أصيلة وغريبة بشكل عام عن المجتمع المصرى . فأراحهم هذا من تحليل الأسباب الداخلية للعقبات التى تعرقل مسيرة الإسلام، وعلى الأخص مايعتلق بالعلاقة بين الدولة والمجتمع المدنى . إلا أن معظم الاتجاهات الراديكالية كان لها اعتراضات على هذا المنظور. فهى بينما لم تخف كراهيتها للعدو الخارجي وبخاصة « العدو الرئيسى لهم » أى اليهود ، كان تصورها أن المعركة يجب أن تبدأ من الداخل ضد الجاهلية ، وممثلها الرئيس الحاكم الظالم الذى يحكم بما يتعارض مع شرعية الله .

ولكن بسبب تحديدها العدو الخارجى ، وجدت الدعوة نفسها فى موقف جديد تماما بمجرد أن أخذت الدولة على عاتقها مهمة توقيع اتفاقية مع إسرائيل ــ أو حسب تعبير محررى الدعوة ، عقد معاهدة مع اليهود . وقد عارضوا بثبات توقيع هذه الاتفاقية ، رغم أنهم قد رفضوا معارضة النظام بشكل واضح بنفس القدر ، وظلوا أضعف من الدولة .

ــ الاستفادة من البرلمان :

ظهر الخيار الإصلاحى لمحررى الدعوة سواء فى دفاعهم عن الحق أو فى إظهارهم له ، والحق هنا هو الإسلام كما فهمه الإخوان المسلمون الجدد .

وقد بذلت المجلة قصارى جهدها لتقديم تاريخ الإخوان المسلمين فى أكثر جوانبه إشراقا ، ونشاطاتهم المعاصرة فى أكثر مظاهرها إيجابية . فتم تخصيص عمود ثابت ، عنوانه « الإخوان المسلمون من صحفات الأمس » ، كان الغرض منه إغداق الثناء على الجماعة التى أسسها حسن البنا ، والتى كانت بمثابة الحق المطلق بالنسبة للمجلة .

حيث أكد التلمسانى على أن « الحب هو شعار جماعة الإخوان المسلمين » ، وأنكر أن يكون تكوين الجماعة على اساس دينى قد نشأ عنه أى شقاق بين المسيحى المصرى والجماعات المسلمة . ووفقا لما قال ، فإن دور الإخوان هو أن يوحدوا بين الناس ، بعكس الأحزاب السياسية ، التى تقسم الرأى العام إلى فئات متصارعة . وإذا كان الإخوان قد تعرضوا للهجوم ، فهذا لأنهم « شكلوا العقبة الكبرى أمام دكتاتورية عبدالناصر » . وإذا كانت الصحف الحكومية قد تباهت بتصويرهم على أنهم مجرمين ، فالحقيقة أنهم كانوا الشهداء الذين استشهدوا من أجل أن تظل راية الإسلام خفاقة . ولهذا السبب عانى الإخوان من الاعتقال ، والتعذيب ، والمشانق . وإذا كانت الجماعة قد تم حلها عام ١٩٥٤ ، فذلك يرجع إلى أنها مثلت تهديدا لوجود إسرائيل . ولهذا السبب فرض عبدالناصر عليها الحظر ، بأوامر من السوفييت .

ذلك كان تاريخ الإخوان المسلمين . وإذا أردنا أن يكون اليوم أفضل من أمس ، فإن جماعة الإخوان المسلمين يجب أن تستعيد وجودها القانونى ، حيث أنها وحدها هى التى تستطيع إصلاح هذه الأمة . وكتب صالح عشماوى ، إن الإخوان لم يحاولوا على الإطلاق قلب نظام الحكم ، بل على العكس من ذلك حاولوا دائما إصلاح هذا النظام . وعلى نفس المنوال ، أوضح التلمسانى أن « هؤلاء الذين يدعون إلى الله » لا يخلطون بين الحركة والتظاهر :

* « إن كل منصف يعلم أننا ونظم الحكم فى هذا البلد على طرفى نقيض فى البرامج والمناهج .. إلا يوم أن يطبق شرع الله ، وتقام فى أرضه أحكامه .. ونحن نقول هذا القول فى كل عدد من أعدد الدعوة .. لا نجامل .. ولا نحابى ، ولا نخشى ولا نخاف إلا الله عز وجل .

أما إذا كان المقصود بالحركة حرق وسائل المواصلات ونهب المحلات وتخريب المؤسسات الحكومية فهذا لا نأتيه أبدا ، لأن الله ينهى عن الفساد والإفساد .. ثم

---

* الدعوة : العدد ٢٧ ، نوفمبر ١٩٧٨ ، مقالة للتلمسانى بعنوان « موقف الإخوان المسلمين من الانقلابات .. والمؤامرات والمظاهرات » . المترجم .

لأن ما يخرب ليس مملوكا لرئيس الدولة أو رئيس الحكومة أو غيرهما .. ولكن ملك الشعب بكل أفراده ، ولن نكون يوما الذين يخربون بيوتهم بأيديهم .

أما إذا كان المقصود بالحركة التآمر وتدبير الانقلابات ، فهذا لا يفعله إلا طلاب الحكم لذات الحكم ، أما نحن فلا يعنينا شخص من يحكم ، ولكن فى المقام الأول يهمنا نوع الحكم ودستوره وشكله ونظامه . و بعد ذلك فليحكم من يحكم .

أما إذا كان المقصود بالحركة هو الاصطدام بالحكم عن طريق القوة والعنف فنحن نرى أن ذلك استهلاكا لقوى الشعب ، واستنفاذا لجهوده ، لا يستفيد منه أحد إلا أعداء هذا البلد .

إننا نتحرك فى سبيل دعوة الإسلام وتحركنا فى كلمات هى :

١ ـ إننا نربى الشعب ، وخاصة الشباب ، على الأسس التى عزَّ بها المسلمون وسادوا .

٢ ـ إننا نقول الحق وندعو الناس جميعا إلى الوقوف بجانبه ، ومساندته فى أحلك المواقف .

٣ ـ نحن نجمع الناس فى المناسبات العامة لنقول لهم ما يجب أن يفعلوه وما يجب أن يتجنبوه .

٤ ـ نحن نحذر الناس من العلمانية التى تلبس ثوب الإسلام لتباعد بين الإسلام وشباب الإسلام فى ظل كلمات معسولة ومسمومة ، مطعمة بألفاظ العقل والمنطق والعلم والتقدمية وحرية الفكر .

٥ ـ ثم نحن نعتمد على الله فى تربية الشباب على الكتاب والسنة ... إلخ » .

ورغم عدم ذكره بالإسم ، فإن محل نقد التلمسانى فى الفقرة السابقة هو سيد قطب ، حيث أن مؤلف « معالم فى الطريق » هو الذى وازن بين « الحركة » والدعوة الخالصة ، ورغم أنه بينما تنحصر مهمة الدعوة الخالصة فى مقاومة أيديولوجية الجاهلية ، فإن مهمة الحركة هى أن تجرف فى طريقها العقبات التى تحول دون التأسيس الفعلى للدولة الإسلامية ، وأول هذه العقبات النظام السياسى .

لم يذكر محررو الدعوة الجاهلية على الاطلاق . بل أنهم أصروا أكثر من هذا على أنه لا توجد حاجة ملحة للسعى إلى قلب نظام الحكم . لكن الأجدى الآن ، على العكس من ذلك ، هو أن نقدم له بانتظام العرائض والالتماسات والمقصود بها إدخال التحسينات على النظام نفسه ، من أجل تحويله إلى نظام إسلامى بالتدريج . والمطلب الأكثر إلحاحاً بالنسبة للمجلة هو تطبيق الشريعة الإسلامية ، أى وضع نظام قانونى يستقى من القرآن والسنة يقوم بإعداده علماء الإسلام .

وقد تبنت الدولة نفسها هذا المطلب ، وبشكل خاص عام ١٩٧٧ ، عندما اختير صوفى أبوطالب ، وهو رجل قانون بالغ الذكاء تعلم فى كلية الحقوق فى باريس ، رئيسا لمجلس الشعب ، (وهو البرلمان المصرى ، وغالبية أعضاؤه ، باستثناءات قليلة ، من أنصار الحكومة) . وقد أكد صوفى أبوطالب مرارا على أن مصر ستطبق الشريعة الإسلامية فى أقرب وقت ، ولكنه قال ، إن علينا أولا أن نبذل جهدا ضخما من أجل إعداد هذا القانون الإسلامى لكى يتلاءم مع ظروف المجتمع المصرى المعاصر . وكم كانت طويلة جدا مدة إنجاز هذا المشروع التمهيدى ، فلم يصل إلى النواب إلا عام ١٩٨٣ ، وهنا أصبحت الشريعة الإسلامية جاهزة للتطبيق . لكن المطلب الرئيسى لأصدقاء التلمسانى تم تعطيله ، بمهارة فائقة ، من خلال استغراق رجال القانون المحنكين فى مناقشة النقاط الإجرائية .

وقد عبرت الدعوة عام ١٩٧٦ عن رضاها لبحث أعضاء مجلس الشعب لأحكام الشريعة . ويبدو أن هيئة التحرير تصورت أنه سيسمح للإخوان عما قريب بإعادة تكوين أنفسهم كتنظيم شرعى يمكن أن يمثل فى البرلمان . وإذا كان قد تم تأسيس « منبرا لليسار » * ، وأعضاؤه من الماركسيين « الذين ينكرون وجود الله » ، فمن الصعب تصديق عدم وجود منبر يمثل المسلمين ، وقد تساءل صالح عشماوى ، هل يمكن أن نقتنع بمثل هذا التمثيل .

* هذه المنابر كانت بمثابة الإطار الذى زين النمط الساداتى للديمقراطية وفى حقيقة الأمر، فإن الممارسة بأكملها لم تتعد اختيار عدة عشرات من أعضاء البرلمان الذين لا ينتمون لحزب الرئيس ، لكنهم حينما انتقدوا اتفاقية السلام مع إسرائيل ، سلبت منهم مقاعدهم .

وهذا المطلب بالمساهمة فى الحياة السياسية ، أولا بدخول البرلمان ثم بممارسة ضغط متزايد على نوابه لتطبيق الشريعة بدلا من إضاعة وقت ثمين فى مناورات حول إعداد قوانين الشريعة ، اختلفت استراتيجية الإخوان المسلمين بشكل حاد مع استراتيجيات الاتجاهات الأخرى فى حركة الإسلاميين . ومن خلال الانتصار فى هذه الصدمات مع مجلس الشعب ، وبالعمل كلوبى داخله ، جعل محررو الدعوة من أنفسهم معارضة قانونية داخل النظام السياسى القائم ، الذى يسعون لبذل ضغط كاف عليه للوصول إلى تطور سلمى نحو دولة إسلامية تقوم على الشريعة الإسلامية .

وباختيارهم لمثل هذا النوع من العلاقات مع الدولة ، وبإدماجهم لأنفسهم داخل البنية الفوقية السياسية المصرية ، لم يطمح التلمسانى وأصدقاؤه لأن يمثلوا طموحات تلك الطبقات فى المجتمع المصرى التى كانت ترى أن هذه البنية الفوقية شيء غريب يصعب فهمه . بل إن دعاية الإخوان المسلمين الجدد كانت موجهة بالأساس نحو المصريين الذين كانوا يحتلون مكانة مرموقة فى الحياة الاجتماعية ويريدون أسلمة العلاقات الاجتماعية من خلال منح الشخصيات الدينية أو الجماعات التحبوية الأخرى سلطات أكثر من تلك التى لضباط الجيش أو للتكنوقراط . . وهذا النوع من المطالب كان مقبولاً كلية من مختلف دوائر رجال الأعمال الذين شكل المعلنون فى مجلة الدعوة قطاعا عرضيا فيهم . ودعمته أيضا الملكيات البترولية فى شبه الجزيرة العربية ، والتى كانت تمتلك روابط وثيقة مع أعضاء مؤثرين فى هيئة التحرير مثل محمد الغزالى و يوسف القرضاوى .

لكن باختيارهم الواعى للإعتدال ، فشل الإخوان المسلمون الجدد فى الإمساك بروح جماعة الإخوان المسلمين أيام حسن البنا . فمعارضة التلمسانى كانت مجردة من الوحى الذى عبرت عنه رسالة مدرس المدرسة الابتدائية فى الاسماعيلية « الذى وضع قلوب المسلمين فى يده وسار بهم حيث شاء » . ونظرا لتجنبهم المساكن المتداعية فى ضواحى المدن المصرية الكبيرة ، تحولت جماهير هذه الأحياء الفقيرة ، التى لم يقترب منها التقدم ولا التنمية ، إلى اتجاه آخر ، إلى الاتجاهات الأكثر راديكالية فى حركة الإسلاميين .

الفصل الخامس

طليعة الأمة

- التمرد الطلابي
- جامعة الأعداد الغفيرة
- في ظل النظام .
- تغيير الحياة .
- كيف تغدو مسلمًا صالحًا .
- لتخير الأقباط .
- يونيو ١٩٨١ : مات الشاه .

نشأت الجماعات الإسلامية من مجموعات الطلبة الإسلاميين التى أصبحت القوة المهيمنة على حرم الجامعات المصرية إبان فترة رئاسة السادات . وقد كانت بمثابة التنظيمات الجماهيرية الحقيقية الوحيدة لحركة الإسلاميين . وعلى الرغم من كونهم فى البدء أقلية داخل الحركة الطلابية المصرية (التى هيمنت عليها فى ذلك الوقت التيارات الماركسية واليسار الناصرى) التى انبثقت عقب هزيمة ١٩٦٧ ، إلا أن الطلبة الإسلاميين سرعان ما أنجزوا تقدمهم المفاجىء فى فترة الهدوء النسبى الذى شمل حرم الجامعات عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وعلى مدار أربعة أعوام فحسب دانت لهم بالسيطرة الجامعات المصرية وأجبرت التنظيمات اليسارية على العمل السرى . وبعد أن كان النظام مبادراً بتفضيل الجماعات الإسلامية ، أصبحت تشكل تهديدا له ، وخاصة بعد أن سيطرت على أهم الكليات الجامعية وعلى اتحاد الطلاب . وبدأت فى استغلال معارضة سياسة السلام مع إسرائيل التى قامر عليها السادات ، « رئيس السلام » ، بشرعيته وبحياته السياسية . ومنذ هذه اللحظة وصاعدا تعرضت الجماعات للاستفزازات الإدارية ثم من القمع البوليسى فيما بعد على يد ذات الحكومة التى كانت تعاملهم قبلا بمنتهى الرقة واللين . وبهذا حصلت الجماعات الإسلامية على الاعتراف بها كقوة معارضة . ونتيجة لذلك ، أخذت أعدادها فى التزايد بثبات . ولم يجد النظام

بـدا للقضاء على خطرهم من المواجهة المباشرة ، والتى اتسمت بالسمة الدرامية من خـلال «الـفـتـنـة الـطائفية» فى الزاوية الحمراء فى يوليو ١٩٨١ . وفى سبتمبر من نـفـس الـعـام تم حل الجماعات الإسلامية (رغم أنها لم تكن مسجلة أصلا بشكل قـانـونـى) ، وتم تـدمير بـنـيـتهـا السفلية وألقى القبض على قادتها . و بعد شهر واحد فـقـط ، قتل السادات على يد أحد المجاهدين الإسلاميين ، وهو خالد الإسلامبولى ، والذى كان أخوه ، قائد الجماعات الإسلامية فى جامعة أسيوط ، قد تعرض لمعاملة سيئة أثناء عملية اعتقاله.

ولهـذا شكلت الجماعات الإسلامية جزءاً هاماً من الساحة السياسية المصرية خـلال حـكـم الـسـادات ، و بالرغم من كونها حركة طلابية إلا أن تأثير تحركاتها تخطى أسوار الجامعات وتدخل بشكل مباشر فى الحياة السياسية

وتـشير الجـمـاعـات الإسـلامـيـة دائما و بشكل مستمر إلى الأمة الإسلامية ، أو «جماعة المؤمنين» التى وجدت ، فى رأيهم ، فى «العصر الذهبى للإسلام» خلال عـهـد الخـلـفـاء الأربعة الأوائل ، الخلفاء الراشدين . وكان هدفها بعث الأمة من خـلال عـودة الخـلافـة . والـوسـائـل الـتى اتبعتها لتحقيق هذا الهدف تلخصت فى مـعـايـشـة نموذج مصغر لما ستصبح عليه الحياة فى المستقبل المشرق ، بينما أظهرت فى نفس الوقت قطيعتها مع كفاح المجتمع المصرى المعاصر ومثله العليا .

● التمرد الطلابى :

فى فـبـرايـر ١٩٦٨ أصـدرت المحـاكـم الـعـسـكـرية المصرية أحكامها فى نهاية قضيتين شهيرتين جدا . وكان المتهمون فى هاتين القضيتين هم المسئولون الرئيسيون عـن الهـزيـمـة الساحقة التى لحقت بالقوات المسلحلة فى حرب الأيام الستة فى العام الـسـابق . وقد حكم على المتهمين فى القضية الأولى ، وكان من بينهم القائد العام للـقـوات الجوية ، بأحكام تراوحت ما بين الإحالة إلى الاستيداع والسجن لفترات قـصـيـرة . أما صغار الضباط وصغار الموظفين الذين وقفوا وراء القضبان فى القضية الـثـانية فقد حكم عليهم بأحكام أقسى بكثير وصلت فى بعض الحالات إلى السجن مدى الحياة .

وفى ٢١ فبراير، خرج عمال أربعة مصانع من مصانع حلوان ، وهى منطقة صناعية بنيت على الطراز السوفييتى فى ضواحى جنوب القاهرة ، احتجاجا على تساهل الأوليجاركية العسكرية الحاكمة مع رفاقها ، بينما تحمل « الصغار» مسئولية النكسة . وفى اليوم التالى ، انتشرت المظاهرات فى الشوارع وجرح سبعة عشر عاملا . و يوم ٢٤ فبراير خرج الطلاب إلى الشوارع هاتفين « الموت للخونة » و « تسقط المحاكمات السرية » و « لا اشتراكية بلا حرية » . وفى ٢٥ فبراير، تحولت المظاهرات إلى شغب عام . ولم يستطع النظام إعادة الأمور إلى نصابها إلا بوعد جديد ، بأحكام أكثر قسوة .

وكانت تلك هى المرة الأولى منذ أكثر من عقد تخرج فيها الجماهير المنظمة إلى الشارع ، ولا يشرف عليها أنصار الحكومة ، ولا يكون هدفها التأييد غير المشروط لآخر خطوات الرئيس . وقد كان هذا التعبير المفاجىء والعفوى عن السخط بمثابة جرس إنذار للنظام « وأقنعه بسن سلسلة من الإصلاحات الفورية وعلى المدى الطويل ... لكى يعيد التأكيد على أساس شرعيته قبل أن يفوت الأوان » (١٠) . إلا أنه سجل للطلبة سابقة هامة ، « حيث حررهم من قيودهم ، وأثبت لهم ، لأول مرة منذ عام ١٩٥٢ ، أنهم باستطاعهم الاحتجاج ضد قرار رسمى ، وأن بإمكانهم القيام بمسيرات فى الشوارع منادين بآرائهم المعارضة للسلطات وللحكومة » (٣٨) .

لقد جعلت هذه المظاهرات المعارضة من الحركة الطلابية قوة سياسية يحسب لها النظام ألف حساب . وفى واقع الأمر، فقد دافعت عن الطلبة بعض القوى المؤيدة للحكومة ، إن لم تكن وقفت فى صفها بالفعل . حيث أيد محمد حسنين هيكل ، المنظر الرئيسى للنظام والذى كان يقوم بكتابة خطابات عبد الناصر قبل ذلك ، بعض مطالب الشباب (١٠) . وفى الفترة من هزيمة ١٩٦٧ وحتى وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، انشغل المجتمع المصرى — بل والنظام إلى حد ما — بامتحان للوعى حيث سعى الطلاب الشباب ، الذين انتموا لهذا الجيل الذى شكلته الناصرية (والتى توسعت بشكل ملحوظ فى عدد المدن الجامعية) ، لأن يكون لهم صوتاً مسموعاً . ولم تقتصر مطالب الطلاب على المطالبة بموقف حاسم فى مواجهة اسرائيل ، بل اشتملت أيضاً على إصلاحات داخلية تأتى بديموقراطية

آوسع (١٠ ، ١٦) . لقد كان الطلاب بمثابة مراقب جمعى ، أو حتى رقيب ، لسياسة الحكومة . و باختصار ، تحددت ملامح « الحركة الطلابية » .

إلا أن الحركة سرعان ما نشأ بداخلها اتجاهات وانقسامات عدة . ولم يضيع النظام الفرصة فقام بحملة تشهير ضارية بهذه التصدعات ، و بـ« العناصر الأجنبية » التى استغلت المظاهرات ، وخاصة « الشيوعيين والاخوان المسلمين » . أما الإخوان فقد عمدوا إلى إعادة تنظيم بعض الخلايا من المحرضين فى الجامعات رغم قمع ١٩٦٥ (والذى انتهى بشنق سيد قطب) ورغم اعتقال كل قادة الجماعة المعروفين . وفى المنصورة على وجه الأخص ، تسربوا داخل صفوف المنظمة الشبابية للاتحاد الاشتراكى العربى ، الحزب السياسى الشرعى الوحيد . مما اضطر النظام إلى حل فرع منظمة الشباب فى المنصورة فى فبراير ١٩٦٨ بسبب « وجود اتجاهات يمينية متطرفة بها » . وهؤلاء الإخوان المسلمون هم الذين قادوا مظاهرات المنصورة فى نوفمبر ١٩٦٨ ضد إصلاح الجامعة والذى كان بمقتضاه سيتم تخفيض أعداد الطلاب كنوع من تخفيف العبء عن كاهل الدولة الملتزمة بموجب القانون بتوفير الوظائف لخمسة وعشرين ألف خريج من خريجى الجامعات سنويا . وأسفرت مظاهرات ٢١ نوفمبر ، التى بدأت من المعهد الأزهرى للدراسات الدينية (المعهد الدينى) بالمنصورة ، عن أربعة قتلى وانفجار المظاهرات العارمة التى نفس فيها طلاب مدينة الإسكندرية عن حقهم الشديد طوال أربعة أيام . لكن ورغم قدرة الإخوان المسلمين فى بعض الأوقات على تفجير الجماهيرية ، إلا أنهم ظلوا قليلى العدد نسبيا وسط الطلاب .

ومع وفاة عبد الناصر فى خريف ١٩٧٠ وخلافة السادات له ، اكتسبت الحركة الطلابية وزنا متعاظما . فالرئيس الجديد كان يفتقر إلى سلطة سلفه . ولكى يستحوذ على السلطة كان عليه أن يقوم بثورة قصر (فى ١٥ مايو ١٩٧١) يحيد فيها القيادات السياسية البارزة التى كانت على صلة وثيقة بالاتحاد السوفييتى . وقد هيأت هذه العملية للسادات ، الذى أطلق عليها اسم « ثورة التصحيح » ، قبضة أقوى على جهازه السياسى ، إلا أنها بعثت الشكوك كذلك فى صفوف اليسار بأنه على وشك أن يهجر معسكر التقدم . وفى تلك الأيام ، كانت القضية الكبرى لهذا المعسكر هى المطالبة بحرب ثأرية مع اسرائيل ، لمحو عار يونيو ١٩٦٧ .

وانفجرت حرب أعصاب بين النظام ، والذى لم تكن لديه أى نية لإلقاء الجيش المصرى فى معركة وهو يخضّم عملية إعادة تنظيمه ، وبين القطاعات المقاتلة فى الرأى العام التى طالبت بأعلى صوتها بشن الهجوم على اسرائيل . ولكى يكسب الوقت ، وجد الرئيس نفسه مضطراً للإعلان بشكل منتظم عن هجوم وشيك ، إلا أن نقص استعداد القوات المسلحة جعله يؤجل ذلك بشكل منتظم أيضا . وأحد الأمثلة على هذا حدث يوم ١٣ يناير ١٩٧٢ ، عندما ألقى السادات خطابا افتقر إلى البراعة بشكل خاص ادعى فيه أن الهجوم الوشيك قد تم تأجيله بسبب « الضباب السياسى الذى نتج عن الحرب الهندية الباكستانية » ، التى تورط فيها الاتحاد السوفييتى . وهذا ، كما قال ، مامنع موسكو من إعطاء الضوء الأخضر للمبادرة المصرية . وقد أقنع هذا الاعتراف بالضعف الطلاب بالإضراب ، وخرجوا إلى الشارع يومى ٢٤ و٢٥ يناير ليواجهوا البوليس . وسُحبت الشقه من اتحاد الطلاب ، وهو تنظيم نقابى يتم اختيار قادته من خلال إجراءات تدعم عملاء الحكومة ، وتم تأسيس « اللجنة الطلابية للتنسيق » والتى شارك فى انتخابها القاعدة الطلابية العريضة بدلا من اتحاد الطلاب . وقد قامت هذه اللجنة بتنظيم المؤتمرات العامة للطلبة ، وكذلك قادة الاعتصامات ومظاهرات الشوارع .

وكان الطلاب الإسلاميون مازالوا أقلية فى هذه المؤتمرات ، حيث فاقتهم عدداً جماعات اليسار الماركسى والناصرى الكبيرة . فقنعوا بتسجيل وجودهم من خلال اقتراح التعديلات على برنامج « اللجنة الوطنية الطلابية للتنسيق » : وضع فريد من التشديدات على القيم الدينية ، المطالبة بإغلاق ملاهى شارع الهرم ، وهلم جرا . وعادة ماكان يتم نبذ هذه التعديلات ، حيث لم تكن تحصل على أكثر من ربع الأصوات .

ولم يكن هؤلاء الطلبة الإسلاميون قد نظموا بعد فى الجماعات الإسلامية ، لكن فى نوادى خاصة (الأسر) . وبعيداً عن الأسر التى تخصصت فى الشعر ، والرسم ، والأنشطة الترفيهية الأخرى ، كان هناك أيضا أسر لترتيل القرآن ، وأسر يتعلم المشتركون فيها حفظ القرآن . وسرعان ما أصبحت هذه الأسر أماكن لتجنيد المجاهدين الإسلاميين . ولأنهم كانوا أضعف من أن يقدموا شعاراتهم الخاصة ، فقد فضلوا أن يحرفوا الشعارات اليسارية قليلا ، وإعطائها صنعة إسلامية . فالحرب

ضد إسرائيل ، على سبيل المثال ، والتي أسماها الطلبة اليساريون « النضال الوطني التحرري للشعب العربي ضد رجل شرطة الامبريالية في الشرق الأوسط » ، وصفها أتباع البنا بأنها الجهاد الذي سيضع حدا لاغتصاب الكفار لجزء من دار الإسلام . وعلى هذا الأساس ، لم تكن هناك عقبات كبيرة تقف أمام العمل المشترك .

وفي المرحلة الثانية من الحركة ، بعد ديسمبر ١٩٧٢ ، تحولت خطوط الطلبة الإسلاميين إلى الأفضل . فبعد محاولات فاشلة ، وجدوا في النهاية مفتاح النجاح : التعاون التكتيكي ، الحذر ، مع النظام لكسر هيمنة اليسار على حرم الجامعات . وقد بدأ الشقاق في منتصف ديسمبر ١٩٧٢ ، عندما استدعى ثلاثة من طلبة كلية الطب للمثول أمام مجلس تأديب بجامعة القاهرة لاتهامهم بتعليق مجلات حائط « مهنية » مما أدى إلى خروج المظاهرات المؤيدة لهم ، مطالبة بـ « الديموقراطية في الجامعات » ، لكنها سرعان ما اصطدمت بمظاهرة مضادة من طلبة يهتفون « الله أكبر » .

وفي هذه المرة ، بدلا من الانضمام للحركة ، عارضها الطلبة الإسلاميون منذ البداية[39] . واتفق المراقبون في رؤية « تفتت واضح » في الحركة ، كما اتفقوا على أن الصراع داخلها يتم بين « النشطاء » و« الرجعيين » [37] . وعلى الرغم من أن السادات في ذلك الوقت كان يضع كلا التيارين في نفس المنزلة ـ حيث أسماهم ، في خطابه يوم ٣١ يناير ١٩٧٣ ، « اليسار المغامر » و« اليمين الرجعي » ـ إلا أن استعادة الأحداث لن تدع لدينا مجالا للشك في أن النظام ، الذي وحد قواه في معركة مع القادة السياسيين المرتبطين بالاتحاد السوفييتي ، كان ينظر بعين العطف لهؤلاء الطلاب الذين يمكنهم أن يشكلوا ثقلا مضادا لليسار المصري ، الذي كانت له قاعدة حقيقية في حرم الجامعات . حيث كان يعنيه بشكل خاص أن يمنع تحول الحركة الطلابية إلى الناصريين ، الذين كانوا مايزالون حتى هذه اللحظة يتحكمون في أجزاء من الحزب ومن جهاز الدولة . فاستقطاب الحركة حول تيارين ، وبالتالي الشلل النسبي الذي أصابها ، كان بلاشك عملا يخدم الحكومة .

أما محمد عثمان اسماعيل ، الرجل المقرب من السادات والمحامى السابق الذى لعب دورا هاما فى الإعداد والتنفيذ الفنى لـ « ثورة التصحيح » فى مايو ١٩٧١ ، فقد كان بمثابة « الأب الروحى » للجماعات الإسلامية ، فى القاهرة منذ أواخر ١٩٧١ ، وبدءاً من ١٩٧٣ فى الصعيد . وبتعيينه محافظا لأسيوط فى ذلك العام ، سجل الرقم القياس فى طول البقاء فى هذا المنصب حتى خلعه مبارك ، خليفة السادات ، فى عام ١٩٨٢ . و« شجع فى هذه السنوات التسع الجماعات الإسلامية لمحاربة الشيوعيين » . حتى أن مدرسا من أسيوط كتب عام ١٩٨١ مقالة فى إحدى المجلات الأسبوعية يشكو فيها من أن طلبة الجماعات الإسلامية « يذهبون لمقابلة المحافظ ، ورئيس الجامعة ، الذى يعاملهم معاملة الند للند . ومع هذا ، فإن التطور المذهل لجمعيات الإسلاميين فى الجامعات يعود أساسا لديناميتها الخاصة ولايمكن اختزاله إلى استغلال البوليس السياسى لها ، كما يدعى بذلك اليسار المصرى . إلا أنه لايمكن إنكار أنها كانت ولفترة من الزمن تلقى تشجيعا من النظام ، الذى كان بذلك يغذى الأفعى التى كان لها أن تلدغه فيما بعد .

● **جامعة الأعداد الغفيرة :**

فى خلال هذه المناقشة ، سيرد مصطلح « الطالب » بما لاينبغى أن يستحضر فى الذهن صورة الحرم الجامعى فى السوربون ، أوسوسيكس ، أو بيركلى . فعلى الرغم من أن الجامعات المصرية تشبه مثيلاتها فى البلدان المتقدمة فيما يخص أسماء الكليات وأعمار الطلاب ، إلا أن المقارنات لاينبغى أن تتعدى تلك النقاط كثيرا . فمنذ العهد الناصرى ، والجامعات المصرية تمسخ أكثر منها تنسخ النماذج الغربية ، أوحتى النماذج السوفييتية .

ولقد اتفق أكثر من متخصص مصرى فى مجال التعليم على أنه قد يكون من قبيل التضليل أن نسمى معاهد التعليم العالى المصرية « جامعات » : فمصطلح « مؤسسات التدريس طويل الأمد » سيكون بمثابة تحديد أكثر دقة لطبيعة هذه المعاهد التى توفر لأكثر من نصف مليون طالب مقررات دراسية مقسمة بشكل متعسف إلى فروع ضيقة ويتم تقدير الدرجات من خلال نظام امتحانات يعود نسبيا إلى المدارس القرآنية باعتمادها الأساسى على الحفظ الروتينى للملخصات .

وفور أن يحصل الطالب السابق على شهادته (الدبلوم) ــ بعد أن يستنفذ مبالغ طائلة من أسرته ليدفع قيمة الدروس الخصوصية التي بلغت درجة أهميتها للنجاح درجة عدم قانونيتها ــ سيعمل لأن يكون له الحق في أن يضع قبل اسمه اللقب الرنان « دكتور » ، ثم يعمل بعدئذ كل صباح كموظف دولة ضئيل الأجر ، ثم ينفق وقته في مابعد الظهيرة كعامل أدوات صحية هاو ، أو كسائق تاكسي لايعرف لا الشوارع ولا الطرق ، أو كمسار وسيط ، إلى أن يأتي في النهاية صديق للأسرة أو أجد علاقاته المحلية بمقعد على متن طائرة أو سفينة متجهة إلى إحدى البلدان العربية المنتجة للنفط .

وتشهد الإحصاءات البليغة المعنى على جذور هذا الوضع المفجع ، الذي يعطي للجامعات ذلك الدور المعوق لتنمية البلاد : فقد ارتفع عدد الطلاب من أقل من مائتي ألف عام ١٩٧٠ إلى مايزيد عن النصف مليون عام ١٩٧٧ . وأصبحت الجامعة المصرية مؤسسة جماهيرية ــ أو كما يسميها التعبير العربي ، « جامعة الأعداد الغفيرة » . وفي غياب الموارد الضرورية ، فإن المفهوم الديموقراطي الجدير بالثناء حول توفير التعليم العالي المجاني لأكبر عدد ممكن من شباب البلاد لتدريب خبراء للتنمية الوطنية قد أنتج نظام تعليم منخفض السعر تقاس تكاليفه بضياع الوقت والجهد وهي التي تجاوزت مميزاته بقدر ملحوظ .

ولا يدرك الطلبة أنفسهم هذه المشاكل . إلا أن الجماعات الإسلامية اكتسبت قوتها الملحوظة من قدرتها على تحديد هوية هذه المشاكل وطرح الحلول المباشرة لها .

والطالب المصري يواجه أول مايواجه الصعوبات التي يستحيل تذليلها بسبب تشوه البنية الأساسية : فليس من الغريب أن يشترك طالبان أو ثلاثة في مقعد واحد في قاعات المحاضرات والمعامل المزدحمة . ويحتاج الطالب لمهارة فائقة حتى ليستمع إلى صوت الأستاذ ، خاصة عندما يتلف الميكروفون أو عندما يحدث انقطاع للتيار الكهربائي . والقدرة على متابعة الشرح على السبورة امتيازا يحتكره شاغلو مقاعد الصفوف الأولى . وعلاوة على ذلك ، ولأن الامتحانات تسأل الطلبة أن يتقيأوا محاضرات المقرر العبقرية كلمة بكلمة ، فإن النجاح لايعتمد فقط على شراء المذكرات التي يبيعها الأستاذ ، بل أيضا على الحضور الدؤوب للمجموعات الخاصة التي يعطيها الأساتذة خلال الشهرين الأخيرين قبل امتحانات نهاية

العام. وتضمن هذه المقررات، وهى النقيض الكامل لنظام التعليم المجانى، البقاء للأساتذة، الذين تبعث روايتهم على السخرية. وتعتمد هذه التكلفة على سعر السوق المعوّم للدبلومات المختلفة، وأكثرها تكلفة هى الطب والهندسة. وأعلى سعر، على كل، هو سعر مجموعات التشريح الباهظة الثمن، والتى تتطلب الحصول غير القانونى على جثة حديثة الدفن ـــ وهى مهمة يطلب المتخصصون فيها أجورا عالية.

ونتيجة أخرى ترتبت على ازدحام قاعات المحاضرات، هى الاختلاط الذى يخدش حياء الطالبات. واللاتى يقاسين نفس المتاعب خلال الرحلة اليومية إلى الحرم الجامعى فى أوتوبيس يزدحم بالبشر ولا توجد فيه مسافة بين الأحبار. وفى مجتمع مفرط فى الاحتشام لا تتم فيه العلاقة بين الجنسين إلا فى وقت متأخر و يعين الزواج حدودها بشكل صارم، يصبح الأوتوبيس المزدحم والذى تلتصق فيه الأحبار بعضها بعض، مكانا لاحتلاس الإثارة الجنسية التى تشعر الطالبات فيها بأنهن ضحاياها.

أما هؤلاء الذين يتدبرون أمورهم لكى يهربوا من مشقة المواصلات فيقطنون فى أماكن تماثلها ازدحاماً وتراصاً فى غرف جماعية أو منازل يؤجرونها من أناس انعدمت ضمائرهم، تجار النوم الذين يتواجدون فى المناطق المجاورة مباشرة لحرم الجامعات. وفى أسيوط على وجه الخصوص ينمو مالانستطيع سوى أن نسمية «الحزام»، وهو حى الحمرا. حيث ينحشر فيه عالم كامل من الطلبة الفقراء فقرا مدقعا، والذين حرموا من الوسط الأسرى وأصبحوا ذوى حساسية عالية للاستجابة لأى صوت يمثلهم و يدعوهم إلى تحسين ظروفهم.

ولن تكتمل هذه الصورة الخاطفة للجامعة المصرية دون ذكر ملمحين إضافيين: فمن ناحية، الهجرة الجماعية للمدرسين الذين يفرون من أعمالهم وظروفهم المعيشية البائسة ليبحثوا عن وظائف فى الجامعات الجديدة فى بلدان النفط فى شبه الجزيرة العربية (وهى الظاهرة التى تفاقم من سوء مشكلة الازدحام المفرط: ففى بعض العلوم وصل معدل الأستاذ/ الطالب إلى ١/ ١٠٠)، ومن ناحية أخرى، النظام الجامد للترشيح عن طريق مكتب التنسيق. وتنشر الجرائد كل عام درجات الثانوية العامة التى لن تقبل كل كلية أقل منها لالتحاق

الطالب بالسنة الأولى بها . وأعلى مجموع فى هذا السوق الجامعى تطلبه كليات الطب والصيدلة وطب الأسنان ، هذا بالنسبة لشعبة العلوم ، والهندسة فى شعبة الرياضيات ، والاقتصاد والعلوم السياسية فى القسم الأدبى . و بين عام الالتحاق بالجامعة ، والتخرج منها ، تحتشد نخبة المستقبل (أو بحدأدنى هؤلاء الذين يمكن تصنيفهم على هذا الأساس وفقاً لمجموع تخرجهم) فى هذه الكليات . أما بقية الطلاب فيتنافسون على الكليات ذات المستوى العادى ، وحتى غير الملائم : فالطالب الذكى الذى يسعى لأن يكون من رجال القانون يعرف أنه إذا اختار كلية الحقوق بينما تتيح له درجاته الالتحاق بكلية الصيدلة ، فاء أقرانه ومستوى التدريس سيكونان أقل بكثير من توقعاته . فكل مجالات المعرفة تحولت بالتالى إلى مايسميه المصريون أنفسهم « كليات تافهة » . وهذه هى حالة العلوم الإنسانية ، على سبيل المثال ، و بشكل خاص ، الدراسات الاجتماعية ، مع استثناء واحد ، قليل العدد ، لكلية العلوم السياسية بجامعة القاهرة . وفى هذا المجال ، كما فى كل المجالات الأخرى ، نلحظ الطابع الذى لا ينمحى للناصرية (والذى يسير على خطي الأخ السوفييتى الأكبر) التى فضلت أن تربى كوادر فنية قادرة على إصلاح أحبار البشر والآلات بدلا من أن تربى مفكرين يتصدون لمواجهة مشاكل المجتمع . حيث كانت تلك هى مهمة الضباط الذين جاءوا من صفوف الجيش .

أما الجماعات الإسلامية فقد طرحت حلول إسلامية لمشاكل هذه الصورة القائمة ، التى تعرض وساخاتها بانتظام حتى الصحف شبه الرسمية . وتكلمت بلغة سهلة الفهم بالنسبة لجماهير الطلاب ، التى ظلت هو ياتها الثقافية الأعمق تقليدية تماما ، كما لاحظ ذلك موريس . ب . مارتان ، وهو أحد أكثر المراقبين دقة وانتباها للساحة المصرية المعاصرة :

« أصبح اكتساب التعليم الجامعى مهمة يائسة وتنطوى على خطر واضح . يائسة لأن عدد الطلاب والمنافسة يتطلبان ، بعض النظر عن كون مجال الدراسة ضيقا ، جهدا خارقا يلعب فيه الذكاء دورا ضئيلا . ومن المفارقات فى هذا الصدد ، أن الجهود الغير متجانسة تصبح جهودا « سلبية » بدرجة ما ، حيث أن الطالب يصبح عبدا للمذكرات ، بمحتواها الضيق والمجزء . و بالنسبة لمعظم الطلاب ، لايقف هذا الاكتساب « السلبى » للمعرفة الحديثة والذى يتم

لأغراض مهنية موقف التحدى للأسس الثقافية لمجتمعهم التقليدى على الإطلاق. فليس للتحديث أى انعكاس على الثقافة، وخاصة الثقافة الدينية الموروثة. وقد يفسر هذا بشكل جزئى كيفية حفاظ الطلاب على نوع من السلوك المزدوج، والمتوازى : السلوك العصرى فيما يتعلق بالاهتمام بالتقنيات المكتسبة، والتقليدى فيما يتعلق بأسلوب الحياة والتفكير» (٢٧).

● فى ظل النظام :

لكى نفهم الوسائل التى اتبعتها الجماعات الإسلامية سعيا لمواجهة أزمة الجامعات المصرية، ينبغى علينا أن نوجز مراحل تطورها من عند النقطة التى تركناها عندها : أى منذ أواخر ١٩٧٢، عندما عارض الطلبة الإسلاميون الشيوعيين والناصريين، مما جعل النظام يمتن لهم امتنانا كبيرا.

وخلال العطلة الدراسية عام ١٩٧٣ نظمت جماعات جامعة القاهرة معسكرا صيفيا كبيرا. وفى العام التالى، نشرت الأهرام تقريرا عن حفل ختام «المعسكر الإسلامى» الذى نظمه «طلبة جامعة القاهرة». وذكرت الجريدة القاهرية اليومية أن الأمين العام لحزب الحكومة قد حضر الاحتفال بشخصه وأشاد بنجاح المشروع : فقد قضى خمسمائة طالب أسبوعين يتدارسون فيهما القرآن والفقه. وفى عام ١٩٧٥ نشرت نفس الجريدة تقريرا عن معسكر القاهرة وعن معسكر آخر أقيم فى بنى سويف. كما افتتح عبدالحليم محمود، شيخ الأزهر، معسكرا آخر فى المنصورة.

وبالرغم من أن الرقابة الحكومية على الصحافة لم تسمح بالنشر الصحيح للحقيقة، إلا أن الجماعات الإسلامية كانت هى التى نظمت هذه المعسكرات، التى تعتبر ببساطة إحياء للمعسكرات الصيفية التى كان يعقدها شباب جماعة الإخوان المسلمين قبل حلها عام ١٩٥٤. وقد كانت بمثابة مدرسة لإعداد الكادر وكادر المستقبل لحركة الإسلاميين. ولم يكن المشاركون فيها يقضون كل وقتهم فى دراسة القرآن فقط، كما صورتهم الأهرام بكرمها يفعلون ذلك، بل كانوا يتدربون على مختلف الرياضات الجماعية وعلى الدفاع عن النفس، ويصلون جماعة، وبعد صلاة المغرب، يستمعون إلى الدعاة الذين يقدمون حلول الإسلاميين للإحباطات

المريرة للمجتمع المصرى المعاصر. لقد كانت المعسكرات تجارب صغيرة ليوتوبيا الإسلاميين، فى ماضيها ومستقبلها، وحاولوا فيها إحياء العصر الأسطورى لـ «الخلفاء الراشدين»، العصر الذهبى للإسلام، وتخيله مستمرا فى الزمن. لقد قصد بهذه المعسكرات أن تكون نموذج للمجتمع الإسلامى فى المستقبل الذى انتوى الإسلاميون الشباب بناءه على حطام الجاهلية.

وعلى كل، ففى عام ١٩٧٥، اعتبرت السلطات السياسية المصرية هذه المعسكرات مجرد ترياق مؤثر للأيديولوچية الماركسية التى تبناها الشيوعيون والناصريون. وفى نفس الفترة سمحت التعديلات العديدة التى أدخلت على لائحة اتحاد طلاب الجمهورية للجماعات الإسلامية بأن تستولى على الاتحاد وأن تستخدم مخصصاته المالية الكبيرة وتسهيلاته مما أتاح لها تسيير السياسة الطلابية بما سيسجل لها فيما بعد نجاحاً كبيراً. بل وافتتح السادات نفسه، فى الفترة من الثالث إلى التاسع من إبريل ١٩٧٤ بالإسكندرية، المؤتمر الثامن لاتحاد طلاب مصر، بخطبة نصح فيها «أبناءه، طلاب مصر» بأن يدرسوا بعناية تاريخ الحركة الطلابية فى السنوات الثلاث الماضية وأن ينبذوا، على هذا الأساس، الأيديولوچيات الجوفاء وأن يتفهموا حقيقة بلادهم. وأعاد على الأسماع أن الحكومة تقوم على مؤسسات بعينها، اتحاد الطلاب من ضمنها، ووعد بنظام جديد أكثر ديموقراطية. ولقد كان اتحاد الطلاب، منذ أيام عبدالناصر، يعكس عن قناعة اهتمامات السلطة، ويعمل كبوق لشعاراتها ونداءاتها. ففى عام ١٩٦٣، على سبيل المثال، كان الهدف الأساسى أمام مختلف اتحادات الطلاب فى كل جامعة (لم تكن هناك فى ذلك الوقت منظمة على مستوى الوطن) أن تشجع روح القومية العربية بين أعضائها وتعمق معرفتهم بالاشتراكية. وفى عام ١٩٦٦، صدرت لائحة جديدة حولت اتحادات الطلاب إلى مجرد ملاحق للاتحاد الاشتراكى العربى، الحزب السياسى الوحيد فى ذلك الوقت. وأصبح هدفها الأساسى حينئذ خدمة النظام (البند ١ من المادة ٢). وعين أستاذ للإشراف على اللجان المسئولة عن مختلف الأنشطة، يختاره المكتب التنفيذى لاتحاد الطلاب (المادة ١٥). وفى الختام، كان على أى طالب يترشح لتولى مسئولية ما داخل الإتحاد أن يلقى القبول من المكتب التنفيذى لاتحاد الطلاب (البند ٤ من المادة ٤٠).

وللأسف ، لقى هذا الصرح الشامخ مصرعه على يد هزيمة مصر فى حرب ١٩٦٧ . وخلال أعوام ثلاثة من النقد الذاتى والحرية النسبية فى أعقاب الحرب وقبيل وفاة عبد الناصر ، صار الطلاب قوة سياسيّة لم يعد باستطاعة النظام أن يتجاهلها أكثر من هذا . ومن ثم قرر أن يقيم مؤسسة طلابية ، فصدر المرسوم رقم ١٥٣٣ لسنة ١٩٦٨ بإقامة الاتحاد العام لطلاب الجمهورية .

ولم يعد من حق الاتحاد الاشتراكى العربى (ح . ش . ع) أن يشرف على المولود الجديد . ورغم الاستقلال الذى تمتع به الاتحاد العام ، فقد ظل يستهدف أساسا النضال ضد الرجعية ، والاستعمار ، والصهيونية العالمية (البند ٣ من المادة ٥) . وصار لهذا الاتحاد العام موارده الضخمة التى تتجاوز بمراحل موارد هذا الاتحاد أو ذاك فى هذه الكلية أو تلك الجامعة . وكان يرأسه رئيس منتخب ، و ينقسم إلى خمس لجان على مستوى القطر (لجنة العمل السياسى ، ولجنة العلاقات العربية ، ولجنة العلاقات الخارجية ، ولجنة العلاقات الداخلية ، ولجنة الاعلام والنشر : المادة ٢٥) . وكان على هذه اللجنة الأخيرة أن تنشر المجلات والكتيبات لتثقيف الطلاب (البند ٥ من المادة ٢٦) .

وفيما يلى القواعد التى وعد بها السادات فى عام ١٩٧٤ لجعل الاتحاد أكثر ديموقراطية . وقد صدرت بمرسوم رقم ٣٣٥ لسنة ١٩٧٦ حيث قررت أن الهدف الرئيسى للاتحاد الآن هو « تعميق القيم الدينية لدى الطلاب (البند ١ من المادة ٥) ، هذا رغم وجود الإشارات التقليدية إلى تعميق المفاهيم الاشتراكية (البند ٣) وإلى النضال ضد الثالوث اللعين ، الرجعية ، والاستعمار ، والصهيونية العالمية (البند ٣ من المادة ٦) . و يتكون مكتب الاتحاد ، الذى أصبح مستقلا الآن ، من رئيس واثنى عشر عضوا آخرين ، يتم انتخابهم جميعا بشكل مستقل (مادة ٣٩) ، مما أتاح للتيارات المختلفة فرصة الحصول على تمثيل لها داخل المكتب . وقد دعمت الجماعات الإسلامية من خلال إنشاء لجنة جديدة ، هى لجنة « الدين والمجتمع » ، حيث تدفقت إلى الاتحاد من خلال هذه الثغرة .

وقد أعطى تأسيس خلايا الجماعات الإسلامية فى اتحاد الطلبة الإسلاميين منبرا مؤثرا بدرجة واضحة ونتج عنه توسع فى عمليات التجنيد . وفور أن سيطرت

الجماعات على لجنة الإعلام والنشر على مستوى الجمهورية عام ١٩٧٥ ، على سبيل المثال ، أصبح بإمكانهم استخدام أموال الحكومة ومساهمات الطلاب على حد سواء لانتهاج سياسة واضحة فى إخراج كتيبات الإسلاميين بسعر منخفض : سميت السلسلة « صوت الحق » (والذى تصادف أن يكون أيضا العنوان الجانبى لمجلة الدعوة) ، وأتاحت لكل طالب ليس فقط الاطلاع على فقرات مكثفة من كتاب « معالم فى الطريق » ، والذى كانت نسخه صعبة المنال فى مصر فى ذلك الوقت ، وإنما كذلك على مختارات من مؤلفى حركة الإسلاميين البارزين فى القرن العشرين .

إلا أن الجماعات الإسلامية لم تصبح القوة المهيمنة فى الحركة الطلابية حتى مؤتمر الاتحاد فى مارس ١٩٧٦ . إذ أن عمليات التحريض والإضرابات الطلابية التى وقعت فى يناير ١٩٧٥ تضامنا مع عمال حلوان كانت ماتزال تدين بالقيادة لليسار الماركسى والناصرى ، إلا أنها كانت اللحن الختامى لسيطرة اليسار على الجامعات . وفى مارس ١٩٧٦ كان الموت قد تقرر: حيث انصب اهتمام المؤتمر، الذى انعقد فى شبين الكوم ، أساسا على تطبيق الشريعة الإسلامية ، ونظم مسيرة إلى ميت أبوالكوم ، مسقط رأس السادات ، لتقديم هذا الطلب إليه . ووجهت العرائض باحترام إلى « الرئيس المؤمن » ، وهى العرائض التى احتوت على الناتج النهائى للمعارضة السياسية للنظام التى عبرت عنها بصراحة الجماعات الإسلامية ، التى ادخرت اسلحتها الحادة لمواجهة الشيوعية .

● **تغيير الحياة :**

بالرغم من تمتعها بالتشجيع الخفى من النظام ، إلا أن الجماعات الإسلامية لا تدين بكل نجاحاتها لتوجيهات وزارة الداخلية . فتكتيكات بحثهم عن قاعدة لهم وسط الطلاب كانت حاسمة فى هذا الشأن .

فمن خلال تطوير استراتيجية لتغيير الحياة فى الحرم الجامعى أقنعت الجماعات الإسلامية الطلاب بأنهم يستطيعون أن يملكوا أقدارهم منذ تلك اللحظة ، وليس من خلال الدعاية للشعارات الرسمية والمشروعات الحكومية التى ستنتهى لا محالة إلى الغرق دونما أثر يذكر تحت ثقل الفساد وسوء الإدارة .

وفى عدد فبراير عام ١٩٨٠ ، من مجلة الدعوة ، يحتوى القسم الذى كان عنوانه « أخبار الشباب والجامعات » ــ وهو العمود الذى يسمح لنا بتتبع أنشطة الجماعات الإسلامية شهراً بشهر (رغم تنقيحات التلمسانى وأقرانه) ــ على مقالة عن « المشاكل الكبرى التى تواجه الشباب » . وأول هذه المشاكل كان الاختلاط بين الجنسين « سلاح الإفساد الغربى الذى استُخدم ليجعلنا نتخلى عن شخصيتنا الإسلامية » . و يذكر أحد الطلبة « الذكور» أن « الاختلاط بين الجنسين فى المدرجات المزدحمة يصبح إغراء لضعاف الروح ... ونحن لسنا ضد وجود الطالبات ، ولكننا ينبغى أن نعرف ما إذا كانت الفتاة التى تضع مكياجا طالبة أم مانيكان » . والمدينة الجامعية أصبحت مرهقة ومزدحمة ، فى ظل وجود ثلاثة أو أربعة طلاب فى الحجرة الواحدة . ومن المستحيل على الطالب أن يركز لكى يحفظ المذكرات . المنسوخة . ثم تأتى مشكلة المواصلات : فالطلبة يبقون فى قراهم بسبب صعوبة السكن فى المدينة ، و بالتالى فهم ينحشرون كل يوم فى الأوتوبيسات المزدحمة . ولكل هذه الأسباب يعجز الشباب عن القيام بدورهم فى المجتمع .

المرأة أولا . إن ظاهرة « العودة للحجاب » لقطاع من طالبات الجامعة ، والتى تشجعها الجماعات ، أصبحت متفشية لدرجة أنها تثير بعض التساؤلات حول الأحداث اليومية التى تحكم حياة الطالبات المصريات . ففى مجتمع أصبح الزواج المتأخر هو القاعدة فيه ، هذا الزواج الذى يرتبط فقط بقدرة العريس المنتظر على دفع « خلو الرجل » بعد عودته من هجرته فى الخليج ، والعلاقات الجنسية قبل الزواج استثناءات نادرة ، أصبح الكبت الجنسى ونتائجه الطبيعية ، والعادة السرية ، مشكلتين قوميتين . وحتى إذا لم تكن هذه هى القضية ، فإن الزحام المفرط فى كل الأماكن العامة بسبب عدم قدرة البنى التحتية على مواجهة الزيادة فى عدد السكان سوف يضع الشابات بشكل خاص فى وضع غير مريح بالمرة . وفى واقع الأمر ، فإن أى شىء يمكن أن يحدث فى أوتوبيس يحمل الطالبات الصغيرات من مساكنهم إلى الجامعة .

وقد تصدت الجماعات لهذه الظروف الصعبة : فسوف نقوم بتسيير خطوط أوتوبيسات صغيرة خاصة بالطالبات لكى نصون كرامتهن من أن تجرح فى

المواصلات العامة . وسار أول خط من هذه الخطوط ، تحت رقابة اتحاد طلاب كلية طب القاهرة بالاشتراك مع الجماعات الإسلامية فى هذه الكلية ، فى مارس ١٩٧٧ . وكان خط سيره من امبابة (وهى حى فقير) إلى الدقى (أحد الأحياء الراقية) إلى قصر العينى (حيث تقع كلية الطب) و بالعكس . ونجح هذا المشروع نجاحا فور يا . لكن نظرا لأنه كان يتطلب اعتمادات مالية كبيرة ، فضل القائمون على المشروع فى بداية الأمر ، ثم بعد ذلك بشكل إجبارى ، أن ترتدى اللاتى يستخدمن وسيلة المواصلات هذه « الزى الإسلامى » ـــ حجاب ، وفستان طو يل ، وقفازات .

وتبرز مشكلة مماثلة فى المدرجات ، وقاعات المحاضرات ، الممتلئة بضعف سعتها . فطالبات عديدات تتضايقن من تكوم المحيطين بهن فوقهن . ومن خلال مطالبة الجماعات الإسلامية بالفصل بين الجنسين فى صفوف مختلفة ، كان باستطاعة الجماعات الإسلامية أن تتصدى لمشكلة حقيقية وأن تقدم حلا ذكيا وجديرا بالتنفيذ الفورى . وسواء كانت الطالبات متعاطفات إسلاميات أم لا ، إلا أنه كان رهانا رابحا حيث أن تأثير هذا الاقتراح يفوق بكثير تأثير سماع القرآن على بضعة قلوب . وكان التأثير غير المباشر لما أسماه معظم الطلبة والأساتذة العلمانيون « الظلام ، والرجعية ، والديماجوجية » هو إظهار فشل الدولة فى تقديم بنى تحتية تليق بالبشر وكأنه شيئا من الممكن احتماله ، ولم يتبنى هذا الموقف إلا الأقلية التى كان بإمكانها أن تحلل بشكل نقدى تاكتيك الجماعات الإسلامية ، ولم يكن هناك سوى فرصة ضئيلة لأن يهتم أحد بهذه المعارضة فى جامعة القاعات المكتظة و« الأعداد الغفيرة » . وعلى أى حال ، فما هو البديل الملموس الذى قدمته هذه المعارضة فى مواجهة الحل الذى قدمته الجماعات الإسلامية لهذه المشكلة ؟

وقد كان لتكتيهم ميزة أخرى ، وهى أنه كان يلقى التأييد ـــ سواء كان بشكل صر يح أم مستتر ـــ من جانب أكثر من مسئول جامعى . . فالجماعات الإسلامية كانت تتميز بأنها تطرح شعارا ، سواء كان مسكنا أم لا ، يكون مقبولا من جمهرة المسلمين المقتنعين بأن هذا ما كان عليه الإسلام عند نشأته ، وفور أن تُضرب جماهير الطلاب تأييدا لهذا الشعار ، تنادى الجماعات الإسلامية فجأة بأن هذا الشعار يمثل قطيعة المجاهد مع الجاهلين . فما أن يبدأ أحدهم برفضه أن يجلس

بجانب زميلته من الجنس الآخر حتى يجد نفسه ، شيئا فشيئا ــ يحارب من أجل تأسيس الدولة المسلمة .

كما طرح الإسلاميون أيضا الحل لمشكلة المراجعة من خلال الدروس الخصوصية والملخصات باهظة الثمن : فنظمت الجماعات فصولا جماعية للمراجعة فى المساجد ، حيث يقرأ الطلبة المجتمعون بصوت خفيض نصوص المذكرات فى انسجام ــ دون خوف من مقاطعة أجهزة الراديو أو الجيران . والأهم من هذا بكثير ، أن سيطرتهم على اتحاد الطلاب وعلى ميزانية النشر سمحت لهم بإعادة إصدار طبعات رخيصة من المذكرات ، دون دفع قيمة حقوق التأليف للأساتذة ، الذين فقدوا بهذا أحد مصادر دخلهم .

وخلال عامى ١٩٧٦ و١٩٧٧ ، وهما العامان اللذان بلغت فيهما الجماعات الإسلامية ذروة سطوتها وممارستها فى ظل مباركة النظام ، مارست سيطرتها الفعلية على اتحاد الطلاب سواء على المستوى القومى أو على مستوى الكليات الرئيسية . وفى انتخابات الجامعة للعام الدراسى ١٩٧٦/٧٧ ، كسبوا مواقع قوية ، وبشكل خاص رئاسة اتحاد الطلاب فى جامعتى القاهرة والمنيا ومنصب نائب رئيس الاتحاد فى جامعة الاسكندرية .

وادعت الجماعات أن نجاحها يعود إلى قدراتها على الاستجابة لمشكلات الطلاب : ووفقا لاستطلاع رأى أجرته مجلة الدعوة على « عينة مجهولة » ، اعتبر المشاركون فى هذا الاستطلاع ممثليهم من الجماعات فعالين ، ومنظمين ، وجادين ، ومفضلين للديموقراطية . واهتموا بعناية بإبراز صورتهم على أنهم مديرين أمناء وأكفاء فى وقت جعل فيه « انفتاح « السادات « الاقتصادى » من الفساد واختلاس الأموال العامة ضرعا البقرة المصرية الحلوب .

وقد كان لهذا التكتيك آثاره : حيث أظهرت الانتخابات الطلابية التى جرت فى نهاية عام ١٩٧٧ فوزا ساحقا لممثلى الجماعات . لكن الوضع السياسى كان قد تغير . فالنظام ، الذى كان فى خضم عملية سلامه مع اسرائيل ، لم يعد

يطيق أى تعامل مع حلفائه السابقين ، الذين أصبحوا ، بعد أن كسروا شوكة اليسار فى حرم الجامعات ، عبئاً ثقيلاً عليه . وصار على استعداد أن يفعل كل ما من شأنه أن يسلبهم نجاحهم .

وكحركة من الطلاب ، طمحت الجماعات الإسلامية لأن تصبح القوة الدافعة لعملية تحويل الجاهلية إلى مجتمع مسلم . ولكى يقوموا بهذه المهمة ، كان عليهم أن يخرجوا من الحرم الجامعى . واختاروا لذلك الاستفادة من مظاهرتين مؤثرتين ، أى جمهور المصلين فى العيدين : « عيد الفطر» ، الذى يحتفلون به فى نهاية صيام شهر رمضان ، و« عيد الأضحى » ، الذى يذبح فيه المسلمون الخراف تمثلا بتضحية النبى إبراهيم . فبعيدا عن عدم انتظامهم فى تأدية الشعائر الدينية ، فإن المؤمنين فى هذين العيدين يقومون بعملية إعادة تنشيط لإيمانهم ، نتيجة للضغط الدينى والاجتماعى المكثف فى الشوارع ، ومن الصحافة ، وداخل الأسرة . فمن لم يذهب من الناس إلى المسجد سوى مرتين فى العام فإنه يذهب فى هذين العيدين .

وهنا أيضا تضرب الجماعات الإسلامية مثلا على حسها التكتيكى . حيث نظمت الصلوات العامة ــ فى القاهرة والإسكندرية أولا ثم بعد ذلك ، عام ١٩٨٠ ، فى كل المدن المصرية تقريبا ــ التى يتقد فيها حماس المؤمنين . واتسم الموقع الذى أختير فى القاهرة ــ ميدان عابدين الواسع فى مواجهة قصر الرئاسة ــ بأهمية خاصة : فمن خلال الصلاة فى مواجهة بيت الحاكم ، يذكره شعبه بضرورة أن يحكم بما أنزل الله وأن يبدأ عهدا عادلا .

فى ١٩٧٦ حشدت الجماعات الإسلامية عددا لايستهان به من الذين شاركوا صلاة العيدين : ووفقا لمجلة الدعوة ، حضر أربعون ألفا (من المحتمل جدا أن يكون هذا الرقم مبالغا فيه) صلاة العيد الكبير التى أقيمت بالاستاد الرياضى بجامعة الإسكندرية . وفى عام ١٩٧٧ زعمت المجلة أنهم بلغوا مائة ألف فى الإسكندرية ، وخمسين ألف فى ميدان عابدين بالقاهرة ، وآلاف فى ستاد الزقازيق . وكان المصلون ، الذين كانوا يرتدون جلاليب بيضاء وعباءات ، يتجمعون فى المساجد المجاورة لهم ثم يتوجهون جماعات إلى مواقع الصلاة ، يهتفون « الله أكبر» .

و يرافقهم حتى أماكنهم الحراس الذين ينتمون للجماعات الإسلامية والذين كانوا يقومون بهذه المهمة بفعالية جديرة بالملاحظة (وفُصِلا النساء ، فى منطقة خاصة ، عن الرجال بستارة كثيفة)* .

و يؤم المصلين فى هذا اليوم و يلقى خطبة العيد داعية ينتمى لحركة الإسلاميين : و يطير لهذه المهمة نجوم من أمثال محمد الغزالى و يوسف القرضاوى من مواقعهم الشرفية فى ممالك النفط فى شبه الجزيرة العربية إلى مصر . أما فى الأقاليم فعادة ما كان يتحدث أمير الجماعة المحلى ، وفى حالة عديدة كان القادة المحليون ينتمون إلى تيارات أكثر راديكالية أكثر من الشيخين ــ ناجح إبراهيم ، على سبيل المثال ، الذى كان قائدا للطلبة الإسلاميين فى أسيوط والذى قبض عليه بعد ذلك ، عام ١٩٨١ ، لكونه عضوا فى المجموعة التى اغتالت السادات .

وحول المصلين يقف باعة الحصر الرخيصة ، والسواك ، والعطور ذات الرائحة النفاذة ، وآخر ما صدر من كتب ودوريات الإسلاميين . وفى هذه الأثناء ، ينتشر الشباب الملتحى فى الممرات بين المصلين وهم يهزون صناديق التبرعات فى أيديهم لكى تلقى فيها الإسهامات الكريمة .

و بشكل عام ، كانت تلك صورة الجماعات الإسلامية فى عهد السادات حتى عام ١٩٧٧ : فالنظام لم يضع أى عقبة أما حريتهم فى التعبير ، وتجنبت الجماعات الهجوم على النظام بشكل صريح . فهل كان ذلك اتفاق جنتلمان أم كانت لعبة حمق ؟ ومع أن الجماعات كانت مدركة تماما للحدود التى لن تستطع أن تتخطاها ، إلا أن البنية التحتية التى أسستها الجماعات ، والكوادر التى قامت بتدريبها فى المعسكرات الصيفية ، وأسابيع الدراسات الإسلامية ، لا يمكن إلا أن تكون قد تم إعدادها للاضطلاع بمهام محتملة غير سحق اليسار الناصرى والشيوعى لصالح المجموعة الحاكمة . وفيما يتعلق بهم ، فإنه رغم أن الناصرية كانت بشكل خاص فترة بغيضة من فترات الجاهلية ، إلا أن عصر السادات من ناحية الجوهر

* دعت ملصقات الحائط التى غطت جدران مصر كلها الجماهير للصلاة فى كلا العيدين . وتم التركيز على دعوة العائلات ، وكانت الدعوة تتم بشكل عام وفقا للصيغة الآتية : تدعوك الجماعات الإسلامية لصلاة (العيد الصغير والكبير) ، فى يوم كذا ، فى الساعة والمكان المحددين ، أحضر أطفالك معك ، هناك أماكن خاصة للسيدات » .

لايختلف على الإطلاق عن عصر سلفه . ومع هذا ، فإن تناقضاته الداخلية هى التى مكنت الجماعات من النمو فى ظل النظام .

● كيف تغدو مسلما صالحا

ابتدأ الشقاق بين النظام والجماعات الإسلامية بسبب حادثتين وقعتا عام ١٩٧٧ : قضية التكفير والهجرة ومحاكمة جماعة المسلمين من ناحية ورحلة السادات للقدس من ناحية أخرى . فبإلقاء القبض على شكرى وأتباعه والحملة الصحفية اللاحقة ضدهم ، وجد الطلبة الإسلاميون أنفسهم أمام خيارين فى غاية الصعوبة : إما أن يظهروا تضامنهم مع شكرى وأصدقائه من خلال إدانة المحاكمة ، كما فعل شيخ الأزهر عبدالحليم محمود ، أو يسعوا إلى التباعد عن جماعة شكرى بأقصى ما يستطيعون لكى لايخاطروا باكتساب ازدراء العديد من الذين روعتهم الممارسات الاجتماعية لجماعة المسلمين .

وفى ١٢ يوليو ١٩٧٧ ، بعد اغتيال وزير الأوقاف الأسبق ، محمد الذهبى ، بعدة أيام ، نشرت الأهرام سلسلة من الأحاديث الصحفية مع مختلف قادة الجماعات الإسلامية تحت عنوان : « شباب الجماعات الإسلامية يلقون الضوء على ممارسات جماعة التكفير والهجرة و يعلنون لقد عارضناهم منذ البداية » . ويجب قراءة التصريحات التى استجداها وأعاد صياغتها صحفيو الحكومة بحرص ، بالطبع ، لكن هؤلاء القادة الذين أجريت معهم المقابلات الصحفية أصروا على أن « الدعوة الإسلامية » تعنى لهم ، « وجوب العمل داخل المجتمع لا أن ينعزل المرء عنه وأن يلجأ إلى الهجرة » . أما الإخوان المسلمون الجدد فى مجلة الدعوة فقد نشروا مقالات كتبها أعضاء هيئة التحرير الدائمون ، كما نشرت تصريحا لعصام الدين العريان ، وهو عالم طبيعة شاب ، وأحد المفكرين البارزين للجماعات الإسلامية . حيث حاول أن يبرهن على أن تكفير المسلمين بالشكل الذى مارسه شكرى خطيئة ، وأن مصر لم تزل بلدا مسلما بشكل أساسى تحتاج أكثر ما تحتاج إلى الحرب المقدسة ، أو الجهاد ، الدائمة حتى يتم إعادة إحياء الإسلام . أما الدعوى ، كما فعلت جماعة المسلمين ، بأن مصر جزء من دار الحرب ، فتعنى سقوط البلاد فريسة سهلة فى يد أعداء الإسلام . و يستحيل فى ظل هذه الحالة أن تنشر مجلة

منتخب للإتحاد قرر فيها أنه على الرغم من كونه ليس من أعضاء الجماعات ، إلا أنه اشمئز من الضغط الذى يمارس عليها . وادعى « حسنين مخلوف » ، رئيس الأزهر السابق ، أن « المحاولات المعادية للجماعات الإسلامية هى مقائد تحال ضد الإسلام » . و باختصار ، وحيث « أنهم » يعملون للقضاء على الجماعات ، حتى أنهم حاولوا وضع العلماء فى مواجهتها ، فقد وجهت الجماعات نداء إلى كل حلفائها لكى يصطفوا دفاعا عنها . وهؤلاء ، الذين لم تفصح مقالات المجلة عنهم ، كان المقصود بهم النظام ـــ أو بحد أدنى على مستوى الوطن ، لأن المحافظين ورؤساء الجامعات كأفراد ما كانوا ليطبقون سياسة تتعارض مع السياسة التى انتهجوها حتى ذلك الوقت بهذه السرعة .

وطوال فترة الربيع ، تلخص تكتيك النظام فى تزييف نتائج الأنتخابات وفى رفض اعتماد أوامر الصرف المختلفة التى صدرت عن لجان الطلاب التى مازال يسيطر الإسلاميون عليها . وفى الصيف ، تم إغلاق معسكرات الإسلاميين فجأة ، حيث حال الأمن المركزى ، وهى فرق مكافحة الشغب ، دون دخول الطلبة الإسلاميين إلى المعسكرات فى جامعات القاهرة والإسكندرية والزقازيق . وأقيم معسكر المنيا ، لكن السلطات رفضت دفع نفقاته ، رغم أن اتحاد الطلاب هو الذى اعتمد أوامر الصرف الخاصة به . ورغم أن هذه الاستفزازات عرقلت تقدم الجماعات ، إلا أنها مع هذا ، قدمت لها فرصة لالتقاط الأنفاس . حيث أحاطتهم بهالة الاستشهاد ، التى مكنتهم من تركيز المعارضة على النظام فيما بين ١٩٧٩ و ١٩٨١ . والأهم من هذا ، أنها اضطرت الطلبة الإسلاميين للخروج من جيتو الجامعة ، الذى يصعب عليهم الاقتراب منه الآن . فأقيم المعسكر الصيفى لإسلاميين القاهرة فى نهاية الأمر فى جامع صلاح الدين بالمنيل ، فى منتصف الطريق بين كلية الطب و بين نادى البحر الأبيض المتوسط ، كما أقيم معسكر الإسكندرية فى أحد مساجد المدينة قرب أبوقير . أى أن رسالة الجماعات الإسلامية بدأت فى الانتشار خارج حدود عالم الطلاب . و بدأ محرضوها وكوادرها فى الدعوة بين الناس ، وقاموا بالتجنيد وسط الأحياء الفقيرة : وهذا ما اضطر الشرطة ، فيما بعد ، فى غارات سبتمبر ١٩٨١ ، إلى اقتفاء آثارهم حتى فى القرى .

وفى مارس ١٩٧٩ ، وقع السادات اتفاقيات كامب ديفيد . وفى أعقاب عودته

من الولايات المتحدة ، بدأ فى وضع العراقيل أمام الإسلاميين ، حيث كان يأمل فى أن تمكنه شعبيته « كرئيس للسلام » من تكذيب وتشويه الذين انتقدوا ، باسم الإسلام ، « السلام المخزى مع اليهود » . وفى ١٥ إبريل ، وصل السادات ، فى رحلته عبر محافظات مصر ، إلى مدينة أسيوط ، إحدى المدن التى مارست فيها الجماعات الإسلامية نشاطا مكثفا (والتى خصتهم فيها السلطات بأقصى مساعداتها حتى عام ١٩٧٧) . وهناك ألقى خطابا هاجم فيه بعنف هؤلاء الذين يحاولون إخفاء أهدافهم السياسية تحت عباءة الدين ، وبشكل خاص هؤلاء الشيوعيون الذين يتنكرون فى جلباب أبيض ولحية طويلة ، وهاجم الجماعات بالإسم ، واتهم التلمسانى بالكذب . وقال إن أحد الطلاب قد تم إلقاء القبض عليه وفى حوزته مبلغ ٨٠٠ جنيه (وذكر فى مبالغة ديماجوجية « أى أنه أكثر من راتبى الشهرى ») ، وهذا فى رأى الرئيس دليل على التمويل الخارجى لهذه المجموعة العميلة ، التى تعمل الآن على تحطيم الوحدة الوطنية بتحريضها للجماعات الإسلامية والمسيحية ضد بعضها البعض . وسرعان ماترجم حنق الرئيس على الإسلاميين إلى أعمال محددة . فصودر عدد الشهر التالى من مجلة « الدعوة » . وفى يونيو كانت الجماعات الإسلامية هى المستهدفة بالقانون ٢٦٥ لسنة ١٩٧٩ الذى حظر نشاط الاتحاد العام لطلاب الجمهورية ، وجمد مخصصاته المالية ، وسمح ببقاء الاتحادات الطلابية على مستوى الكليات فقط ، ويديرها أحد عشر عضوا بينهم ستة أساتذة ، وأصبح لعميد الكلية سلطة إيقاف أى قرار يتخذه الاتحاد . وهذا يعنى ، بشكل أو بآخر ، العودة إلى وضع عام ١٩٦٣ ، عندما كان عبدالناصر فى أقصى مراحل انحيازه للسوفييت ، فى مفارقة ساخرة لنظام السادات ذو النكهة الأمريكية عام ١٩٧٩ ، والمفترض أنه يقوم على « سيادة القانون » . ولم تكن هذه هى المرة الأولى ، رغم ذلك ، التى يصدر فيها القرار بعد فوات الأوان . فالجماعات كانت قد أسست بنية تحتية صلبة ، واستطاعت التعبير عن غضبة الطلاب على آثار القرار : إذ ألغيت الخدمات التى كان الاتحاد يؤديها لهم — فلن يكون هناك نسخ رخيصة من المذكرات والكتب ثانية ، وسيختفى الزى الإسلامى الرخيص ، وتتوقف رحلات الحج المجانية ، .. إلخ . وفى استعراض للقوى أقامته الجماعات فى نهاية رمضان ١٩٧٩ ، وأثبتت للنظام ، إذا كان يحتاج لدليل ، على أنها لايمكن أن يخمد صوتها . حيث نبه الشيخ يوسف القرضاوى ، فى خطبة

حماسية ، السادات ، الذى كان قد أولى عملية صيانة مومياء رمسيس الثانى اهتماما كبيرا ، «إن مصر مسلمة ، وليست فرعونية ، إنها أرض عمرو بن العاص* ، وليست أرض رمسيس .... وأن الجماعات الإسلامية هم الممثلون الحقيقيون لمصر وليس شارع الهرم** ، وعروض المسرح ، والسينما ... مصر ليست نساء عاريات ، ولكنها النساء المحجبات اللاتى يتمسكن بتعاليم القرآن .. إن مصر هى الشباب الذى يطلق لحاه .. هى أرض الأزهر! » .

وشرعت الجماعات ، بعد أن حرمت من غطاء الشرعية الذى كان يوفره لها الاتحاد العام للطلاب ، فى تحويل الجامعات إلى حصون منيعة ، بينما سعت إلى اختراق مختلف الطبقات الاجتماعية خارج أسوار الجامعة .

وقد حول هذا البناء monolith الذى سعى الإسلاميون لفرضه على الجامعات حرم الجامعات ، الذى كانوا هم القوة المسيطرة عليه ، إلى أرض إسلامية terra islamica حرموا فيها ، ضربا بالهراوات ، أى شىء قد يمثل فسقا فى معتقداتهم : فكانوا يهاجمون أى شاب وفتاة يمشيان سويا لانتهاكهما الأخلاق الإسلامية القويمة ، وأوقفوا العروض السينمائية ، ومنعوا إقامة الحفلات الموسيقية والحفلات الراقصة . فنجد أحد المجاهدين الإسلاميين (وهو طالب طب ، تنم لغته عن ذلك) يكتب ، على سبيل المثال ، أن الحفلات الموسيقية « ظاهرة مرضية مثلها مثل الطفح الجلدى » ، بالإضافة إلى كونها مناورة شيوعية تهدف لإفساد الشباب وبذلك تلحقهم الهزيمة بسهولة شديدة . واعتبر أن كل العروض السينمائية والفنية « تحريضا ضد الجماعات » وهذا فى حد ذاته يستوجب منعها بالقوة وقد كان أحد أشكال هذا التحريض عرض فيلم يوسف شاهين ، اسكندرية ، ليه ؟ ، « الذى قدم اليهود فى صورة أناس طيبين » . ومع

---

* عمرو بن العاص : قائد الجيوش الإسلامية التى غزت مصر عام ٦٤٠م .

** يشتهر شارع الهرم بالملاهى الليلية الأنيقة التى يرتادها عرب الخليج ، الذين يشربون الكحوليات ، ويدرسون الفستق ، حيث يلقون برزم الأوراق المالية تحت أقدام الراقصات . و يعتبر مطلب إغلاق الكباريهات فى هذا الشارع مطلبا قديما لحركة الإسلاميين .

ذلك ، فقد سعت الجماعات لمواجهة هذا التحريض ، باستخدام القضبان الحديدية . إذن فقد فرض نظام الإسلاميين على حرم الجامعات ، وأصبحت سيطرتهم الآن أكثر بكثير من سيطرة النظام على الجامعات أيام أن كانت للجماعات خلاياها داخل الاتحاد العام للطلاب .

وبينما كان الإسلاميون يهددون بالعصى والهراوات فى يد ، كانوا يكتبون مقالات سعوا بها لحماية صورتهم كقوة مسالمة تعبر عن أعمق عواطف البلاد وبالتالى يكشفون ظلم اضطهادهم من جانب الحاكم الظالم . وهذا « الاضطهاد » ، فضلا عن ماترتب عليه من دفاعهم عن قضيتهم وعرضهم لها ، يقدم لنا فرصة لفهم رؤية الجماعات للتاريخ والمجتمع ، وتعيين موقعهم الفكرى .

وتعد النصوص النظرية التى كتبها أعضاء الجماعات الإسلامية قليلة ومتباعدة . فإبان سيطرتهم على اللجنة الثقافية فى اتحاد الطلاب ، كرسوا كل جهودهم لإعادة طبع مختارات من مؤلفات مفكرين إسلاميين بارزين . وركزت كتيباتهم التذكارية ، من ناحية أخرى ، على شعارات العمل لاعلى التصورات الأساسية التى تحكم إيمانهم وأعمالهم . وبالإضافة إلى ذلك ، فمن المحتمل جدا أن يكون هذا التنظيم ، الذى استهدف بشكل أساسى أن يصبح حركة جماهيرية ، قد ابتعد عامدا عن الفكر النظرى ، فى محاولة لتجنب الانشقاقات المحتملة حول مسائل عقائدية .

وداخل هذا الجسد الهزيل إلى حد ما ، يظهر نصان نموذجيان بشكل خاص . النص الأول صاحبه شخصية شهيرة فى الجماعات الإسلامية ، وهو الطبيب الشاب عصام الدين العريان ، وقد نشرت « الدعوة » مقالة له فى الاحتفال بمرور خمسة عشر قرنا على بزوغ الإسلام (فى نهاية عام ١٩٨٠ ، عبرت عن التفسير الإسلامى لمعنى التاريخ . ويلخص النص الثانى الخطوط الرئيسية لفكر الجماعات اعتمادا على النشرة الشهرية التى توزعها الجماعات الإسلامية بجامعة الإسكندرية .

وبدراسة لانتشار الإسلام فى الجامعات خلال القرن الماضى وفقا للتقويم الإسلامى (أوبمعنى آخر، منذ ١٨٨٠) ، اكتشف عصام الدين العريان سلسلة

تشتمل على ثلاث مراحل ٭ : التفسخ الذى أصاب أرض الإسلام، واحتلال الكفار لها، ثم اليقظة الإسلامية. وتتولد المرحلة الثالثة من المرحلة الثانية، ومع ذلك، فيشترط وجود طليعة عاقدة العزم لتعمل كقابلة لهذه المرحلة. وفى مصر كانت هذه الطليعة عاجزة عن لعبة هذا الدور، حيث حلت الوطنية محلها، وحققت الاستقلال، الذى كان بدوره شكلا جديدا من أشكال التغريب. ومن ثم غاصت البلاد فى المرحلة الثانية، بينما اعتقدت خطأ أنها قد نالت حريتها. وفى واقع الأمر، ورغم أن الكفار لايتمتعون الآن بالوجود المرئى الذى كانوا يتمتعون به أيام الاحتلال البريطانى لمصر، إلا أن أفكارهم قد اخترقت عقول الكثير من المصريين : « بدأ علماء الغرب يروجون فى العالم الإسلامى فكرة أن سبب تخلفنا هو تمسكنا بديننا وأن علينا أن نتوجه نحو الغرب بلا تحفظ كما عبر عنهم بمنتهى الوضوح د. طه حسين.. ». وهذا التضليل كان ثمنه « أن الشعوب المسلمة جربت بعد الاستقلال تجربتين مريرتين هما التجربة الديمقراطية الغربية ثم التجربة الاشتراكية الشيوعية وكانت الثمار مرة ». ويقول عصام الدين العريان إننا نقف الآن على أعتاب مرحلة فجر اليقظة الإسلامية التى تبدأ حركة الإسلاميين بالاضطلاع بمهامها. « ومن المعلوم أن جناحى قوى الضغط على الأنظمة الطاغوتية هما العمال والطلاب... فى المدارس والجامعات التى تضم على مستوى العالم الإسلامى ١٠ ملايين فتى وشاب... فهيكل الدولة القادمة سيتخرج من بين صفوف الجامعيين اليوم.. ولذا كان حرص الحركة الإسلامية الواعية على دفع الشباب المسلم إلى التفوق الدراسى لإعداد كوادر الدولة الإسلامية التى لاحت بشائرها فى الأفق ».

وبعد أن عرض عصام الدين العريان تصوره عن تطور المجتمعات المسلمة، انتقل إلى تقديم سيميولوچيا semiologa الإسلاميين لقراءه : إذن أن هناك أربع ظواهر تدل على درجة تطور الحركة. أولها، ارتداء الحجاب : « حيث استجابت جموع غفيرة من الطالبات المسلمات لنداء الإيمان والتزمن بالحجاب

٭ هناك أخطاء عديدة وقع فيها المؤلف فى ترجمته لهذه المقالة التى نشرت بعدد نوفمبر ١٩٨٠ من مجلة الدعوة بعنوان : « المد الإسلامى فى الجامعات فى القرن الرابع عشر » (المترجم).

وهذا يمثل قمة التحدى للحضارة الغربية المتحللة و بداية الالتزام * بالإسلام .. » . والظاهرة الثانية هى مايقابل ارتداء الحجاب عند الرجال : أى إطلاق اللحية وارتداء الجلباب . والظاهرة الثالثة هى الزواج المبكر ، والرابعة هى صلاة العيدين فى الخلاء .

وعند مشاهدة هذه العلامات الأربع ، يدرك المرأ أن حركة الإسلاميين قد كونت ، الجماعات الإسلامية ، التى تمثل « طليعة الأمة » . ويمكن تلخيص أهدافها فى شعار واحد : « فعل الخير العام » . وهذا يعنى تكريس طاقاتها اليومية لبعث الأمة الإسلامية ، و يشتمل هذا على مهام عديدة مثل توزيع المنشورات ، وتنظيم المؤتمرات ، وعقد المعسكرات الإسلامية .. إلخ .

لكن الطريق ملىء بعقبات كثيرة ، « تأتى بعضها من خارج الشباب » : مثل « التناقض بين عقيدة مستكنة فى ضمائر المسلمين و بين أنظمة تتحكم فيها بالبطش والإرهاب .. هيئة التدريس والمناهج الدراسية .. الأهل والأقارب والخوف من بطش السلطات » . ومع هذا ، يجب أن نعلم تماما ، أن أخطر العقبات « نابعة من الشباب أنفسهم » .

ويجب التميز ، فى إطار العقبات النابعة من الشباب ، بين المشاكل التى تنشأ من عدم فهم التصورات الإسلامية ، و بين المشاكل التى تنجم عن تطبيق هذه التصورات . فبعض الشباب ، على سبيل المثال ، يفهم الإسلام فهما جزئيا ضيقا فلايفهم شمولية الإسلام مما يجعله يتصور أن الإسلام صلاة وزكاة وصوم وحج فقط وأنه لادخل له بالحكم والقضاء والحرب والاقتصاد . وهناك من يفهم الإسلام بشموله ولكنه يركز على الجزئيات والفرعيات و يترك عظائم الأمور وكليات الإسلام . بحيث ينغلق فى هذه الجزئيات ويختلف عليها مع إخوانه .. وهناك شباب مخلص سلك سبيل القراءة والاطلاع ثم بعد قراءة بعض الكتيبات ومعرفة بعض المسائل الفقهية إذا به يتصور نفسه فقيها عالما محدثا و يبدأ فى سلسلة خطرة

---

* يقصد المجاهدون الإسلاميون بالالتزام أن يلتزم المسلم بكل الواجبات التى كلفه بها الدين . فالمسلم الذى يؤدى هذه الواجبات يصبح ملتزما ، وهذا بدوره يجعله مؤهلا لتلقى رسالة الإسلاميين .

من الفتيا والاجتهاد والتصحيح والتضعيف للأحاديث ويحتقر أهل العلم سواء من المحدثين أو من الأقدمين . ثم هناك من الشباب من يسيطر على ذهنه فكرة العنف والقوة .

ذلك هو الطريق ، وتلك كانت العقبات التى ستواجه الإسلاميين على طوله . وفضلا عما سبق ، لاحظ أن مجاهد الجماعات الإسلامية فور أن يحصل على الدرجة العلمية و يترك الجماعة ، يتحول تحت الضغط الاجتماعى الواقع عليه ، إلى مسلم كسول ينس أن الدولة المسلمة لن تقوم إلا من خلال الدعوة الإسلامية . وفى مواجهة كل هذه العقبات ، لم يجد عصام الدين العريان مايفعله سوى أن يطلب العون من الله .

و بعد قراءة هذه الرؤية الإسلامية للعالم من أولها إلى آخرها ، الماضى والحاضر ، يتعجب المرء من القراءات والصيغ المتنوعة التى أثرت على المؤلف ، لأن مفرداته يبدو أنها تتقابل مع مفردات اليوتوبيا الاجتماعية التى تتسلح بالديالكتيك وأنا هنا لاأحاول الإيحاء بأن الطبيب الشاب ماركسى متنكر ، ولا بأن مراحله الثلاث تتطابق مع اللحظات الثلاث للمادية الديالكتيكية ، ولا طليعة الأمة مع الحزب الثورى ، ولاأن رأيه حول الاستقلال المجهض يتقابل مع الكولونيالية الجديدة ، ولاأن « العقبات النابعة من الشباب أنفسهم » تقابل الاغتراب . و ببساطة ، فإن المؤلف قد تبنى ــ بدرجة إدراك يستحيل تحديدها ــ مثل العدل الاجتماعى ، والتحرر من النفوذ الأجنبى ، والتطلع إلى الديموقراطية والتغيير والتى يشاركه فيها النصف مليون طالب مصرى والتى سبق أن عبرت عنها ــ توقف هذا على الفترة ، وعلى الأنماط الأيديولوجية السائدة ، وعلى قدرة هذه الجماعة أو تلك على صياغة هذه المثل حينئذ ــ صياغات ماركسية ، و بعثية ، واشتراكية عربية ، وليبرالية . والدلالة الرئيسية لتبنى عصام الدين العريان لهذه المثل هى إثبات أن الجماعات الإسلامية كانت هى التيار الذى استغل ــ فى مصر السادات فى أواخر السبعينات ــ بنجاح منطقة اليوتوبيا الاجتماعية ، وألحقت برسالتها الخاصة كل رسالات التيارات المعارضة الأخرى للنظام القائم ، وأخضعتها للمشروع الأساسى للجماعات .

ويظهر هذا النص أن الجماعات كانت الوريث الفكرى لسيد قطب . غير أن مجلة التلمسانى فى نهاية ١٩٨٠ كانت تبذل قصارى جهدها لتتجنب ذكر إسم سيد قطب سوى فيما ندر، ومنذ عام ونصف قال التلمسانى إن سيد قطب لم يمثل سوى نفسه ، ولم يمثل الإخوان المسلمين على الإطلاق .

لكن اسم قطب برز بشكل منتظم فى كتيبات الجماعات التذكارية وفى نشراتها الإخبارية التى توزع على الاعضاء ، وطالب المجاهدون الشبان بإحياء ذكراه ، بينما ذهب كتاب المرشد العام السابق ، حسن الهضيبى ، الذى كرسه لتأسيس خط معتدل فى مواجهة راديكالية قطب ، فى طى النسيان . وعلى سبيل المثال ، فقد ظهرت مقالة فى العدد الرابع من المجلة الشهرية لجماعات الإسكندرية بعنوان ، « فكرنا » ، تضمنت الفقرات التالية ، وهى عبارة عن خليط من مقتطفات من « معالم فى الطريق » . « عندما نقول إن لنا فكرنا ، فإننا لانطرح ، بالطبع ، بديلا عن الإسلام ... لكن هذا الفكر هو فهمنا له ، هو طريق تحقيق الإسلام فى أنفسنا وفى الأرض .. » . كما أن الجماعات تمسكت بتصورات معينة مثل ، « لا إله إلا الله » ، « الربوبية لله وحده » ، و « لا عبودية ولا طاعة لسواه » ، و « الحاكمية والشرع لله ــ الذى لا شريك له » ، و « التوحيد فى الإسلام يعنى التحرر من كل ما هو فاسد فى الفكر... ومن العبودية التى زيفتها الدكتاتورية والمحتكرون ، والتوحيد يعنى أيضا ، تحرر الروح من كل ما هو موروث وتقليدى ، مثل العادات والتقاليد » .

● خطر الأقباط :

بعد الخطاب المعادى للإسلاميين الذى ألقاه السادات فى أسيوط فى ربيع عام ١٩٧٩ ، وبعد الإجراءات التى اتخذها النظام لإرهاب الإسلاميين ، سعى الإسلاميون قبل أى شيء آخر لإعادة ترسيخ ما اعتبروه الحقيقة وسط الرأى العام . فقد اتهموا بالعنف ، وتعمدت الحكومة الخلط بينهم وبين جماعة شكرى مصطفى . وكان ردهم على هذا الاتهام : « لقد شجبنا دائما هذه الجماعة ونحن لانوافق على اغتيال الذهبى » .

وعادت « الدعوة » للظهور فى يونيو ١٩٧٩ بعد أن صادر السادات العدد

السابق منها ، ولم يتخذ النظام إجراءات جديدة تتعلق بالجامعات بعد أن حل الاتحاد العام لطلاب الجمهورية . فهل شعر السادات بأن مافعله كان فيه الكفاية ، أم أن أحدا قد استحثه على التهادن مع الإسلاميين ، وبشكل خاص مع المعتدلين الذين تمثلهم مجلة الدعوة ، والذى كانت تربطه ببعضهم علاقات وثيقة ؟ ومهما كانت الإجابة ، فإن النتيجة المباشرة كانت تجذير الحركة radicalization ، وبشكل خاص التحول النسبى لأصدقاء التلمسانى لصالح العناصر الأكثر كفاحية . ومن هنا اشتمل باب « أخبار الشباب والجامعات » بالدعوة ، فى هذا الوقت ، على « وصايا وتحذيرات » كتبها مصطفى مشهور ، الذى كان يحذر « الشباب المسلم » من « التصرفات الانفعالية ، التى يستدرجنا إليها أعدائنا ، ومن الصراعات الجانبية التى لا تضيع إلا وقتنا » . وحثهم على « أن يسترشدوا بهؤلاء الذين سبقوهم على الطريق ، وأن يبدأوا حيث انتهى أسلافهم بدلا من الانطلاق مرة أخرى من نفس نقطة البداية » . لكن صيحات الاعتدال هذه ذهبت أدراج الرياح ، وأصبح الجو العام لحرم الجامعات متوتراً للغاية . وفى ٢٤ مارس ١٩٨٠ حاصر عدة مئات من أعضاء الجماعات مكتب عميد كلية العلوم فى الاسكندرية . ودخل إليه عشرة منهم ، واستبقوه لمدة ثلاث ساعات ، وقدموا إليه إنذارا من أربع نقاط طالبوه فيها بما يلى : بألايكون هناك أى مهرجانات أوعروض سينمائية بالكلية ، وألا يقدم أعضاء الجماعات لمجالس تأديب ، وبأن تنظم الكلية « لقاءات إسلامية » ، وبأن تزال جميع العراقيل التى تعوق ترشيح الطلاب الإسلاميين لاتحادات الطلاب .

ورغم أن العامين الدراسيين ١٩٧٩/ ٨٠ و١٩٨٠/ ٨١ قد شهدا أحداث متكررة وأعمال فدائية commando actions، تورطت فيها الجماعات و« المنحرفون » فى جامعتى الصعيد ، المنيا وأسيوط ، إلا أن التوتر تبلور بشكل أساسى حول المسألة الطائفية .

ويعد حجم الطائفة القبطية فى المحافظات الثلاث ، فى المنيا ، وأسيوط ، وسوهاج أكبر من حجم المعدل القومى الذى يبلغ ٦,٣١ ٪ من إجمالى السكان ، إذ وصل إلى ١٩,٤ ٪ ، و٢٠ ٪ ، و١٤,٦ على التوالى ، وفقا لآخر إحصاء رسمى للسكان (١٩٧٦) والذى تعرض لمناقشات ساخنة . ولكى نفهم تهمة

«الاستكبار» التى وجهها الإسلاميون إلى المسيحيين ، يجب علينا أن نعود إلى الوراء حتى منتصف القرن التاسع عشر. حينما كانت الطائفة القبطية تعانى فى ذلك الوقت من الضعف : حيث حرمت من تراثها الثقافى ، وانحصرت فى الريف ، ولم يكن لهم سوى عدة كنائس ، مما أدى إلى التفاف الأقباط حول رجال دينهم وقد تملكهم القلق من تكرار الإشارات والكلمات الشعائرية ومنذ عام ١٨٧٥ تقريبا فصاعدا ، وكنتيجة للتعليم الذى تلقته فى مدارس الإرساليات بشكل أساسى ، بدأت نخبة قبطية فى استيعاب الثقافة الغربية الحديثة مما مكنها من اكتساب وزن هام فى قطاع الخدمات العامة ، والتجارة ، والمهن الحرة ، إلخ . وكانت هذه النخبة ذات عقلية علمانية وقد عارضت البطريرك ، واعتبرته يمثل التخلف والظلام ، فى محاولة للوصول إلى قيادة الطائفة . حيث سعى المجلس الملى ، وهو هيئة تتكون من أشراف الأقباط ، بشكل دائم لدعم النظام (الذى كان البرجوازيون الأقباط ممثلين فيه بثقل واضح إبان الثلاثينات ، من خلال مشاركتهم الجماهيرية فى حزب الوفد ، بينما كانت قاعدة البطريرك بشكل تقليدى الجماهير الفلاحية . لكن تأميمات نظام عبدالناصر ، التى دمرت البرجوازية القبطية العلمانية وأجبرت عدد كبيرمن أفرادها على النفى الاختيارى ، رجحت كفة الميزان لصالح الكنيسة . هذا ورغم أن الكنيسة تمتعت الآن بسيطرة واضحة على الطائفة ، ورغم أن نسبة السكان الأقباط كانت فى تزايد سريع ، إلا أن أيديولوچية الناصرية التى كانت تدعو للقومية العربية أغرقتهم فى عالم لا يشكلون فيه سوى كم مهمل . لكن ونظراً لأن الأجيال الشابة من الأقباط أصبحت تعانى من نفس التوترات الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والسياسية التى يعانى منها كل المصريين ، فقد أظهرت مؤخرا ميلا للعودة إلى الكنيسة ، تماما مثلما اتجه الشباب المسلم إلى المساجد أوإلى أنشطة الإسلاميين . وحتى أماكن الأديرة القبطية التى انبعث فيها النشاط من جديد كانت ذات قيمة رمزية لاتختلف كثيرا عن الأماكن التى اختارتها جماعة المسلمين بقيادة شكرى مصطفى لهجرتها . فقد شهدت أبرشيات الصعيد انبعاثا للتفاخر الطائفى وللتعاطف المسيحى ، بينما ظل رجال الاكليروس فى الظل ، عاجزين عن الإجابة على الأسئلة التى تقلق الشباب : إذ أصبح التنوير الفكرى محصورا داخل الأديرة ، عاجزا عن الوصول إلى أبرشيات الوادى .

ومع هذا، فقد جاء مطلب الهوية الثقافية القبطية، ردا مباشرا على الفكرة السائدة عند الجماعات الاسلامية، وعند العديد من المسلمين الآخرين. فمن وجهة نظرهم، يظل أهل الكتاب (المسيحيون واليهود) متمتعين فى سلام بمنزلة (الذميين) حتى يجيء اليوم الذى يخترق فيه نور الرسالة الإسلامية قلوبهم ويصبحوا مسلمين. وليس لهم أن يتباهوا برفضهم لهذا التصور.

ووفقاً لرؤية الإسلاميين للعالم، فإن الذميين دافعى الجزية يتمتعون بسعادة يحسدون عليها مقارنة بالوضع «المرعب» الذى تعرض له المسلمون فى البلدان المسيحية. وعلاوة على ذلك، تقول الجماعات الإسلامية أيضا إن الأقباط، إذا كانوا مخلصين، عليهم أن يتطلعوا إلى الدولة المسلمة، حيث يعرفون جيدا أن الحكومة هى الضامن للعدل والسعادة، تماما كما جاء فى القرآن. وللأسف، فإن هذه العمليات قد تم التجهيز لها فى الخارج كجزء من المؤامرة العالمية ضد الإسلام: فهذا هو التبشير المسيحى طليعة الصليبية. والصليبيون ـــ الكلمة تستخدم هنا للإشارة إلى مسيحى الغرب وإلى المارونيين اللبنانيين ـــ يقودون الأقباط إلى الضلال، ويحرضونهم على رفض وضعهم كذميين، وأن يعملوا على نشر عقيدتهم، ويحرضونهم على بناء الكنائس الجديدة، لكى يستثيروا حفيظة المسلمين. وواجب كل المسلمين الصالحين أن يقفوا فى وجه هذه المشاريع الآثمة. وهذا ماحاولت جماعات المنيا أن تقوم به فى ربيع عام ١٩٨٠.

اندلعت الأحداث فى المنيا، مع بزوغ الزهور الحمراء فى أوائل الربيع الذى شهد دورة عنف جديدة، ومع تقديم الياهو بن إليسار، أول سفير إسرائيلى فى مصر، أوراق اعتماده للسادات، ومع منح شاه إيران الأسبق حق اللجوء السياسى فى مصر. ففى مارس بدأت الجماعات بتنظيم اجتماعات عامة للنهى عن هذا المنكر. أعادت فيها إلى الأذهان «فتوى الأزهر عام ١٩٦٥ التى حرمت السلام مع إسرائيل»، وطالبت بالثأر من الإسرائيليين الذين يأتون إلى مصر ومن الذين يتعاملون معهم، وفى نفس الوقت، أقيمت المؤتمرات للتشهير بوصول الشاه السابق. وفى ٢٦ مارس، منعت السلطات أحد هذه الاجتماعات، والذى كان من المقرر عقده فى جامعة القاهرة، إلا أن مؤتمرا آخر أقيم فى أسيوط وانتهى بمظاهرة

جابت أنحاء المدينة . وفتح الأمن المركزى النار على المتظاهرين ، وانتهت المظاهرة بقتيل ، وستة مصابين بإصابات بالغة ، وبإلقاء القبض على ستين متظاهرا .

وفى هذا الجو البالغ الخطورة نشب توتر مفاجىء بين السادات وبين بابا الأقباط ، شنودة الثالث . وفى الحادى عشر من إبريل عاد السادات من زيارة رسمية كان يقوم بها للولايات المتحدة والتى نشرت خلالها الصحف الأمريكية على صفحات كاملة إعلانات بقلم مهاجرين أقباط تدين « اضطهاد المسيحيين فى مصر » . وقد اعتبر السادات هذه الحملة الصحفية محاولة لإحراجه فى اجتماعات مع القادة الأمريكيين ، حيث وصفته بأنه سجين لما يسمى فى الولايات المتحدة « الأصولية الإسلامية » . وعقب عودته إلى مصر ، سجل السادات غضبه علانية على رجال الكنيسة القبطية ، وبشكل خاص قائدهم ، البابا شنودة . ووصلت العلاقة بين الرجلين إلى أسوأ درجاتها عندما رفض السادات ، بعد أحداث الفتنة الطائفية فى الزاوية الحمراء فى يونيو ١٩٨١ ، الاعتراف بالبابا شنودة كمتحدث رسمي عن الطائفة ، وهكذا جرده فعليا من منصبه . وكانت الكنيسة القبطية قد أظهرت معارضتها للنظام منذ ربيع عام ١٩٨٠ ، بمقاطعتها للاحتفالات الرسمية : فلم تتم مراسم الاحتفال بعيد القيامة ، ولم تحضر شخصية رفيعة واحدة من الكنيسة القبطية إلى المطار للترحيب بالسادات عند عودته من الولايات المتحدة .

وفى غضون هذا الوقت نشبت الأحداث فى مدينة المنيا وضواحيها ، واشتملت على صدامات بين أفراد من كلا الطائفتين المسلمة والمسيحية وأسفرت عن عدد من القتلى . ووزعت الجماعات الإسلامية فى مصر الوسطى منشورا صورت فيه سردها للأحداث :

« الجماعات الإسلامية . بسم الله الرحمن الرحيم . أليس الله بكاف عبده (سورة الزمر ، آية ٣٦) » .

« اشتباك المنيا وأسيوط بين النصارى* ووزارة الداخلية »

---

* هذه هى تسمية المسيحيين فى النصوص الإسلامية .

« الإخوة المسلمون :

« فى نفس الوقت الذى أعلن فيه شنودة أن المسيحيين لن يقيموا مراسم احتفالاتهم بعيدهم ، ورفض أن يستقبل الرئيس فى المطار، أرسل الأنبا صموئيل (عضو الهيئة الكهنوتية فى الكنيسة ، الذى كان جالسا بجوار السادات فى ٦أكتوبر ١٩٨١ ولقى مصرعه معه) إلى أميركا حاملا تعليماته للنصارى هناك لكى يتظاهروا و يوزعوا المنشورات ضد الرئيس ، وفى نفس الوقت أمر شنودة النصارى فى مصر بحمل السلاح ومهاجمة المسلمين . وهكذا قامت عصابة من نصارى المنيا بطعن اثنين من المسلمين فى الظهر بينما كانا فى طريقهما إلى المسجد . وعندئذ تجمعت عائلتا الضحيتين وطالبتا المجرمين ، الذين تصرفوا وفقا لأوامر الكنيسة ، بالدية . ولكن العائلتين لم تتوقعا أبدا خروج النصارى عليهم بأسلحة غير مرخصة من أسلحة آلية ونصف آليه . وأطلقوا عليهم النار من فوق أسطح المنازل ، فقتلوا أحد المسلمين وأصابوا آخرين ، بينهم نساء وأطفال يرقدون الآن فى مستشفى المنيا العامة » .

« وتدخلت الشرطة ، وواجهت « ميليشيا النصارى » ، وضبطت الأسلحة ، وقبضت على « المجرمين » . وفى اليوم التالى ، صادر البوليس « سيارة نقل محملة بالأسلحة فى طريقها للمسيحيين » . وفى النهاية ، جرد « نصارى » آخرون من سلاحهم . و بينما يمر المسلمون بهذه المحنة ، « أخبرتنا السلطات بأن كل هذه الأحداث من تدبير الكنيسة لكى تدعم موقف شنوده فى الخارج ولكى تحصل على امتيازات من الحكومة . وهكذا طلب وزير الداخلية بالفعل من الأخ حلمى الجزار، أمير الجماعات الإسلامية فى مصر « أن يطلب من الجماعات تهدئة الأسرتين ، فى مقابل أن تطلق الوزارة سراح المسلمين الذين قبض عليهم من المساجد ، التى اتخذوها ملجأ يحتمون به من هجمات النصارى » . وقد تعرض هؤلاء المسلمون أثناء حبسهم لـ « تعذيب وحشى » : « حيث جوعوا ومنعت عنهم المياه » لمدة يومين ، وحلقت لحاهم ، إلخ . فقامت أسرهم بمحاصرة قسم البوليس المحبوسين فيه ، وأشعلت فيه النيران . لكن وساطة حلمى الجزار وأمير الجماعات فى المنيا ، محيى الدين ، أعادت الهدوء إلى المدينة ، وأطلق سراح أول مجموعة من المسلمين فى ليلة ١١ إبريل . كان ذلك اليوم هو يوم عودة السادات من الولايات

المتحدة ، « ونحن نعرف أى نوع من الترحيب ذلك الذى قدمه له النصارى من المهاجرين المصريين » . ثم تتابعت الأحداث التى لا يفهمها إلا الله : حيث ألقى القبض على محيى الدين ، وتعرضت جماعات المنيا وأسيوط للاضطهاد ، وأعلن عن تأجيل الدراسة فى الجامعة ، إلخ . فلماذا حدث كل هذا عقب عودته من البيت الأبيض ؟ هل كان هذا نتيجة ضغط الصليبيين الأمريكيين لضرب الحركة الإسلامية فى مصر ، والذى صورته وثيقة ريتشارد ؟ .

وهذه إشارة واضحة للوثيقة التى نسبت إلى المستشرق الأمريكى رتيشارد ب . ميتشل من خلال مجلة الدعوة . (يشير المناضلون الإسلاميون لميتشل باسمه الأول ، على الطريقة العربية ، التى تزيد من صعوبة تعرفنا عليه) فإلى أى مدى سيذهبون ؟ . إن النصارى السفاحين أثناء هجومهم ، أظهروا السلاح الذى جلبوه من المحافظ النصرانى لجنوب سيناء (المحافظ المذكور كان هو المسيحى الوحيد الذى يشغل هذا المنصب ، وقد أقيل بعد ذلك) ، بينما كان السجن نصيب المسلمين .

ويقدم لنا هذا النص ، سواء قرأناه كما هو أو دققنا فيه ، لمحة للكيفية التى صاغت بها الجماعات الإسلامية سواء علاقاتها الطائفية أو علاقتها الخاصة بالدولة .. فكل شىء قد بدأ مع مهاجمة بعض الفلاحين ، المسيحيين فى هذه الواقعة ، بعض الفلاحين المسلمين . فحاولت عائلات الضحايا الأخذ بالثأر ، لكن المسيحيين جيدى التسليح تصدوا للمسلمين . وهذا مشهد نموذجى ودقيق للانتقام فى صعيد مصر ، باستثناء أن المسيحيين فى هذه المرة لم يتبعوا القواعد المتعارف عليها . فبدلا من الرد على بنادق الصيد فى أيدى مهاجميهم بأسلحة على نفس المستوى ، بما يسمح بقتيل أو جريح فى كل جانب ، اتضح أن لدى المسيحيين ، ولدهشة المسلمين البالغة ، أسلحة ثقيلة . وبالتالى فقد تغيرت الرموز . فبدلا من أن يكون ماحدث مجرد صراعا تقليديا على تعيين الحدود بين الحقول ، أو بسبب ادعاء أحدهم أن البعض قد سحر لبقرته كى ينضب لبنها ، أصبحت الحادثة مأساة قومية ذات أهمية دولية . وبعد أن تفوق الفلاحون الأقباط لأول مرة فى صدام مسلح ، صاروا تلقائيا نصارى مستكبرين يهاجمون الإسلام .

ووفقا لكل الاحتمالات ، كان هذا سبب تدخل الجماعات الإسلامية ، وإن لم يقل المنشور هذا . وبعد ذلك وصلت الشرطة وألقت القبض على أشخاص الجانبين . وبدلا من أن يهدىء هذا من الوضع العام ، أثار تدخل الشرطة ردود أفعال جديدة من كل طائفة ضد الأخرى ، ومنهما معا ضد الدولة . وأحاطت عائلات « المسلمين » المقبوض عليهم ، والتى كان من ضمنها بلاشك مجاهدين إسلاميين ، بأقسام الشرطة . أما التشديد على الادعاء بأن الشرطة قد عذبت المسلمين بقص لحاهم فيعنى أن الضحايا لم يكونوا من الفلاحين البسطاء ، ذوى الذقون الحليقة . ووصل الوضع إلى حد خروجه عن سيطرة رجال الشرطة مما دفع النبوى إسماعيل ، وزير الداخلية فى القاهرة ، إلى عقد صفقة مع قائد الجماعات يتم وفقها فك الحصار الذى فرضته قوات الجماعات على قسم الشرطة مقابل الإفراج عن الإسلاميين المقبوض عليهم . ونفذ القائد المحلى للجماعات مايخصه من هذه الصفقة ، وفى مساء الجمعة ، ١١ إبريل ، أطلق سراح المسجونين وساد الهدوء المدينة .

إلا أن السادات ، فور عودته من الولايات المتحدة ، أمر بالقبض على مجاهدى الجماعات فى المنيا وأسيوط ، وأوقف الدراسة بالجامعتين ، وتنصل من اتفاق وزير داخليته .

لايقدم منشور الجماعات سلسلة من الأحداث المترابطة فحسب ، لكنه يقدم أيضا تفسيره لها ـــ فعقب كل انعطافة جديدة للأحداث ، يثبت أحدهم أنها مرحلة من مراحل المؤامرة ضد الإسلام التى يقوم بتنفيذها نصارى مصر وفقا **لأوامر قادة الكنيسة ، التى تتبع بدورها تعليمات الصليبيين التى أوضحتها وثيقة ريتشارد .**

وقبل أن يسرد المنشور الحدث ، يضعه فى سياق التوتر بين النظام والكنيسة : فشنودة يحرض الدولة ورئيسها ، ليس فقط من خلال الحملة التى شنها فى الولايات المتحدة ، لكن أيضا من خلال أوامره للفلاحين الأقباط بالتمرد . أما المسلمون الذين هوجموا فقد كانوا يطعنون من الخلف بينما هم فى طريقهم للمسجد . بما يوضح غدر الأقباط ونيتهم المبيتة لمهاجمة المسلمين دون استثناء ،

حيث أن الضحيتين كانا فى طريقهما إلى دار العبادة . وهذه التفصيلات فى غاية الأهمية : إذ هى تهدف إلى منع القراء من استنتاج أن ماحدث كان مجرد خلافات عائلية . وفى واقع الأمر، فإن المنشور يذهب إلى أبعد من هذا فى الجملة التى تلت ذلك مباشرة والتى تشير إلى أن « المجرمين كانوا ينفذون أوامر الكنيسة » .

وهناك دليل آخر على أن هناك مؤامرة يجرى تنفيذها ، إذ أن النصارى ، وفقا للمنشور، قد جلبوا « أسلحة غير مرخصة » استطاعوا بها أن يجبروا « عائلات الضحايا » على أن « تفر من أمامهم » وهى التى جاءت بكامل رضاها تطلب دية القتيلين . و يصعب تصديق هذا الادعاء من جانب أى شخص يعرف أقل القليل عن قرى وادى النيل . فبسبب انتعاش تجارة تهريب السلاح ، أصبح لكل عزبة ترسانة السلاح الخاصة بها ، وتتم مصادرتها بين كل حين وآخر من خلال حملة عسكرية يجردها المحافظ . لكن الهدف الأساسى هنا أيضا كان إظهار المسلمين ، رغم مطالبتهم بالثأر، وهم يقفون فى صف القانون ، بينما الأقباط هم الخارجون عليه .

ويخلص المنشور إلى استنتاج ، فى صورة بلاغية واضحة ، أن السادات من خلال تلقيه الأوامر من البيت الأبيض ، إنما ينفذ تعليمات « وثيقة ر يتشارد » وأن موظفا على مستو عال ، وهو المحافظ المسيحى لجنوب سيناء ، يزود إخوته فى الدين بالأسلحة الآلية .

و ينثنى منشور الجماعات الإسلامية ، بعد أن هاجم بعنف الكنيسة القبطية ، ليتهم الدولة تحت رئاسة السادات ، بأنها ، و بغض النظر عن عجزها حتى عن تطبيق قانونها الوضعى للحفاظ على أمن المجتمع (طالما أن الجماعات ، كما تدعى ، هى التى استطاعت أن تستعيد الهدوء) ، قد أصبحت متميزة : فالبيت الأبيض يملى على السادات تصرفاته . وقمة الجهاز الإدارى تضم مسيحيين هدفهم الوحيد ذبح المسلمين .

إن ماتشير إليه هذه الوثيقة بشكل خاص يستحق منا بعض التعليقات . أولاً ، تقدم لنا هذه الوثيقة صورة لقاعدة الجماعات فى الصعيد . فالطلبة « الإسلاميون » فى المنيا أبناء « عائلات » فلاحيه ومستعدون للتدخل فى صراعاتها . و يستطيعون

تدبير السلاح من مخازن هذه العائلات ، وقادرون على تحويل العنف التقليدى الذى يصاحب عملية الثأر إلى عنف سياسى ضد الدولة ، وفى الحالة السابقة تمثل ذلك فى حصار قسم الشرطة . وكان النجاح فى تحييد هذه المؤسسة الهامة فى الدولة فى مدينة كبيرة مثل المنيا فى ربيع ١٩٨٠ ، بتأييد أو بمشاركة جزء من السكان ، بمثابة تدريبا نهائيا على تطويق مدينة أسيوط لأربعة أيام على يد جماعة الجهاد فور اغتيال السادات ، إلى أن وصل صفوة المظليين المصريين إلى المدينة وأنهوا هذا التمرد .

وعلاوة على ذلك — ومن الملفت للنظر أيضا أن يحدث هذا فى بداية عام ١٩٨٠ — لم تتردد الجماعات الإسلامية فى التلويح بنيران التوتر الطائفى لكى تضع الدولة فى مثل هذا الموقف الحرج ، ولكى تظهر استعدادها لتدعيمها ، كخطوة أولى من أجل كسر هذه الدولة . ونفس التكتيك استخدم فيما بعد ، فى يونيو ١٩٨١ ، فى ضاحية من ضواحى القاهرة ، فى الزاوية الحمراء .

وفى النهاية ، نلحظ كذلك أن هناك ثلاثة متصارعين فى حلبة المواجهة الطائفية : فبالإضافة إلى الطائفتين المسيحية والمسلمة ، تدخل الدولة أيضا طرفا فى هذه الحلبة . و يتحدى الإسلاميون الدولة لأنها ، و بغض النظر عن عدم وضعها للمسيحيين فى وضعهم الصحيح كذميين ، تستخدمهم لاضطهاد المسلمين وتحتفظ بهم كقوات إضافية لأعمالها التعسفية . وكانت تلك هى خلفية كل هذه الأحداث الطائفية ، حيث تلعب فيها الشخصيات الأدوار الخاصة بها كما وكأنها مقدمة مسرحية للصراع النهائى الذى نشب بين الجماعات والدولة ، فى يونيو ١٩٨١ .

● يونيو ١٩٨١ : مات الشاة* heeck mate

فى نوفمبر ١٩٧٩ أرسل مراسل صحيفة اللوموند الباريسية تقريراً لصحيفته حول صلاة الجماعة التى أقامتها الجماعات بمناسبة عيد الأضحى : « لم يعد الجيش هو القوة الوحيدة المنظمة فى مصر ، كما كان الوضع منذ ثورة ١٩٥٢ . فقد

* تعبير يستخدمه لاعب الشطرنج للإعلان عن حركة يقوم بها بقتل شاه الخصم (المترجم) .

أصبح الأصوليون الإسلاميون يمثلون قوة أخرى منظمة فى الساحة السياسية المصرية، على الرغم من انقسام صفوفهم».

وكانت الطريقة التى تعامل بها وزير الداخلية مع أحداث المنيا فى إبريل ١٩٨٠ خير ما يوضح صحة هذه الملاحظة أكثر بكثير من قيام الجماعات الإسلامية بتنظيم صلاة العيدين فى العامين الآخرين. وقد أصبح من المستحيل من الآن وصاعدا إلغاء وجودهم على «الساحة السياسية المصرية» بمجرد قرار، حيث أنهم الآن يسيطرون على قوة هائلة من المنتسبين إليهم فضلا عن تمتعهم بتأييد وتعاطف الجماهير الإسلامية. وبهجومها الانتحارى العلنى على النظام، الذى قد يواجه الاتهام بمعاداة الإسلام، سعت الجماعات لإقناع العديد من المصريين بأنها الممثل الإسلامى الشرعى لهم.

وبالتالى، ولكى يتمكن من تحطيم الجماعات، كان لزاما على النظام أن يعمل على تفتيت أواصر التضامن الإسلامى الذى وطدته الجماعات فى جميع أنحاء البلاد، وذلك من خلال اتهامهم بجريمة، بحيث يوازى الأثر الناتج عن التشهير بهم ذلك التضامن تلك الجريمة كانت تدمير الوحدة الوطنية، وهى بمثابة الاعتداء على جوهر «الكيـــان» المصرى كأمة من خلال إذكاء نيران الفتنة الطائفية.

إن أحداث الزاوية الحمراء تطرح، وبشكل دراماتيكى، هذا التساؤل. هل تعنى القومية المصرية شيئا بالنسبة للمسلمين المصريين، أم أنهم يدينون بالولاء الكامل للأمة الإسلامية، كما يعتقد الإسلاميون؟ وإذا كانت الدولة قد تمكنت من الانتصار على الجماعات، فإن هذا يعود لعجز الجماعات، رغم النمو الملحوظ لها، عن اقناع الجماهير المصرية المسلمة بالقتال إلى جانبها لنصرة الأمة الإسلامية. وقد كان هذا العامل أحد أسباب هزيمتهم، ويأتى فى الأهمية قبل التفاوت بين قوى النظام القمعية وقدرة الجماعات على المقاومة.

وفى هجومه على الجماعات وتصفية حسابه معها، اعتبر النظام الجماعات قوى طرد هدفها تدمير «القومية المصرية»، التى تقوم، وفقا لأسطورة قديمة أعاد السادات استخدامها، على التعايش المتجانس المشترك بين الأقباط والمسلمين.

وعندما وقع هجوم الدولة ، لم يكن هناك أى تعبيرات جماهيرية عن التضامن مع الإسلاميين من جانب المسلمين المصريين . وحتى يتحقق قدر من التوازن الطائفى فى القمع وبالتالى يتفادى النظام أى تضامن إسلامى محتمل ، وجه ضربات عنيفة للكنيسة القبطية ورجال الدين الأقباط ، الذين كانوا يمثلون قوة موازية للجماعات ، وليس للمؤسسة الرسمية ، أى الأزهر .

وقد كان وضع السادات فى منتصف ١٩٨١ غير مستقر على الإطلاق . فبعد أن اكتسب السادات شعبية كبيرة فى العام السابق بتوقيعه معاهدة السلام مع اسرائيل التى أنهت حالة الحرب التى أنهكت الجماهير واستمرت منذ بداية عهد عبدالناصر . لكن المكاسب التى حققها السادات من الاتفاقية اضمحلت مع الإهانات المتتالية . التى وجهتها له حكومة بيجين ، وكان أكثرها شدة إعلان القدس عاصمة موحدة للدولة اليهودية . كما ساهم عجز النظام عن التعامل مع المشكلات الداخلية فى التأكيد على هذا يوما بعد يوم .

وكان الرئيس ، الذى تعرض لتهديد حركة الإسلاميين (التى استغلت التحرر العام من الأوهام) ، ولانتقادات الكنيسة القبطية ، ولتشهير المفكرين فى صحف المعارضة القليلة ، معزولا أيضا على المستوى الشرق أوسطى ، وشعر بأن إدارة ريجان قد خذلته حيث لم تعد توليه نفس الامتيازات التى كان يتمتع بها فى ظل رئاسة كارتر . وكان السادات قد هرم أيضا . حيث تحولت عبقريته السياسية ، التى فاقت بمراحل قدرة خصومه ، الذى كان يوقع بينهم بسهولة ، إلى طاغية مستبد أسكره الإطراء المبالغ فيه الذى أغدقته عليه وسائل الإعلام الغربية . فأبدل مستشاريه السياسيين بحاشية من المنافقين ، والوصوليين ، ورجال الأمن . وكان النبوى إسماعيل ، وزير الداخلية ، على رأس جيش من المخبرين ، والفتوات ، وقوات مكافحة الشغب التى تزايد حجمها ونفوذها يوماً بعد يوم . وجسدت أحداث الزاوية الحمراء فى يونيو ١٩٨١ قمة مناخ الإثارة الذى ساد تلك الفترة .

ليس هناك معلومات واضحة عن سبب هذه الأحداث ، والروايات المتوفرة على درجة كبيرة من التناقض . قال البعض أنها قد بدأت بمشاجرة صغيرة بين

سيدتين من سكان الحى ، واحدة مسلمة والأخرى مسيحية ، وقال البعض أن مجاهدى الجماعات قد استولوا على قطعة أرض مملوكة لقبطى ليبنوا عليها مسجدا . ومهما كانت الحقيقة ، فقد نشبت معركة ضارية بين الطائفتين فى هذا الحى الفقير والمزدحم . وقد أشعل الموقف محرضون مجهولون ، وزاد من اشتعاله الصيف الحارق وانقطاع المياه عن المنطقة . فوقعت جرائم بشعة بين أناس طالما عاشوا سويا فى وئام : ذُبح رجال ونساء ، وألقى الأطفال من الشرفات ، بعد أن تعرضت أجسادهم للطعنات النافذة ، وكانت حوادث النهب والقتل وحرق المبانى فى كل مكان . وفى نفس الوقت انتشرت فى المدينة المنشورات التى تدعو كل طائفة إلى رفع السلاح . وفى النهاية سيطر البوليس على الموقف ، وجاء تدخله ، وفقا لكل الشهود ، بعد أن وقعت خسائر فادحة بالفعل .

وقد أتاح الرعب الذى اجتاح المدينة بفضل الشائعات التى أطلقها المتطرفون من الطرفين للنظام الفرصة التى طال انتظارها لتدمير أواصر التضامن مع الجماعات بين الجماهير المسلمة : فالجماعات اعتبرت مسئولة عن جرائم بشعة تم ارتكابها . وفى ٨ سبتمبر قدم مقال طويل فى جريدة الأهرام الرواية الرسمية للأحداث . وكانت الجماعات فى تلك الأثناء قد تعرضت للحل ، وطاردت الشرطة أعضائها فى جميع أنحاء البلاد . أما الصفحة الأولى للأهرام ، فقد حملت هذا العنوان الملفت للنظر « كشف مصدر المنشورات التى ساهمت فى إشعال الفتنته الطائفية » ، وتحت هذا العنوان أكدت الأهرام أن أحد الأعضاء المسيحيين فى هيئة تدريس إحدى الكليات « وقد أتم دراسته فى موسكو » دأب على إرسال الخطابات التى تهاجم الدين الإسلامى إلى الشخصيات البارزة باسم مستعار . وبعد أن يكتشف أمر أحد هذه الخطابات تقوم الجماعات الإسلامية بإعادة طبعه وتوزيعه على مستوى واسع مع تعليقات تحث المسلمين على مهاجمة المسيحيين . وهنا ، نقدم نص خطاب أرسله ، وفقا لرواية الأهرام فى عدد ٨ سبتمبر ، د . فؤاد جرجس ، الأستاذ الجامعى المعتقل ، والذى كان يعمل محاضرا بكلية الزراعة بجامعة القاهرة ، إلى إحدى الشخصيات الإسلامية .

« إن الدين الإسلامى الهزيل القائم على الجنس والنساء دين كله قتل وتخريب . دين هو سبب تخلف الشرق الأوسط وما حل به من كوارث ، هو سبب

التخلف الشنيع للبلاد الإسلامية . دين الضوضاء والإزعاج . دين الميكروفونات٭ ، والطبل والزمر والرقص فى الأوكار. دين السرقة والرشوة وخلو الرجل ومخالفة التسعيرة هذا هو المجتمع الإسلامى وتقولون الشريعة الإسلامية وأسيادكم الأقباط ينظرون إليكم بسخرية و يضحكون عليكم كلما رأوا شيخا يمشى يهز عمامته يمينا وشمالا كأنها من الأثقال التى تنوء رأسه عن حملها . ولكن هل يستمر الحال طويلا على بقاء هذا الدين التافه أعتقد أن العد التنازلى بعد توقيع كامب ديفيد قد بدأ لزوال الدين الإسلامى وعودة مصر المسيحية . فأنتم فى النهاية الخاسرون خسرتم الدنيا والآخرة .

وقد أعادت الجماعات الإسلامية فى جامعة الأزهر طباعة هذا المنشور، وأضافت إليه هذه التعليقات (هذا أيضا وفقا لعدد ٨ سبتمبر من الأهرام) :

« صورة من الخطاب المرسل من جهة صلبية إلى إحدى الشخصيات الإسلامية » ثم حمل المنشور الخطاب المرسل بالكامل وانتهى بتعليق للجماعات الإسلامية جاء به :

« و بعد لشباب الأزهر كلمة :

« قد بدت البغضاء من أفواهم وماتخفى صدورهم أكبر» « ولايزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا » « ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم »

« إليك أخى المسلم .. إلى النائمين ليستيقظوا .. إلى الغافلين لينتبهوا .. إلى الشاردين ليعودوا .. إلى المناضلين لينفروا .. إلينا جميعاً فأمر جد لا هزل فيه .. فهل نترك إسلامنا فى وجه المؤامرات » .

كما أعاد مقال الأهرام نشر نص منشور كتبه ، مجدى رجب وردة ، قائد إحدى الجماعات الإسلامية فى مدينة الإسكندرية :

٭ الإشارة هنا إلى صلاة الفجر، التى تذاع من ميكروفون كل يوم من الرابعة إلى السادسة ، حسب اختلاف الفصول .

« تحذير المسلمين من أعياد المشركين * .. اعلم يا أخى المسلم أن هذه الملة الحنيفية المطهرة قد أسست على مخالفة قانون المشركين فى الأصول والفروع ، وأن سلوك الصراط المستقيم يقتضى مخالفة صراط الكافرين أيا كانوا وأوضحهم اليهود (المغضوب عليهم) والنصارى (الضالون) .

« من تشبه بهم فهو منهم وقد أمرنا الله فى كتابه بمخالفة المشركين ونهانا عن التشبه بهم فيما هو من خصائصهم .. والأعياد من الشرائع والمناسك . وقد شرع الله لنا مخالفة اليهود والنصارى فى عيدهم الأسبوعى يومى السبت والأحد وفضلنا عليهم بعيد الجمعة وخصنا به .

« ومشاركة الكفار فى أعيادهم تنافى مقاصد الشريعة لأنها محدثة ومبتدعة فى دين الكفار وتقضى إلى موالاتهم وهى ذريعة إلى الكفر .

« إن التهاون فى القليل من هذه الأمور يجر إلى الكثير .. ولا يحل للمسلم أن يشارك النصارى فى احتفالهم بما يسمى شم النسيم » .

وشم النسيم هذا يوم عطلة الاثنين التالية لعيد القيامة القبطى . وهذا التاريخ يرجع إلى العصر الفرعونى و يرمز لبداية فصل الصيف . ويميز هذا اليوم أكل البيض المسلوق ، والبصل الأخضر ، والفسيخ (سمك مملح صغير الحجم) . وقد جرت العادة أن ترتحل العائلات المقيمة فى المدينة إلى الريف لشم النسيم . وجرت العادة أيضاً أن يتزاحم الناس فى افتراش المساحات الخضراء الضئيلة التى تنمو فى بعض ميادين القاهرة . وهذا العيد ، يحتفل به المسلمون والمسيحيون على السواء (رغم أن المسيحيين فى الأقطار النيلية هم الذين ابتدعوا ذلك التقويم الدينى) مما يجعل هذا اليوم رمزاً للوحدة الوطنية .

وفى النهاية ، ذكرت الأهرام أن تلك المنشورات قد جرى توزيعها فى جميع أنحاء مصر أثناء الاحتفال بعيد رأس السنة (المسيحى) وبشم النسيم .

---

* يسمى المسيحيون « مشركين » لأنهم آمنوا — « الثالوث » ، الأب ، والإبن ، والروح القدس . وهذا ما يعد من وجهة نظر المسلمين إشراك بالله .

ومن الجدير بالذكر أن وجهة النظر الرسمية فى أسباب الفتنة الطائفية ممثلة فى مقال الأهرام ، وإن حاولت الحفاظ على قدر من التوازن ، لم تحقق ما زفت إليه من خلال اتهامها من جهة لقبطى وتقديمها له على أنه (أتم دراسة فى « موسكو» ، رغم أن النص لم يحتوى على أى عناصر من عناصر الأيديولوچية السوفييتية) ، ومن جهة أخرى اتهامها للجماعات الإسلامية ، وليس لمسلم ، أوحتى لمجموعة من المسلمين ، التى اعتبرها النظام « متطرفة » و« متعصبة » . و بالتالى فإن مسئولية المسيحى ، الذى سبق خطابه منشور الجماعات ، باتت شيئا واضحا لكل القراء ، ولأنه لم يوصف فى أى جزء من المقال بأنه متطرف ، أو متعصب ، أوحتى بأنه معزول عن طائفته ، تصبح الإجراءات القمعية التى اتخذت ضد بابا الأقباط بصفة قائدا للطائفة عادلة تماما .

وقد تم استعراض موقف الجماعات فى موضعين . أولا كان هناك تعليقهم على خطاب فؤاد جرجس : فكان ذى نبرة هادئة نسبية ، وخط بعناية لإحداث صدى بوجدان القراء المسلمين الذين تعرض إيمانهم لهذه الإهانة ، ودعاهم للانضمام للجماعات « إلى الشاردين ليعودوا » قبل فوات الأوان . والمحاولة هنا لاعادة أواصر التضامن بين المسلمين ، تحت قيادة حركة الإسلاميين . والموضع الثانى كان منشور مجدى وردة ، الذى يجد الوحدة الإسلامية والشعور بالتضامن الإسلامى ، موجها مباشرة ضد المسيحيين ، وأيضا ضد الأمة المصرية ، ممثلة فى عيدها القومى ، شم النسيم .

ولم يكن هناك سبيل للتحقق من مصداقية هذه الوثائق ، أو للتعرف على مؤلفيها ، أو من انتماء مجدى وردة للجماعات الإسلامية . فالأهرام لم تقدم أجابة على أى جزء من هذه التساؤلات . لكن النقطة السياسية الأهم ليست فى صحة وجود هذه الوثائق الثلاث لكى فى اختيارها من بين عدد كبير منها وتقديمها بأسلوب سعى لتقديم النموذج الذى تريده الدولة للفتنة الطائفية .

و بعد الاعتقالات التى أعقبت حل الجماعات الإسلامية فى ٣ سبتمبر ١٩٨١ كان الأمر يبدو وكأن الحركة قد تحطمت . وتغير اتجاه الحياة فى حرم الجامعات :

فقد اختفت اللحى التى كا نت تمكن أجهزة الأمن من التعرف على الطلبة الإسلاميين، لكن ارتداء الحجاب، رغم أنه لم يعد يلقى التشجيع من « أسابيع الشباب الإسلامى »، لم يخرج عن النمط المألوف، المشاكل الاجتماعية والثقافية الدرامية التى قدمت للجماعات موضوعات ممتازة للتحريض فلم تزل قائمة: الإسكان، والمواصلات، وقاعات المحاضرات، والدروس الخصوصية، إلخ.

كان شيئا عاديا، حتى مقتل السادات، أن توجه حملات الإدانة والشجب ضد « التطرف » و« التعصب »، بينما لم يتسائل أحد عن الظروف التى أدت إلى نشوء هذه الظواهر، اللهم إلا الأكليشيهات الجاهزة عن « اغتراب الشباب »، أو الأسوأ من هذا، البحث عن « الأيدى الخفية »، أو عن « الزعامات السرية »، التى كان من الطبيعى أن تأتى من الاتحاد السوفييتى، الذى اعتبر سفيره فى مصر « شخص غير مرغوب فيه » فى سبتمبر. لكن ما إن قتل السادات، على يد أحد المجاهدين الإسلاميين، وما إن أخرج عن معظم هؤلاء الذين تعرضوا للاعتقال فى سبتمبر، بدأت تظهر لهجة أكثر انتقادا لسياسة السادات تجاه الجماعات الإسلامية. وأصبح النشر يتناول أمور كانت تناقش بشكل غير رسمى، ونشر مايشير إلى العلاقات التى كانت تربط النظام والجماعات فى بداية السبعينات. وكان أحد مظاهر هذا العصر، إقالة محمد عثمان اسماعيل، محافظ أسيوط، والأب الروحى للجماعات، من منصبه.

الفصل السادس

خطب الشيخ كشك

- طفولة الشيخ .
- خطبة الجمعة .

يشغل كل عنصر من عناصر حركة الإسلاميين التى تعرضنا لها بالبحث حتى الآن مجالا بعينه من مجالات النشاط . فقد انسحب شكرى وجماعته من العالم اليومى ولجأوا إلى عالمهم الخاص ، وأصدر الإخوان المسلمون الجدد مجلة أخذوا يشنون منها حملتهم على أعضاء مجلس الشعب ، وأصبح للجماعات الإسلامية جذورها داخل حرم الجامعات ، التى سعت الجماعات لتحويلها إلى قلاع إسلامية .

ومن ناحية أخرى ، كان حضور الشيخ كشك حضورا طاغيا . ففى السنوات الأخيرة من حكم السادات ، كان من المستحيل السير فى شوارع القاهرة دون سماع صوته الجهورى . فإذا ارتقيت إحدى سيارات الأجرة الجماعية فستجد السائق يستمع لإحدى خطب الشيخ كشك على جهاز الكاسيت الموجود بالسيارة . وإذا توقفت لتناول عصير الفاكهة على ناصية أحد الشوارع ، وبينما ترتشف الشفتان عصير القصب أو المانجو ، تنهمر على الأذنين عبارات آخر الخطب التى ألقاها الشيخ : تنبعث من جهاز التسجيل القديم الذى يمتلكه البائع ، بين وصلتين ، الأولى لكوكب الشرق ، أم كلثوم ، والثانية أغنية مشهورة لأحد المطربين الشعبيين . وإذا رجعت إلى منزلك ستسمع صوتا منبعث من الشارع

يطرق أذنيك بلغة القرآن الفصحى : فالبواب الذى يجلس على مقعده ، ليلا ونهارا ، يسمع لكشك .

إنهم يستمعون لكشك فى القاهرة ، وفى الدار البيضاء ، وفى حى المغاربة فى مارسيليا . حتى أن إحدى المجلات ذات التمويل السعودى أسمته « نجم الدعوة الإسلامية » . وقد كان له ، بالطبع ، لكشك مقلدوه ، ولكن لم يتوفر لأحدهم أحباله الصوتية التى لا تضاهى ، أو ثقافته الإسلامية الواسعة ، أو قدرته غير العادية على الارتجال ، أو روحه الجسور فى نقده للأنظمة الكافرة ، وللدكتاتورية العسكرية ، ولمعاهدة السلام مع إسرائيل ، ولتواطؤ الأزهر . أى أن كشك ، أعلى أصوات حركة الإسلاميين ، كان معارضاً .

وفى بلدان العالم الثالث ، حيث ماتزال أغلبية الجماهير عاجزة عن تحصيل الثقافة المكتوبة ، تصبح الأجهزة السمعية والبصرية أكثر وسائل الإعلام أهمية . وقد وعت الحكومات ذلك مبكرا : فكان من الطبيعى أن تستغل هذه الأجهزة بشكل منظم لتعزز من سلطتها ، ولتلقين الجماهير كيفية التفكير ، حتى فى أبعد المناطق النائية . لكن انتشار أجهزة الكاسيت خلال السبعينات ــ فكل من هاجر إلى شبه الجزيرة العربية كان يجلب معه عند عودته عدد من الأجهزة لأسرته ــ حول مسار هذا الخطاب . وأصبح الناس قادرين على اختيار الأشرطة التى يريدون سماعها ، وأصبح بإمكانهم استخدامها كترياق يتصدى للخطاب الرسمى . وقد كانت أشرطة الكاسيت التى استخدمها آية الله الخمينى ، على سبيل المثال ، هى العامل الحاسم فى الإطاحة بشاه إيران .

وفى مصر ، استغل الإسلام الرسمى وسائل الإعلام استغلالا واسعا . فمحطات التليفزيون والراديو تبدأ بتلاوة للقرآن وبشرح لبعض آياته ، ويتم هذا وفقا لقواعد التجويد ، والتجويد هو الطريقة الصحيحة لنطق القرآن وتنغيمه . وبعد ذلك يلجأ العلماء لموجات الأثير ليشرحوا للجماهير كيف أن آخر قرارات الحكومة تتفق تماما مع تعاليم القرآن . ومع ارتقاء السادات للسلطة ، اكتسبت البرامج الدينية فى التليفزيون أهمية كبيرة حتى أن داعية مثل الشيخ الشعراوى ظهر على شاشات التليفزيون أكثر مما ظهر الرئيس نفسه . حيث تتناول خطبه ، التى كانت تتمتع بشعبية كبيرة ويصوغها بمهارة فائقة ، بشكل صريح ودون

تخجل مشاكل الحياة اليومية العامة ، وتقدم حلول الإسلاميين لهذه المشاكل . لكن لم تشكل هذه الخطب التليفز يونية على الإطلاق أى تحد لشرعية النظام ، بل أن الشيخ الشعراوى نفسه تولى منصب وز ير الأوقاف فيما بعد .

أما الشيخ كشك فقد كان ، من ناحية أخرى ، ظاهرة مثيرة بالنسبة للإسلام المصرى المعاصر . وأكسبته بلاغته ، وقدرته على التحدث بلغة يفهمها العامة ، نجاحاً لا يستهان به . لكن ولأنه ذاق طعم المعتقلات الناصر ية فى مستهل حياته ، لم يضع موهبته فى خدمة الحكومة ، بل اعتبر نفسه رقيبا على التجاوزات والمواقف التى تتعارض مع الإسلام من وجهة نظره ، سواء كانت هذه التجاوزات أخلاقية أوعلى مستوى الحياة السياسية والاجتماعية . وقد كان النقد الذى يقدمه كشك يلقى شعبية كاسحة ، فهو ، أوكما اعتقد المعجون به ، لايخاف شيئا ، ولا يرهب أحداً . ومن ثم اعتبره البعض روبين هود المسلم الذى كان الآمر بالمعروف والنهى عن المنكر » بالنسبة له ليس مسألة مظهر وحسب ، بل قانون للحياة ذاتها . وهذا ماحقق له نجاحا متزايدا ، كما أن شعبيته التى اكتسحت العالم العربى بأكمله ، جعلته بعيدا عن متناول السلطة ، إلا فى فترات الأزمات الحادة ، وهى حالة الشهر الذى سبق اغتيال السادات .

● طفولة الشيخ :

ولد عبدالحميد كشك عام ١٩٣٣ فى شبراخيت ، إحدى قرى محافظة البحيرة فى الجزء الغربى من دلتا النيل ، بالقرب من الإسكندر ية . وانحدر من عائلة ذات أصول ر يفية ، وكان والده تاجرا متواضعا جدا ، وكان « رجل بسيط مبتسم دائما ، مهما كانت مصاعب الحياة » . وكان لعبدالحميد خمسة أشقاء بينهم فتاتين عندما توفى والده ، تاركاً أرملته التى كانت فى الخامسة والثلاثين مسئولة عن ستة أطفال ، لم يبلغ أصغرهم سن المدرسة . ورغم أن والدته كانت امرأة قرو ية بسيطة ، إلا أنها كانت مدركة تماما لمسئولياتها ، حيث أن والدها كان حر يصا على تربيتها تربية إسلامية حقة ، تلك التى مكنتها من أن تضرب المثل للنساء الأخر يات . وقد كانت ، وهى التى لم تكن تملك سوى أطفالها الستة ، تعرف

معنى الآية القرآنية التى تقول : « وليخش الذين لوتركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » .

ومتسلحة بهذا المبدأ ، كانت متيقنة من أن أولادها سيتلقون تعليماً جيداً ، فالأكبر سيدرس القانون ، وعبدالحميد ، الذى كان إبصاره سيئا ، سيدرس الدين ، والصغار سيتعلمون التجارة . وهكذا ألحق عبدالحميد ، الذى حفظ القرآن عن ظهر قلب فى الثانية عشرة من عمره ، بمدرسة دينية ابتدائية فى الاسكندرية . وهناك تأثر تأثرا عميقا بمدرس اللغة العربية ، « الشيخ محمد جاد » ، « الذى عاملنا كوالد وعلمنا مبادىء الحياة الاجتماعية ، فكان يساعد الفقير ... و يستشيط غضبا عندما يضبط تلميذا يدخن » .

ومع حصوله على الشهادة الابتدائية ، أصبح ضريرا تماما ، وعلى الأرجح بسبب مرض الرمد الحبيبى ، الذى يحصد أطفال الفلاحين الفقراء فى مصر . ورغم أنه بحث عن العلاج لمدة عامين ، إلا أنه تحقق فى النهاية ، وفقا لسيرته المنشورة ، من أن « الله قد وهبه نعمة العمى » ، فاندفع بعد ذلك فى دراسة بجد واجتهاد ، وحمد الله على أنه أخذ منه البصر و وهبه البصيرة .

وقد جاء به اجتهاده المثير للإعجاب إلى المدرسة الثانوية الأزهرية بالقاهرة ، حيث كان عادة يحصل على المرتبة الأولى فى فصله . وهنا أيضا كان لمدرس اللغة العربية ، كمال شاهين ــ الذى كان يختارعبدالحميد دائما فى كل حصة دراسية ليلخص الدرس الذى ألقاه ، بسبب قدرته الفائقة على الحفظ ــ تأثيرا بالغا عليه . وأهلته الثانوية الأزهرية ، التى حصل عليها بتفوق ، للالتحاق بكلية أصول الدين فى جامعة الأزهر ، وانتظم فى الدراسة فى الجامعة قبل إصلاح عبدالناصر له . وفى عام ١٩٦١ ، وفى الثامنة والعشرين من عمره ، مثل الأزهر فى عيدالعلم ، و بعد ذلك عين فى وظيفة إمام بالمساجد الحكومية ــ أوبمعنى آخر ، عين كموظف فى وزارة الأوقاف . وفى عام ١٩٦٤ أصبح إماما لمسجد عين الحياة بالقاهرة ، لكنه تعرض للاعتقال عام ١٩٦٦ خلال « المحنة » التى ابتلى بها عبدالناصر كل من اشتبه فى انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين ، أو كما صور ذلك كشك « عندما فتح

رجال الثورة السجون والمعتقلات ونصبوا المشانق لكل من قال أن « لا إله إلا الله » ٥.

وقد أودع كشك أولا سجن القلعة ثم نقل بعد ذلك إلى معتقل طرة ، ولم يطلق سراحه حتى عام ١٩٦٨ ، رغم عدم توجيه تهمة محددة له . وتعرض خلال هذه الفترة للتعذيب ، الذى مازال يحمل آثاره حتى الآن . ورغم فترات الاعتقال المتفرقة فى السنوات التالية ، احتفظ بوظيفة كامام لمسجد عين الحياة . و يبدو أن توزيع تسجيلات خطبه قد بدأ عام ١٩٧٢ . فدفعت شهرته الهائلة وزارة الأوقاف إلى بناء عدة ملاحق إضافية للمسجد ليناسب حشود يوم الجمعة . ومع هذا ، ففى عام ١٩٨١ لم تكن مبانى المسجد تكفى العشرة آلاف مصلى الذين يأتون بانتظام يوم الجمعة . و بالإضافة إلى الخطبة الأسبوعية ، كان كشك يعطى دروسا يومية لمريديه (كانت تسجل أيضا) فى مابين صلاة المغرب والعشاء ، وكان يقيم أربع جلسات فى الأسبوع يستشيره فيها أتباعه : حيث يستطيع أى فرد أن يأتى ليراه ليستشيره فى مشكلة ما أو ليتحدث إليه فقط .

والتف حول كشك جماعة من الشباب الملتحى ، كانوا يتولون نقل رسالته ، و يقومون بكفاءة بالسيطرة على الحشود خلال الخطب ليتأكدوا من الأثر الذى تتركه تحريضاته على المستمعين . وتتوفر التسجيلات على الفور حالما ينتهى كشك من إلقاء الخطبة ، وخلال عدة أيام ، تنتقل عبر طول العالم العربى وعرضه ، يحملها الدعاة الشباب المتحمسون الذين يرسلونها بالطائرات .

وفى يوليو ١٩٨٦ كان كشك أحد الشخصيات الإسلامية التى كتبت مقالات العدد الأول من الإصدار الجديد لمجلة الدعوة ، لسان حال الإخوان المسلمين الجدد . وكان الشيخ أحد ضحايا المواجهة النهائية بين السادات وحركة الإسلاميين ، وقد تجاهلته الصحف الرسمية ونصف الرسمية تماما ، إلا أن خبر اعتقاله عرفه كل المصريين ، سواء الذين أيدوه أو الذين عارضوه وفقا لانتماءاتهم الفكرية ، والاجتماعية ، والطائفة . فقد اعتقل فى بداية سبتمبر ١٩٨١ واستجوب

---

٥ هذا التعبير هو ما يؤمن به كل مسلم . وقد كان ، خلال السنوات ١٩٦٥ — ٦٦ ، مع هذا ، الهتاف الجماعى لأتباع قطب ، الذى استخدم العبارة كعنوان لفصل من أكثر فصول « معالم فى الطريق » إثارة .

فى الثالث والعشرين منه بواسطة المدعى العام الاشتراكى فى سياق التحقيق فى « الفتنة الطائفية » . وبعد اغتيال الرئيس فى السادس من أكتوبر تحسنت ظروف اعتقاله ، وسمح له بقراءة الصحف . وأفرج عنه يوم ٢٧ يناير ١٩٨٢ . ومنذ ذلك الوقت ، سمح له النظام الجديد بالكتابة فى الصحف . وأصبح له عمود منتظم الآن فى الصحيفة الأسبوعية الجماهيرية اللواء الإسلامى . وفى اللقاءات الصحفية العديدة التى أجريت معه بعد إطلاق سراحه ، كان يدين التطرف .

ولم يكن كشك الشيخ الوحيد الذى تعرض للاعتقال فى سبتمبر ١٩٨١ : فقد لاقى نفس المصير زميلاه السكندريان الشيخ محمود عيد والشيخ المحلاوى ، وهما على صلة وثيقة بالجماعات الإسلامية ، بالإضافة إلى رهط آخر من الأئمة الرسميين وغير الرسميين ، بسبب « تحويلهم المنابر إلى منابر لمهاجمة الحكومة » ، على حد التعبير الرسمى الذى استخدم فى ذلك الحين . لكن لم يكن لأحد من هؤلاء انتشاره ، ولم يكن لأحدهم شهرته .

● **خطبة الجمعة :**

يقع مسجد عين الحياة ، الذى يشتهر أكثر باسم مسجد الشيخ كشك فى حى حدائق القبة بالقاهرة ، بالقرب من حيين فقيرين هما الزيتون والعباسية . ويشكل هذان الحيان ، وهما من أكثر أحياء المدينة ازدحاما بالسكان ، مصدر الكتلة الأساسية التى تحضر خطب الشيخ يوم الجمعة ، حيث يتوافدون على المسجد سيرا على الأقدام ، يرتدى بعضهم الجلباب الأبيض ، لكن أكثرهم يرتدون ملابس غربية متواضعة الطراز والجودة . وهناك أيضا من يأتى من أقصى أطراف المدينة ليستمع للشيخ ، يأتى معظمهم فى المواصلات العامة ، وبعضهم يركب سيارته المرسيدس الخاصة . ومن خلال الحكم على ملبسهم ، من ناحية أخرى ، ينتمى معظم الحضور إلى الجماهير المدينية الفقيرة التى تشكل الكتلة الرئيسية من سكان القاهرة ، وليس للطقبات الأغنى . والمسجد نفسه بنى وسط أحد مشاريع الإسكان الشعبى الذى أقيم لمحدودى الدخل فى فترة الستينات .

والمسجد فى الإسلام ، إذا جاز لنا أن نستخدم الاستعارة المسيحية ، بناء من اللحم وليس من الصخر . حيث أن تصميمه المعمارى وشكله الهندسى لايعنيان

الكثير: فأهم الأشياء بالنسبة للمسجد توفيره لمكان للصلاة واتساعه لاستيعاب الحشود التى تأتى لصلاة الجمعة ولسماع الخطبة . وفى هذا الإطار يمكننا أن نستوعب هذه المساحات الواسعة الملفته للنظر للمساجد فى مصر المعاصرة ، ونستوعب أيضا تزايدها المستمر ، الذى يشجعه القانون* .

و يعد مسجد الشيخ كشك نموذج لهذا التوسع . فحشود يوم الجمعة لم تكن تملأ صحن المسجد والقاعات الإضافية التى أنشأتها وزارة الأوقاف فحسب ، بل أيضا الأزقه فى المنطقة السكنية المجاورة . والأرض يغطيها الحصير الذى يجلس عليه المؤمنوّن يستمعون لخطبة الشيخ و يقيمون صلاتهم عليه . ومكبرات الصوت تعلق على جدران المبانى المجاورة لتوصل صوت الشيخ إلى المصلين .

و يبدأ توافد المصلين فى جماعات متراصة قبل حوالى ساعة من آذان الظهر . و بينما ينتظرون الخطبة ، يمضون الوقت فى تفقد السلع التى يعرضها الباعة أمام المسجد . يتخاطفون الصور الفوتوغرافية للشيخ وشرائط الكاسيت التى تحتوى خطبه والتى تباع بالمئات ، وعشرات الكتيبات التى صدرت من « مكتبة الشيخ كشك » ، فضلا عن تشكيلة من الأدبيات الإسلامية وأدبيات الإسلاميين التى تباع بأسعار تخضع للمساومة ، بجوار مايجب أن يقتنيه المسلم الصالح : سجادة الصلاة ، والسواك ، والطيب . كذلك ينادى الباعة الجائلون على بضاعتهم التى تشمل كل الأصناف بداية من الطعام والشراب وحتى قطع أكسسوار السيارات .

وبعد أن يأخذ كل مكانه . و بعد أن يتم الانتهاء من قراءة قرآن الجمعة عبر مكبرات الصوت . يعم السكون . وفجأة ، مثل قصف الرعد ، تنطلق عبارة : الحمد لله رب العالمين . وتبدأ خطبة الشيخ كشك . وتستغرق حوالى الساعة ونصف الساعة ، أى ثلاثة أضعاف وقت الخطبة المألوفة ، وتغطى وجهىْ شريط كاسيت من نوع ماكسل Maxell مدته تسعون دقيقة ، و يستطيع المصلون شرائها فور انتهاء الخطبة .

---

* يظل أى موقع إتخذ منه مسجد ، وفقا للقانون ، محتفظا بهذه الصفة و يكتسب حرمة لا مساس بها . وعلاوة على ذلك ، إذا خصص مالك أحد البنايات جزء منها كمسجد ، يتم إعفاؤه من جزء من الضرائب العقارية . ولا يوجد مايحول دون وضع مكبرات الصوت خارج المسجد لدعوة المؤمنين لتأدية الصلوات الخمس اليومية ، من الثالثة صباحاً حتى الثامنة مساءً .

وقد ألقيت الخطبة التى سنلخصها فيما يلى يوم ١٠ إبريل ١٩٨١ . ولم تستلهم موضوعا بعينه ، حيث لم يحدث شيء خارج عن العادة خلال الأسبوع الأول من شهر إبريل من ذلك العام . وتليت وكأنها خطاب متصل تتخلله مقاطع مرنمة . وكشك ، مثله مثل أى أزهرى ، يمكنه التحدث بالعربية الفصحى بطلاقة . لكنه كان يعمد أحيانا لاستخدام الزخارف اللفظية لإحداث تأثير أكبر بين مستمعيه . ورغم أن هذا قد يصدم المحافظين ، إلا أنه كان يسعد جمهور الشيخ . إذ أن هذا الأسلوب ، كما يرى مستمعوه ، رغم استخدامه للغة القرآن الفصحى ، يقرب هذه اللغة من أذهانهم . و يعمد كشك فى الدقائق العشرة الأخيرة من خطبته إلى استخدام اللهجة القاهرية اليومية ، فبعد أن يغرق مستمعيه فى فيض من لغته الخطابية الطنانة ، يتحول فجأة إلى العامية اليومية ليستأثر بكامل انتباههم .

وخطبة كشك تتكون من ثلاث حركات ذات إيقاع متغير ومحتوى مختلف : مقدمة تستغرق حوالى عشرين دقيقة ، وتفسير للقرآن يستغرق حوالى نصف الساعة ، وفى النهاية يجيء الموضوع الرئيس للخطبة ، الذى يتناول الأحداث التى وقعت مؤخرا والوضع العالمى بشكل عام .

الإستهلال

« الحمد لله رب العالمين ، يارب ! إجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ... أشهد أن لا إله إلا الله ! بذكره تطمئن القلوب ، و برحمته تغفر الذنوب ..

« إسمع معى إلى قول مولانا فى الحديث القدسى « عبدى اذكرنى حين تغضب ، أذكرك حين أغضب » ... إذا غضبت فاذكر الله ، فالغضب من عمل الشيطان ، يوسوس به لابن آدم . إذا غضب أحدكم فليتوضأ . فإن الوضوء بالماء ، وإن الغضب من النار، ولا يطفىء النار إلا الماء ... إذا غضبت فقل « لا إله إلا الله » ...

و يصيح الشيخ « يامن تؤمنون بالوحدانية ، من هو الواحد ؟ (يرد المؤمنون : « الله ») . من هو البصير (يكرر المؤمنون : « الله » ! وتتوالى أسئلة الشيخ وإجابات المصلين ثلاثة وثلاثين مرة) .. « قال إعرابى أوصنى يا رسول الله قال

لا تغضب قال زدني . قال ، لا تغضب . قال زدني . قال ، لا تغضب ولك الجنة » ... « لماذا ؟ لأن الغضب يحدث انفعالات وتفاعلات كيميائية فى الدم : فهناك غدد فى الجسم تسمى الأدرينالية ، عندما يغضب ابن آدم تفرز مادة الأدرينال فى الدم ، فيسبب هذا ارتفاعا فى ضغط الدم ، فيضغط الدم على القلب إلى المخ ، وعندئذ تجد ابن آدم قد احمر وجهه وعيناه ، لارتفاع ضغط الدم . فيدفعه الغضب إلى أن يغضب ربه جل جلاله ، و يقسم بالطلاق . والحبيب يقول « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن » ..

« يصعد الدم إلى الدماغ . وقد يكون فى ذلك أنفجار فى شرايين المخ ، وقد تكون فى ذلك جلطة ، وقد يكون فى ذلك شلل . ولذلك فإن المسيح عندما رأى أمه حزينة قال لها « لاتحزنى قد جعل ربك من تحتك سريا » ، جدول ماء رقراق . « وهزى عليك بجزع النخلة تسقط عليك رطبا جنيا » ، فكلى من الرطب الجنى ، واشربى من الماء السرى ، وقرى عينا بالغلام الذكى . لكن يامسيح ، هل الأكل والشرب يذهبان الغضب ؟ إن الغضبان إذا وضع أمامه المن والسلوى ، ما وجد لهما طعما . فتدارك المسيح الموقف وقال لها أحزينة أنت لأنك ولدتنى بغير أب ؟ « فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما . ولن أكلم اليوم إنسيا » . إذن ، فمن الذى سيتكلم ؟ قال لها : أشيرى إلىَّ فسأقف محاميا عنك أمام محكمة العدل الإلٰهية القدرة . ولذلك أشارت إليه . فقالوا « كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » فإذا بالمسيح يخرج البطاقة العائلية . فى خانة الإسم « إنى عبدالله » . لم يقل أنا الله ، ولم يقل أنا ابن الله ، ولا أنا عضو فى شركة ثلاثية تدير الكون . « إنى عبدالله » . المؤهلات العلمية ، « أتانى الكتاب » . الوظيفة ، « جعلنى نبيا » . الدرجة الإلهية « وجعلنى مباركا أينما كنت » . التكاليف « أوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا » . الكرامة « و بارا بوالدتى » . الرفعة « ولم يجعلنى جبارا شقياً . المنحة « السلام على يوم ولدت و يوم أموت و يوم أبعث حيا » ... فإذا كنت مأمورا بالصلاة ، فلمن أصلى ؟ إذن أنا لست الله . أيصلى الله لله ... مادمت قد ولدت فقد نزلت من رحم ضيق . فهل الإله الذى وسع كرسيه السموات والأرض يعيش فى رحم ضيق طوله سبعة سنتيمترات ، وعرضه خمسة سنتيمترات ، وسمكه اثنان ونصف سنتيمترا . الإله الذى وسع كرسيه

السموات والأرض يعيش فى رحم مظلم ، يعيش فى رحم ضيق ... إن الله حل مشكلة المسيح فى كلمة واحدة « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

تفسير قرآنى

« ياحماة الإسلام ، و ياحراس العقيدة ، إلى أين نذهب اليوم ؟ إلى المحكمة ! أى محكمة ؟ إلى محكمة الثورة ، أم محكمة الشعب ، أم إلى محكمة الغدر ، أم محكمة أمن الدولة ، أم محكمة عسكرية ، أم محكمة القيم ، أم إلى محكمة الاشتباه ، أم إلى محكمة المدعى الاشتراكى ؟ لاهذا ولاذاك ، ولاذلك ، ولا تلك ، ولاهذه ، ولا هؤلاء جميعا . إنما نذهب إلى محكمة مكتوب على بابها « والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشىء . إن الله هو السميع البصير » . أيها الأخوة ، من الذى سيقدم أمام هذه المحكمة الإلهية ؟ مع الدرس الحادى عشر بعد المائة الرابعة أنتقل بحضراتكم إلى محكمة القرآن . لا أقول إن رئيس الدائرة هو الفريق أول فلان ، ولاعضو اليمين هو العميد فلان ، ولا عضو الشمال هو العقيد فلان ، ولا الادعاء برئاسة المقدم فلان ، ولاأمين السرفلان * . إنما أقول إن قاضيها هو من لايغفل ولاينام ... من الذى سيقدم إلى المحاكمة ؟ إبليس . وما هى صحيفة الجنايات ؟ وما هى الجناية التى ارتكبها إبليس فى حق ملك الملوك ؟ ... سنحاكم إبليس اليوم ، الذى ماذا أتى ؟ وماذا فعل ؟ ورجائى أيها الأخوة الأعزاء أن يكون عندنا صبر فى الإستماع إلى تلك القصص الإلهية . لأننى وأنا أقدم لحضراتكم قصص الأنبياء ، لا أقدمه على أنه مسلسل أمريكى أثيم وفاحش ، ولا على أنه فيلم ساقط ، ولا على أنه مسرحية تافهة ... »

« فإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » . أبى ، أبى على أمر من . وتعالوا بذلك لنستمع إلى هذه المناقشة التى دارت بين إبليس و بين ملك الملوك ... سؤال : ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ؟ ... فتحت الجلسة ! حـ ١ : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ...

---

* هكذا كانت تبدأ الصحف فى وصف جلسات المحاكمة العسكرية (و بشكل خاص إبان محاكمة شكرى مصطفى وجماعة المسلمين ، وكذلك خلال محاكمات الإخوان المسلمين أعوام ١٩٥٤ ، ١٩٦٥ .

[أرسل أبوبكر الصديق إلى كسرى ، ملك الفرس ، رسول قال له دون وجل ياكسرى ، هل أخذك الكبر حتى تتخذ من نفسك إله ؟ كيف يكون هذا ، وقد جئت من مجرى البول ؟ أولا ، ألم يأت منىّ أبيك من مجرى البول ؟ .. وثانيا ، ألم تخرج من أمك مس حيث تتبول ؟ . لا تنس أصلك ، فمن ينس أصله يضيع ، **يقذف به فى النار، فلا تتفاخر بمساواتك بالواحد القهار] * .**

[قال الله للشيطان « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » ، أوبمعنى آخر ، بالغناء . فالأغنية هى مزمار الشيطان . رفيق الفجور..] .

[وقد وجد الشيطان مذنب بارتكابه عامدا الجرائم الواردة فى الآيات ، ٧٧ ، **و٧٨ ، و٨٤ ، و٨٥ من صورة ص ** ، وآيات أخرى مشابهة] .**

[إننا فى خطر! لقد كان إبليس هو الأكثر معرفة .. لكنه كان ذى أخلاق فاسدة .. فالمعرفة مثل المطر الذى يروى ، والأخلاق مثل الأرض ، فإذا كانت الأرض فاسدة ، فلن يؤثر المطر عليها ... وقال الشيطان لله « قال فبعزتك لأغوينّهم أجمعين . إلاعبادك منهم المخلصين » . وأسأل الله أن يجعلنا من عباده المخلصين . **وقد رأى الإمام الحسن البصرى *** إبليس يوماً فى منامه فقال له** « كيف حالك مع العباد اليوم » . أجابه إبليس : « ياحسن ، كنت بالأمس أدل الناس على طريق الخطيئة ، أما اليوم فإنى أتعلم منهم » . أى أن المعلم أصبح تلميذا وأصبح التلميذ معلما ! إذن ننتهى إلى الحكم بأن إبليس هو عدو الله ، ويمكننى القول بأننا نعيش فى زمن تحاك فيه المؤامرات ضد الإسلام ، تدبر المكائد لتقود المسلمين إلى الضلال ، ولتثير البلبلة بينهم ، ولكى تعلن الحرب على الله ورسوله .] .

---

* الفقرات بين العلامتين [ ] لم نجدها فى شريط الكاسيت الذى يحتوى على هذه الخطبة . والذى يباع فى الأسواق . (المترجم) .

** الآيات هى : « قال فاخرج منها فإنك رجيم » (٧٧) ، و« وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين » (٧٨) ، و« لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » (٨٥) ، « قال فالحق والحق أقول » (٨٤) .

*** الحسن البصرى : داعية من دعاة العصر الأموى (القرن الثامن) .

[استمعوا إلى الأخبار التى قرأتها فى مجلة الدعوة هذا الشهر « قبض على جماعة فى حى المعادى يصلى أعضاؤها ميممين وجوههم شطر بيت المقدس » . وهنا نحن أمام فرقة اتبعت الضلال ! جماعة تصلى دون أن تولى وجهها شطر الكعبة ، بل صوب بيت المقدس . يقول الله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره . هذه الفرقه أرادت أن تسيء إلى الإسلام بالتوجه نحو بيت المقدس ! وأقول لكم بكل صراحة — وألم ثقيل يجثم على صدرى — إنه منذ دخلت إسرائيل مصر ، وأنشأت لها سفارة فى القاهرة ، وأنا على يقين من أن هناك فرق مشبوهة تتلقى تعليمات من يد خفية ، تنشر الشكوك والشائعات * حول الله ورسوله ..] .

« أيها السادة الأعزاء فرق شتى ظهرت هذه الأيام ، وكلها تدعى الصلة بالله ، وكلها تنتسب إلى رسول الله . والأزهر فى نوم عميق ، وثبات هائل . عندما قامت الثورة — أوعندما وقع الانقلاب العسكرى فى مصر — وصدرت الأوامر إلى تصفية الإسلام . كانت الخطوة الأولى التى خطاها رجال الثورة القضاء على القضاء الشرعى ، المحاكم الشرعية ** ، التى كانت تحكم بأوامر الله » .

« بأى وسيلة ؟ لفقوا تهمة لقاضيين ، شيخين جليلين ، هما الشيخ سيف ، والشيخ فيل . فاتهموهما بشرب الخمر والزنا . وطالعتنا الصحف يومها بهذه المأساة ... وبعد القضاء على القضاء الشرعى ، وقع الكشف الطبى على الشيخين البريئين ، فأثبت الطب أن بهما شللا جنسيا ، وهما بريئان براءة الذئب من دم ابن يعقوب . لكنها مصر ، خير من يلفق التهم للأبرياء ... فتحوا السجون والمعتقلات ، ونصبوا المشانق ، لكل من يحمل فكرة عن لا إله إلا الله . فى سنة

---

* كان كشك نفسه ضحية لهذه الشائعات ، كما أوضح ذلك لمجلة المسلمون ، العدد ٢٣ ص١٣ .. » آخر هذه الشائعات أن المسيح — عليه السلام — ظهر لى فى المنام وأخبرنى أننى إذا هجرت الإسلام — أستغفر الله — وأصبحت مسيحى ، سيعيد إلى بصرى » .. ومن المعروف أن إليا هو من اليسار، أول سفير إسرائيلى فى القاهرة قد وصل إليها عام ١٩٨٠ .

** على أى حال ، ألغيت المحاكم الدينية للطوائف الأخرى أيضا.

١٩٦١ قضى على الأزهر قضاء مبرما باسم تطوير الأزهر، ولكنه تدمير، ولم يكن تطوير. وإلا فخبروني يارجال الأزهر، كم يحفظ أحدكم من القرآن إذا تخرج من الأزهر؟ كم سورة يحفظها؟ إن هناك من خريجي الأزهر في هذه الأيام من لايستطيع قراءة القرآن في المصحف الشريف... قضى على الأزهر قضاء مبرما بدليل أن شيخ الأزهر كان متخصصا في الفلسفة. وما سمعنا عن شيوخ أزهر متخصصين في الفلسفة! شيخ الأزهر دكتوراة من ألمانيا، والذي قبله دكتوراة من فرنسا * ... **هل عقمت أرحام المسلمين حتى تحصلوا على شهادات الدكتوراة من فرنسا يا مشايخ الإسلام؟ ولست أدرى من الذى سيعين بعد ذلك شيخاً للأزهر؟ قد يكون لواء أركان حرب و يتولى مشيخة الأزهر. من الذى يدرى؟ لقد أصبحت مشيخة الأزهر لا تقوم للإسلام بأى خدمة .. وفى سنة ١٩٦٥ فتحت المشانق مرة أخرى للنفس الذى قال لا إله إلا الله. و بعد ذلك ألغيت الأحوال الشخصية كلها **، وأصبحنا نعرض شريعة الله على مجلس الشعب *** ».**

« هل تقبل بتطبيق شرع الله أم ترفض يامجلس الشعب؟ أتعرضون الله تعالى على حفنة من عبيده ليوافقوا على الله أو لايوافقوا على الله!؟ ماهذه المهذلة! ماهذه المهزلة! ونام الأزهر، وذهب الدعاة إلى السجون.. وفوجئنا بفرق شتى نصبت من أنفسها أوصياء على دين الله. هذا سلفى لايحب الصوفى، وهذه مساجد

---

* الإشارة هنا تعود على الشيخين عبد الحليم محمود (توفى عام ١٩٧٨) وعبد الرحمن بيصار (توفى عام ١٩٨٢ وقد حصلا على شهادة الدكتوراة من فرنسا، هذا بالنسبة للأول، ومن ألمانيا، بالنسبة للثانى.

** يشير كشك إلى قانون ٤٤ لسنة ١٩٧٩ للأحوال الشخصية الذى صدر بناء على الحاح جيهان السادات، زوجة السادات. وكان قانون الأحوال الشخصية القديم يسير وفقا للسنة، و يسمح للرجل، مثلا، أن يتزوج واحدة أو أكثر دون أن يُعلم إحداهن بالأخرى. أما القانون الجديد فيستلزم أن يخبر الرجل زوجته من خلال إعلام قضائى بأنه يريد الزواج من أخرى، فإذا ما اعترضت فإنها تستطيع الحصول على الطلاق الفورى. كما أن لها الحق فى الاحتفاظ بمنزل الزوجية حتى يصل أولادها إلى سن الرشد. وقد أثار هذا القانون، الذى صاغه وزارة الشئون الاجتماعية ولجنة من الأزهريين، الشيوخ الذين اعتقدوا بأنه يخالف الشريعة، وشهروا بزملائهم « المتعاونين ».

*** ظل تطبيق الشريعة أحد الأهداف الكبرى لمجلس الشعب، وخاصة منذ ١٩٧٧، عندما عين الدكتور صوفى أبوطالب، وهو رجل قانون تعلم فى فرنسا، رئيس للمجلس. وكان دستور ١٩٧١ قد قرر أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع. إلا أنه فى ديسمبر ١٩٧٨ فقط تم تشكيل لجنة ــ مؤلفة من شيخ الأزهر، ووزير الأوقاف، ومفتى الجمهورية، وعدد من أساتذة الجامعات والقضاة ذوى الخبرة فى القانون الإسلامى ــ لمراجعة كل القوانين التى أقرت قبل ١٩٧١، ولإلغاء ما يتنافى منها من الشريعة، ولتوفير الأسانيد القرآنية للقوانين الأخرى.

الأوقاف ، وتلك مساجد السنية . هؤلاء * أنصار السنة ، وهؤلاء جماعة التبليغ . هؤلاء التكفير والهجرة ، وتلك جماعة التوقف . ووقف الإسلام بين الفرق ... » .

« ما الذى حدث ؟ ما الذى حدث يامسلمون ؟ ... إن هذا القول إنما جاء من السفارة الأمريكية أومن السفارة الإسرائيلية أومن السفارة السوفييتية أومن سفارة بريطانيا » ...

« المودة الجديدة التى يتبناها المراهقون ، أصحاب المراهقة الفكرية . الذين نبتوا حديثا وأخذوا العلم بدون أستاذ ودون شيخ معلم ، أخذوه من الكتب ولم يفهموه ... داعية كبير عنده من العمر سبعون عاما يخرج له حدث ، حدث مراهق ، قرأ ثلاث كلمات أوثلاث ورقات من كتب ابن تيمية أو كتب ابن عبدالوهاب ، استطاع أن يكون وصيا على الدين . يا للمهزلة ! و ياللعار ياشيخ الأزهر! يامن نمتم وتركتم الإسلام نهبا لكل من هب ودب » .

« أخبرنى أحد العلماء وقال ، كنت ألقى محاضرة فى محافظة المنيا ، و بعد الانتهاء من المحاضرة سأل سائل ، الخل حلال أم حرام ؟ ... والأدهى من ذلك أنى ذهبت إلى إمارة أبوظبى وسألت نفس السؤال .... إن هذا السؤال قد وضع فى إحدى السفارات ، سفارة إسرائيلية ، سفارة أمريكية ، سفارة روسية ، سفارة بريطانية ، للتشويش على الإسلام . ومن يدرى ! ربما يصدرون فتوى غدا بأن العدس والبصارة حرام لأنهما يلهيان عن ذكر الواحد الديان ! ! من يدرى ! من يدرى ! لا إله إلا الله » .

« عملية إلهاء للمسلمين . قوم أخذوا من الإسلام ظواهره وتركوا حقائقه . وأرادوا أن يبلبلوا الأفكار ، و يفرقوا الصف . وإسرائيل ماذا تصنع اليوم ؟ تحفر

---

* جمعية أنصار السنة المحمدية ، جمعية خيرية إسلامية تقوم على تعليم القرآن لأعضائها وتوفير التربية الاجتماعية لهم ، مع ميلها الشديد للمذهب الوهابى وبسبب توجهها وتمويلها اشتهرت بأنها السفارة الدينية للمملكة العربية السعودية .

جماعة التبليغ : جماعة ذات أصل باكستانى ، و يعد أبوالحسن الندوى زعيمها الروحى .

التكفير والهجرة وجماعة التوقف : جماعتان من جماعات حركة الإسلاميين .

قناة تصل بين البحرين الأبيض والميت* فى أرض المسلمين . وإذا تم حفر هذه القناة ، فقد عزل قطاع غزة والضفة الغربية . عزل القطاع والضفة عن الأرض العربية . فماذا رد المسلمين ؟ النظارة حرام ! الخل حرام ! هذا أمير فرقة ، وذاك أمير فرقة ! ! والكل كالغنم الشريدة فى الليلة الشاتية .

(وبعد أن يوجه الاتهام للأزهر مرة ثانية ، يضرب كشك الأمثلة التى تلخص تعاليم الإسلام التى أكد عليها الرسول والصحابة الأوائل : فيذكر مثل الوالدين اللذين مات ابنهما الوحيد ولم يكفا عن الصلاة) .. « ده الواحد النهاردة لو إبنه جاله دور تانى فى الامتحان ، دور تانى ! يقولك مش هعرف الجامع . طب ليه ؟ يقولك الواد سقط . أكنك كنت بتصلى عشان الواد ينجح يعنى ؟ » ** .

ومهما كان الارتباك الذى يظهر فى هذه الخطبة ، إلا أنها ذات تركيبة غير عادية من المعانى التى تجذب المستمعين وتضعهم فى الاتجاه الذى يريده كشك . أما ترجمتها ونقل معانيها ، فقد لا تنقل سوى تجسيد شاحب لمهارته البلاغية ، إذا وضعنا فى اعتبارنا الفجوة الثقافية التى تفصل قارىء هذه السطور*** وبين المؤمن الذى يجلس مستمعاً لكشك .

ومشكلة الداعية هى أن يتناول معانى النص الذى يؤمن بقدسيته ، رغم أن قدسية النص تحجب هذه المعانى ، و يفسرها لمستمعيه ، الذين يعرفون النص كله أوبعضه (أو بحد أدبى يحفظونه ، سواء فى الكتاب ، أوفى الدروس الدينية) ، و يستمعون إليه عادة كعقيدة جامدة dogma. فجمهور المستمعين يدركون تعاليم القرآن ، التى تنحصر فى محرمات تقليدية قليلة (تحريم الخمر، ولحم الخنزير، وهلم جرا) ، لكنهم نادرا ما يجدون فيها حلولا لمشاكل الحياة المعاصرة .

---

* دارت فى مصر مناقشات حامية حول مشاكل الرّى فى إسرائيل وخطط حفر القنوات لحلها . وفى أواخر عام ١٩٨٠ شنّت جريدة الشعب الأسبوعية حملة صحفيةعنيفة تحت شعار « مياه النيل ليست للبيع » ، فى مواجهة مخطط حفر قناة عبر سيناء تحمل الماء من النيل إلى إسرائيل . وفى ١٠ مارس ١٩٨١ هاجمت نفس الجريدة و بقسوة المشروع الذى يشير إليه كشك هنا .

** هذه الفقرة ألقاها كشك بعامية القاهرة اليومية ، على العكس من بقية الخطبة ، التى ألقاها بالفصحى .

*** يقصد المؤلف بالطبع القارئ الأوروبى .

ومهارة الداعية تتلخص فى تكراره تفسيره للقرآن دون هوادة ، وأن يكتشف داخله إجابات على كل التساؤلات التى تقلق مستمعيه . ومع إصرار كل الإسلاميين المصريين على أن الإسلام « نظام كامل وشامل » ، تصبح مشكلتهم إقناع الجماهير المسلمة بهذا ، هذه الجماهير التى تتحكم فى سلوكها اعتبارات نابعة من نظم تفكير أخرى (سواء كانت اللهجة الاشتراكية أو الليبرالية للحكومات المتعاقبة ، أو بمعنى آخر ، مابقى منها مع الزمن) .

وإذا كان الداعية يرغب فى إشباع جمهوره من القرآن ومعانيه ، فعليه أن يحاول الوصول إلى مستواهم : أى يتكلم لغتهم . وكشك يجيد هذا ، ربما إلى الحد الذى ينطبق عليه اتهام منتقديه له بالديماجوجية . كما أن لديه نزوع قوى تجاه ذكر الأعضاء التناسلية بشكل مستمر . والإسلام ، بعكس النزعة الفكتورية الغربية ، يتناول الجنس بشكل صريح ، لأنه ورغم أن الزنا جريمة مرفوضة تماما إلا أن الجنس الحلال (داخل حدود الزوج) يعتبر امتيازاً ، ليس فقط لأنه تكاثر للنوع ، بل أيضا لأنه مصدر للمتعة (للرجل ، على كل حال) .

وأياً ما كان القدر الذى أوردناه من خطبة كشك ، فيجب علينا أن نفهم أولاً وقبل أى شىء أن نجاحها الفائق للعادة هو نتيجة مباشرة لقدرته على التحدث إلى مستمعيه ، إلى مئات الآلاف من العرب المسلمين الذين يستمعون إليه بشكل دائم ، و يديرون أشرطة التسجيل التى تحتوى خطبة بشكل يومى ، من المغرب إلى العراق . فهو يتكلم لغتهم و يستخدم تعبيرات خطابهم discvrse الدفين . وهذا فى حد ذاته دليل على فشل نظام التعليم « الحديث » المفترض أنه مقتبس من تنويعات ليبرالية أو اشتراكية مستقاة من النظام الغربى ، ذلك النظام الذى سعت الناصرية لتأسيسه على المستوى الجماهيرى . وحيث لم يوفر استظهار المقررات لجماهير « المتعلمين » رؤية للعالم تتوافق مع المقولات التى يفترض أن المعرفة العلمانية قد أمدتهم بها . ومن ثم فقد كانوا تربة صالحة لخطب الشيخ كشك .

وهناك صورتان خطابيتان لهما دلاله خاصة : الاستعارات الطبية ، وتحويل القرآن إلى مقولات معاصرة .

فالاستعارات الطبية فى خطبه استعارات صارخة . وتنجلى فقرة الأدرنيالير التى أوردناها فى استهلال خطبته عن مثال نموذجى لهذه الاستعارات . إذ يقدم كشك وصفا طبيا للتغيرات الكيميائية التى يسببها الغضب ، وفقا لرأيه ، ومن ثم يوسع هذا الوصف ليشمل تصور رؤيوى apocalypt لـ « انفجار شرايين المخ » . وتتشابك هنا معانى عديدة . وأكثرها وضوحا هو الاتفاق الكامل بين الإيمان و بين العلم : فالله ينهى عن الغضب ، و أيضا لنفس الاستنتاج .

واختيار الطب دونا عن أى مادة علمية أو تقنية أخرى ليس اختيارا عشوائيا ، إذ يستطيع كشك أن ينتقى استعاراته من أى فرع آخر من فروع العلم كالهندسة ، أو الالكترونيات ، أو الطبيعة ، إلخ . لكن الطب ، فى أذهان الجماهير ، هو العلم الذى يدرس فى أفضل كلية فى مصر ، وهو الفرع الذى يفترض أن يتخصص فيه أذكى طلاب مصر ، وفقا لعملية التنسيق . ومن خلال ذكر المراجع الطبية فى صورة الخطابية ، يضع كشك نفسه ، أمام مستمعيه ، فى مصاف صفوة المفكرين المصريين . إلا أن ممارسة الطب ــ مهنة الصفوة التى يدفع ذكرها أى مصرى لأن يحلم بأن يقسم ابنه يوما قسم أبوقراط ــ تستدعى صورة أخرى أيضا : الاستشارات باهظة الثمن والاحتقار المطلق الذى يظهره الطبيب لمرضاه ، الذين يحصلون على وصفات طبية لايمكن فهمها ومكتوبة بالانجليزية (كما كان يستخدم أطباء موليير اللاتينية ، كأفضل وسيلة لإرهاب مرضاهم) والذين يغادرون عيادة الطبيب ، التى ينتظرون داخلها لعدة ساعات ، دون أدنى فهم سواء للأمراض التى يعانون منها أو مسبباتها . بينما كشك ، فى الناحية الأخرى ، يصف العملية الباثولوجية مستخدما مصطلحات قد تثير سخرية من يمارس هذه المهنة ، لكنها تكشف عن أسرار « العملية الكميائية للمؤمن » بالضبط كما تكشف له أسرار القرآن . وفى نهاية استطراد كشك حول المسيح ، كانت الحجة « الطبية » بمثابه المفتاح الذى استخدمه ليقيم دليله : فيكفى ذكر مقاييس الرحم عند المرأة لسحق الادعاء بألوهية المسيح ، بأسلوب يتشابه تماماً مع رسالة أبوبكر الصديق التى وجهها لكسرى ، يذكره فيها بأصله بلغة لا تختلف مع عبارة القديس أو حبستين : inter feces et uvinam anascimve أى « المولود بين البراز والبول » .

ومن خلال استخدام هذه الحجج ، التى تقول كل منها باتفاق الطب ، هذا « العلم » المتفوق فى مصر ، والإيمان ، يخضع كشك المعرفة الحديثة للمعرفة القرآنية . لكن هذه الأسلمة للعلم ، لاتجعله بعيدا عن إدراك مستمعيه ، بل تقربه إليهم بكشف أسراره . فما يكتبه الأطباء بالانجليزية ، يشرحه كشك (بأسلوبه الخاص) باللغة العربية ، فيفهمه مستمعوه .

أما الأسلوب البلاغى الثانى فى الخطبة ، وهو العنصر الآخر لنجاح الداعية ، فهو تقطيع الآيات القرآنية إلى وحدات صغيرة يصل بينها بتعليقات أو حجج مبسطة مصاغة بلغة عصرية . فخلال استطراده حول المسيح ، على سبيل المثال ، قام بتقيطع الآيتين ٣٠ ، ٣١ من سورة مريم مستخدما لغة مألوفة ليشجع مستمعيه على « الخوض » فى النص . فبينما تقول الآية « قال إنى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنى نبيّا » ، يقول كشك فى خطبة « فإذا بالمسيح يخرج البطاقة العائيلة . فى خانة الإسم (أنا عبد الله) ... المؤهلات العلمية (أتانى الكتاب) ... إلخ »

واستخدام هذا الأسلوب بشكل أكثر فعالية ، عندما اتهم إبليس بارتكاب الجرائم المنصوص عليها فى المواد ٧٧ و ٧٨ من سورة ص : والمواد بالطبع ، هى آيات السورة . وهذه التأنقات البلاغية ترسخ سلطة الشريعة فى الخطاب ذاته ، فى مواجهة العدل الإنسانى ، الذى هو فى واقع الأمر ، كما توضح الفقرات التى وردت فيما بعد فى الخطبة ، مجرد سلسلة من المظالم ، من محاكم الغدر والثورة . أما الآية « والله يقضى بالحق .. » فقد أدخلها الشيخ فى نهاية القائمة الهزلية التى تضمنت أسماء المحاكم المصرية ، كشعاريزين واجهة المحكمة الإلهية . وهنا أيضا ، يرسخ الخطاب قابلية تطبيق القرآن بشكل طبيعى تماما ، دون حاجة لبرهان . و يسخر كشك كذلك من تبعية الهيئتين القضائية والتشريعية للهيئة التنفيذية ، وليس هناك دليل على ذلك أقوى من المحاكم العسكرية أو المدعى العام الاشتراكى ، التى تنفى شرعية النظام القانونى المصرى السارى ، الذى استلهم من القانون الفرنسى . وهنا صور كشك النظام القضائى وكأنه جهاز الطاغية القضائى : فالشريعة فقط ، التى استلهمت رأسا من الله ، هى التى لايمكن أن يستغلها الحاكم ولذلك فهى تضمن ، كما يرى كشك ، أن الناس « سيقضى بينهم بالحق » .

وتيمات كشك هى التيمات themes الشائعة فى حركة الإسلاميين ، والتى غالباً ما كان يعرضها أفراد لم يتلقوا على الإطلاق ذلك التعليم الأزهرى التقليدى : مثل البنا ، وقطب ، وبدرجة أقل شباب الجماعات الإسلامية أو شكرى مصطفى . لكن أصالته وتأثيره داخل حركة الإسلاميين ينبعان من إنكاره لشرعية النظام الإسلامية بصفته شيخ من المشايخ ، أى بصفته عضو فى هيئة العلماء . وهو نفسه كأزهرى ، لم يستطيع أبداً أن يتبنى مواقف شكرى أو مواقف فرج ، منظر المجموعة التى اغتالت السادات . وفى حقيقة الأمر ، كانوا هدفا لهجاءه اللاذع ، « أصحاب المراهقة الفكرية » الذين « قرأوا ثلاث صفحات أو ثلاث كلمات من كتب ابن تيمية » . ومع هذا ، فقد عبرا ، وإن بشكل أخرق ، عن التشوس العميق الذى يتحمل مسئوليته الأولى ، فى نظر كشك ، الأزهر نفسه . حيث فشلت أعلى مؤسسة إسلامية فى مهمتها ، أى فى تربية الشباب . وتستدعى هذه الملاحظة ملاحظات المدعى العسكرى إبان محاكمة شكرى مصطفى . لكن بينما كان المدعى العسكرى يرى جذر الشر فى عجز العلماء عن فهم مشكلات العالم الحديث ، كان كشك يراه فى تبعية الأزهر للنظام السياسى والعسكرى نفسه (ولست أدرى من الذى سيعين بعد ذلك شيخا للأزهر؟ قد يكون لواء أركان حرب و يتولى مشيخة الأزهر) والذى يمنع المؤسسة الدينية من آداء وظيفتها . وفى لقاء أجرى معه ، اقترح كشك الإجراءات التالية لعلاج هذا الوضع :

١ ــ ينبغى أن يأتى شيخ الأزهر بالانتخاب .

٢ ــ أن يتم استقطاع راتب شيخ الأزهر من أوقاف المسلمين .

٣ ــ عودة الأزهر إلى مرحلة ماقبل ١٩٦١ (قبل الإصلاح الناصرى) ، و بشكل خاص بالنسبة للمقررات الدراسية .

٤ ــ استبعاد الكليات « العصرية » من الأزهر ، واستبقاء كليتى أصول الدين واللغة العربية .

وهنا يتحدى واحد من المؤهلين للحديث باسم الإسلام ذلك « التحديث » الذى سعت إليه الدولة الناصرية .

ومع هذا ، فرغم تقديم « نجم الدعوة الإسلامية » لتحليل صارم للدولة المستقلة ، واصما إياها بأقسى النعوت ، إلا أننا نجده أقل فصاحة عندما تطرح خطة عمل الإطاحة بالدولة و بناء مجتمع مسلم مكانها . لكن خطبه تقود بالضبط إلى نفس الموقف ، حتى على الرغم من تحذيره لمستمعيه من أهواء « المفكر ين المراهقين » دون أن يذكر لهم الطر يق الذى يراه صحيحا . وفى نفس الوقت ، فإن خط يدين الممارسة « الإصلاحية » للإخوان المسلمين الجدد الذين تجمعوا حول التلمساني ومجلة « الدعوة » ، كما يستدل على ذلك من سخر يته اللاذعة من الذين « يعرضون الله تعالى على حفنة من عبيده ليوافقوا على الله أو لا يوافقوا على الله » ، فى اللحظة التى انشغلت فيها الدعوة بالضغط بعنف على مجلس الشعب من أجل تطبيق الشر يعة .

إن كشك ، مثله مثل قطب ، يضع علامات على طر يق دون أن يشير إلى نهايته . وفى أكتوبر ١٩٨١ لجأت قوى أخرى لقتال الطاغية فى محاولة لتحطيم الدولة .

الفصل السابع

إغتيال الفرعون

- التتر المعاصرون .
- الحرب المقدسة ضد الكفار .
- تنفيذ أوامر الله .
- قتل المسيحيين .
- إغتيال الفرعون .

في السادس من أكتوبر ١٩٨١ ، جلس أنور السادات ، مختالا في زيّه العسكري ، في المنصة الرئيسية المخصصة له ليشاهد العرض العسكري الذي خصص لإحياء الذكرى الثامنة لانطلاقة حرب أكتوبر ضد إسرائيل . وكان إحياء هذه الذكرى يتم غالبا في جو احتفالي خاص ، نظرا لأن ما حدث في أكتوبر ١٩٧٣ ، عندما عبر الجيش المصري قناة السويس وحطم خط بارليف الإسرائيلي في سيناء ، قد وَّطد من سلطات الرئيس . فعبور القناة مثَّل بالنسبة للسادات ما مثَّله التأميم بالنسبة لعبد الناصر : إنجاز ذو أهمية قصوى ، يمنح النظام الشرعية المطلقة . وفي كلتا الحالتين ، فإن هذه الشرعية كانت تستخدم بالتالي ، لإخماد ، أو لمحاولة إخماد ، أي نقد يوجه لفساد أو تقصير البيروقراطية ، أو لاحتكار السلطة من قبل فئة واحدة ، أو لاستمرار البؤس والتخلف .

وقد اختار أعضاء إحدى جماعات الإسلاميين المعروفة باسم « جماعة الجهاد » هذا اليوم المشهود للعمل ضد الدولة بأكثر الطرق المتاحة دراماتيكية : أي باغتيال الرئيس . حيث اجتمع في هذا اليوم ، في المنصة ، الجهاز السياسي المصري برمته ، وارتدى أفراده أزياءهم الرسمية . فبدوا وكأنهم غير حقيقيين ، مثل شخوص من الكرتون تجمدت في أوضاع رسمية ، ولم يكن لدى أحد من المصريين أدنى شك في

أن هذه الأبُّهة التى كان يقام بها هذا الاحتفال كان الغرض منها إلى حدما التشويش على الانتصارات اللاحقة التى حققها الهجوم المضاد للجيش الإسرائيلى عام ١٩٧٣ وتقدمه الحثيث نحو القاهرة .

وفجأة ، وعلى مرأى من كاميرات التليفزيون ، أخذت عربة مدفع عسكرية فى التوقف ، وقفز منها أربعة رجال ، وفتحوا نيران أسلحتهم الأوتوماتيكية على المنصة . والرجل الذى بدى فى أبهى صورة كان هو الذبيحة : حيث تناثر حرس الرئيس الخاص ، ولقى السادات مصرعه وسط حالة من الهلع لايمكن وصفها . ولو كانت القنابل التى ألقاها أحد المهاجمين قد أصابت هدفها ، لكان كل الموجودين فى المنصة فى ذلك اليوم قد لقوا نفس مصير الرئيس . وبعد أن مرت لحظات الصدمة والذهول ، عرف المصريون جميعا الملازم أول خالد الإسلامبولى ، قائد مجموعة الاغتيال ، كما عرفوا تلك الجملة التى قالها بعد أن أطلق النار وكانت تتردد فى كل مكان : « أنا خالد الإسلامبولى ، قتلت الفرعون ، ولا أخاف الموت » .

وقد تداولت الطبقات الغنية ، شريط الفيديو الذى صور عملية الاغتيال ، والذى وصل سعره إلى أرقام فلكية فى السوق السوداء ، حيث كان يعرض بشكل مستمر فى بيوت الأثرياء . ولم يحظ أى من قام بعملية اغتيال قبل ذلك بمثل هذا الإعجاب الذى حظى به خالد الإسلامبولى ، بينما قوبلت جنازة الضحية ، تلك الجنازة التى حضرها قادة العالم ، بغضبة علنية من قبل الشعب المصرى . فخالد قتل السادات فى أوج الغضبة الشعبية عليه ، بعد عام كان من أبرز معالمه أحداث الزاوية الحمراء فى يونيو وهجمة سبتمبر القمعية ضد المعارضة الدينية والعلمانية التى أسفرت عن ألف وخمسمائة معتقل . أى أن خالد الإسلامبولى ، فى نظر الرأى العام المصرى ، « اليد اليمنى » للإرادة الشعبية ، وليس مجرد عضو عسكرى فى جماعة إسلامية .

ومثَّل هذا العمل نجاحا مشهودا للحركة ، جاء بعد عقدين سادهما القمع والمواجهات الفاشلة مع الدولة . إلا أنه بعد السادس من أكتوبر ، وبعد الهجوم القصير الذى ولَّده تمرد الإسلاميين فى مدينة أسيوط فى ٨ أكتوبر ، ثبت أن هذا النجاح لم يكن سوى لحظة مسرحية . فالسادات خلفه نائبه ، ولم يحدث أى تغيير بنيوى فى الدولة يمكن أن يرضى حركة الإسلاميين . واشتدت الهجمة القمعية

الموجهة ضد الحركة ، وكأن هذه الحركة كتب عليها أن تظل ضعيفة ، وإذا استخدمنا المصطلحات التى تبناها سيد قطب ، فإن الحركة كانت تمر « بمرحلة ضعف » جديدة .

والجماعة التى انتمى إليها الإسلامبولى هى أكثر اتجاهات حركة الإسلاميين التى تعرضنا لها حتى الآن شهرة . حيث نمتلك بين أيدينا كتيبا وضعه المفكر الرئيسى للجماعة . وهو المهندس عبدالسلام فرج . وعنوان هذا الكتاب هو « الفريضة الغائبة » . والفريضة الغائبة هنا هى الجهاد ، أى تلك الحرب المقدسة التى يجب إعلانها على الحاكم الظالم ولكن العلماء بذلوا قصارى جهدهم لكى يحجبوها أو يغيبوها . وعلاوة على ذلك ، فقد نشرت الصحف اليومية المصرية قوائم مفصلة للمتهمين بعضوية الجماعة . وفى النهاية ، فقد باع أحد المحامين نسخة من التحقيقات التى أجريت مع المتهمين الرئيسيين إلى صحيفة لبنانية .

وقد شكّلت أيديولوجية وممارسة جماعة الجهاد تحولا عن الخط الذى تبنته حركة الإسلاميين منذ صدور « معالم فى الطريق » . حيث قدم كتاب « الفريضة الغائبة » نظرية وممارسة الجماعة فى صورة تقييم سلبى لمختلف أقسام حركة الإسلاميين . فالجهاد كما أوضح فرج . هو السعى لوضع حد لهذا السجل الحافل بالإخفاقات .

وفى رأى عبدالسلام فرج ، فإن كل أشكال الاستراتيجيات الانتقالية التى عبر عنها شكرى مصطفى ، والجماعات الإسلامية ، وأضرابهم ـــ كل منهم عمل على تجنب القمع المؤلم للدولة فى نفس الوقت الذى كان يقوم فيه بتدريب المجاهدين ـــ كان مصيرها الإخفاق فى النهاية . فشكرى مصطفى ، رغم كل احتياطاته ، قد انتهى إلى المشنقة عام ١٩٧٨ . ومن ناحية أخرى . فإن الطبيعة المعادية للإسلام للنظام لم تتغير منذ بداية حركة الإسلاميين . وهذا فى ذاته دليل على إخفاقها .

ويستوقف قارىء كتاب « الفريضة الغائبة » عدم اهتمام المؤلف بعملية إعادة بناء المجتمع التى تبنتها جماعة المسلمين أو الجماعات الإسلامية ، ورفضه لفكرة إعادة أسلمة المجتمع تدريجيا خلال رئاسة السادات . فالمساجد كانت تقام

فى كل مكان ، وتطبيق الشريعة الإسلامية يناقش فى مجلس الشعب ، والنساء المحجبات والشباب الملتحون أصبحوا من المناظر المألوفة فى الحياة العصرية ـ لكن ماكان يعنى فرج ، أن كل هذا ليس له أهمية طالما يقبض على السلطة حكام يعتبرهم خارجين على الإسلام .

هذه الأيديولوچية كرست كتابة بالتالى لمسألة السلطة والدولة ، دون أن يتعرض لأى تحليل للمجتمع . وفى بحثه عن نقطة الضعف فى فكر الإسلاميين منذ حسن البنا ـ أى استراتيجية الإستيلاء على السلطة ـ أرجع ذلك إلى الأولوية المطلقة للجهاد ضد الحاكم الظالم ، أى الحرب المقدسة فى صورة ثورة ضد النظام واغتيال رأس الدولة . وبهذا اختلف عبدالسلام فرج مع استراتيجية « معالم فى الطريق » ومع صورها المعدَّلة التى تعاقبت فى السبعينات .

● التتر المعاصرون :

قدم كتيب فرج برنامجا عمليا لتأسيس الدولة الإسلامية . وكان للكتاب أصالته التى لايمكن إنكارها ، رغم أنه فى نطاق جماعة الجهاد ، التى انقسمت إلى قسمين أحدهما فى القاهرة والآخر فى الصعيد ، لم يولى قادة القسم الأخير النص الذى قدمه عبدالسلام فرج والذى كان ينتمى لمجموعة القاهرى اهتماما كبيرا . فكرم زهدى ، زعيم العناصر النشيطة فى المنيا وأسيوط ، قرر فى التحقيقات أنه سمع أن « الفريضة الغائبة » لم يتضمن شيئا جديدا فى الواقع وأنه لم يكن سوى تجميع لمقتطفات أخذت عن عدد من العلماء .

ويستطيع أى قارىء عادى أن يخرج من الكتاب بالانطباع التالى : على النقيض من شكرى مصطفى الذى رفُض الحديث الشريف ككل ، استخدم عبدالسلام فرج الحديث كمصدر لتدعيم أفكاره الخاصة . وكان مرجعه المحورى نصا قصيرا للمفكر الكبير الذى عاش فى العصر الوسيط ، ابن تيمية ، وقد مكَّنه تفسيره لابن تيمية (أو تحريفه له ، على حد تعبير منتقديه) من البرهنة على الحقيقة التالية : رغم أن السواد الأعظم من الجماهير مسلحون الآن ، فإن حكامهم

يستخدمون اسم الله فقط لكى يحكموا بما يخالف المبادىء التى جاء بها القرآن .
فالنمط الذى يتبعه حكام المسلمين اليوم ، كما قال فرج ، هو الذى اتبعه التتار الذين استولوا على البلاد الإسلامية وطبقوا فيها نظاما قانونيا غير إسلامى ، أى « الياسق » . وكما أفتى ابن تيمية بضرورة الجهاد ضد الحاكم الذى يحكم وفقا لمبادىء التتار، أمر فرج بضرورة إعلان الحرب المقدسة ضد النظام الذى لم يكتف بأن لايحكم وفقا للشريعة الإسلامية بل طبق نظاما قانونيا زيفه المشرعون الغربيون .

بعد المقدمة التمهيدية المألوفة ، بدأ كتيب فرج كما يلى* « فإن الجهاد فى سبيل الله ، بالرغم من أهميته وخطورته العظمى على مستقبل هذا الدين ، فقد أهمله علماء العصر وتجاهلوه بالرغم من علمهم بأنه السبيل الوحيد لعودة ورفع صُرح الإسلام من جديد.. آثر كل مسلم مايهوى من أفكاره وفلسفاته على خير طريق رسمه الله سبحانه وتعالى لعزة العباد » .

« والذى لاشك فيه هو أن طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له .. » وإقامة الدولة الإسلامية وإعادة الخلافة قد بشّر بها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هذا فضلا عن كونها أمر من أوامر المولى جل وعلا واجب على كل مسلم بذل قصارى جهده لتنفيذه .. هو فرض أنكره بعض المسلمين ، وتغافل عنه البعض ، مع أن الدليل على فريضة قيام الدولة واضح بيِّن فى كتاب الله تبارك وتعالى « وان أحكم بينهم بما أنزل الله » و يقول : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

« و يبدو هنا تساؤل : هل نحن نعيش فى دولة إسلامية ؟ من شروط الدولة أن تعلوها أحكام الإسلام ...

---

* اعتمدنا فى المقاطع التى استشهد بها المؤلف من كتاب « الفريضة الغائبة » الذى وضعه المهندس محمد عبد السلام فرج على كتاب الأستاذ جمال البنا « الفريضة الغائبة .. جهاد السيف أم جهاد العقل ؟ » .

« وأفتى شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه « الفتاوى » ـ الجزء الرابع ـ « كتاب الجهاد » عندما سئل عن بلد تسمى « ماردين* » كانت تحكم بحكم الإسلام ثم تولى أمرها أناس أقاموا فيها حكم الكفر: هل هى دار حرب ؟ فأجاب : أن هذه مركب فيها المعنيان ، فهو ليست بمنزلة دار السلم ، التى يجرى عليها أحكام الإسلام ، ولا بمنزلة دار الحرب ، التى أهلها كفار، بل هى قسم ثالث ، يعامل المسلم فيها بما يستحق ، و يعامل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه ...

« فالسلم لمن يستحق السلم ، والحرب لمن يستحق الحرب .. فالدولة تحكم بأحكام الكفر، بالرغم من أن أغلب أهلها مسلمون ..

« والأحكام التى تعلو المسلمين اليوم هى أحكام الكفر... فبعد ذهاب الخلافة نهائيا عام ١٩٢٤ واقتلاع أحكام الإسلام كلها ، واستبدالها بأحكام وضعها كفار.. أصبحت حالتهم هى نفس حالة التتار كما ثبت فى تفسير ابن كثير لقوله سبحانه وتعالى ، فى سورة المائدة « ٥/ ٥٠ » (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

« قال ابن كثير** « ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم ، المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ماسواه من الآراء والأهواء والأصطلاحات التى وضعها الرجال بلامستند من شريعة الله » كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يصنعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم چنكيز خان . الذى

---

* مدينة ماردين ، مدينة تقع فى موقع جيد التحصين فى ملتقى طرق للقوافل التجارية شمال العراق . وقد حكمها المسلمون منذ سنة ٦٤٠م . وفى ١٢٦١م طلب الملك المغولى هوليجوخان **Hulegu Khan** من حاكم ماردين نجم الدين غازى سعيد ، أن يخضع له ، فأرسل حاكم ماردين له إبنه مظفر كرهينة ، إلا أنه لم يحافظ على حياده . فحاصر التتار المدنية فى السنة التالية ، وقتل مظفر والده لكى يضع حد المعاناة عامة الشعب . و بعد ذلك توجه المغول ملكا . وقد ورث نسله التاج والمظلة ، رمز الملكية . وقد كان مظفر حاكم مسلم بالوراثة . لكن عرشه كان يحميه الكفار الذى كان هو نفسه رهينتهم ، إلى حد أن شعارات السلطة (التاج والمظلة) كان لها نفس المعنى عند المغول . وهذا بالطبع ليس فى الإسلام .

** ابن كثير (١٢٠٠ ــ ١٣٧٣) فقيه إسلامى تأثر تأثيرا شديدا بابن تيمية .

وضع لهم الياسق ٥ ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، فيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله . فمن فعل ذلك فهو كافر ، ويجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه من كثير ولا قليل « ــ ابن كثير ــ الجزء الثاني ــ ص ٦٧ » .

« فحكام هذا العصر فى ردة عن الإسلام ، تربوا على موائد الاستعمار سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية ، فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء » .

الحرب المقدسة ضد الكفار:

قد يصيبنا الملل من الخوض فى هذه المقتطفات العديدة التى استشهد بها عبد السلام فرج من ابن تيمية . لكنها تشكل القسم الأكثر وضوحا من الجزء الأول من النص ، ومؤلف الكتاب لم يفعل شيئا سوى التسلل بين المقاطع العابرة التى تنطبق على مناسبات بعينها محاولا أن يجعل منها مناسبة للوقت الحاضر ومن ثم ليطبقها على مصر المعاصرة .

وقد أنكر كل المراقبين المصريين تقريبا مشروعية استخدام فرج لنص عالم الحديث العظيم . وحجتهم فى هذا أن عبد السلام فرج ، الذى قال عنه الشيخ كشك أنه « مفكر مراهق » « pubescent thinker » ، لم يفهم شيئا من النصوص التى أخذ منها مقتطفاته وأن هذه النصوص على أى حال لا يسرى مفعولها على وصف المجتمع أو الدولة فى مصر المعاصرة .

---

٥ الياسة (وتسمى أيضاً الياسق أو الجاسق) تصنيف جنكيز خان الذى جمع القانون العرفى المنغولى والقوانين والأعراف الشعبية . وقد تصور واضعها أنها ستكون مصدر إلهام لمعاصريه ومن سيأتى بعده . ولم يصلنا سوى القليل عن الياسة ، معظمها فقرات متناثرة ذكرها مؤلفون مسلمون لا يمكن الاعتماد عليهم . وقد خصص المقريزى (١٣٦٤ ــ ١٤٤١) عدة فقرات مشهورة لها ، وقال أن الصياغة العربية للكلمة حرفتها إلى (سياسة) ، وأصل هذه الكلمة فعلاً هو ياسة . أنظر مقالى :

«L'Egypte d'aujourd'hui : mouvement islamiste et Tradition savante, in Annales ESC, no. 4, 1984»

لماذا قرر عبدالسلام فرج أن يقيم دعوته على تعاليم ابن تيمية ؟ والماذا إختار نصا لم يكن واحدا من أشهر مؤلفاته ، ولم يكن سوى تجميع لفتاوى خصصت للرد على أسئلة تخص زمن معين ؟

وقد ولد ابن تيمية لعائلة من القضاة (١٢٦٣ ــ ٣٢٨) ونشأ فى أوج عصر المماليك فى وسط ثقافى كانت القاعدة فيه هى عدم مقاومة الظلم و« النشاط الفقهى الذى لاينازع فيه كان الجهاد فقط ، وهو الذى يتطلب أقصى جهد من كلٍ وأقصى التحام من الجميع . وقد أصبح عملا ينطوى على الندم الاجتماعى والانسحاب الفردى إلى الصلاة ، والصوم ، والعزلة » (٢٣) . والدوائر السياسية ــ التى هيمن عليها الأمراء ، وهم فى الأصل عبيد أتراك سابقون تعربوا جزئيا وتلقوا تربيه عسكرية خالصة ــ سعت لاكتساب الشرعية الإسلامية من العلماء ، الذين « جعلتهم روحهم الطيعة معتمدين تماما على طبقة الأمراء ، ولم يشاركوا على الإطلاق فى الثورات الشعبية ، التى ظلت على الدوام حركات اجتماعية افتقرت إلى الأيديولوچية وإلى التماسك » (٢٣) . ورغم أن سلطة العلماء كان لاغنى عنها لكفالة هيمنة الدكتاتورية العسكرية الأوليجاركية الغريبة عن الجماهير الشديدة التدين (٢٣) ، فإن المذهب القضائى للدولة المملوكية لم يكن الشريعة الإسلامية ، « والعلمنة٭ القانونية ... كانت علاوة على ذلك تزداد باضطراد من خلال فساد حكام معينين ، ومن خلال الأوضاع الفردية المجردة التى ينزع فيها السلاطين إلى العمل فى ظل المغريات الكافية للمزاج الشخصى ودون أى ضغوط ، وربما أيضا من خلال فساد ورشوة الهيئة الإدارية التى يبدو أنها كانت مُصِرَّة على استغلال القانون أكثر من خدمته » (٢٣) .

تلك كانت الأوضاع التى ظهر فيها ابن تيمية . وليس هناك سوى شك ضئيل فى أنه لولا الطابع الأجنبى للطبقة العسكرية ، لاستدعى هذا الوصف لمصر فى عصر المماليك المقارنة بالمجتمع المصرى المعاصر كما تراه حركة الإسلاميين .

وقد واجه ابن تيمية المجتمع الذى أدرك أمراضه بالفعل ، وأحد هذه الأمراض كان الظلم ، الذى أصبح الآن المبدأ الذى يعلو كل شيء ، مما ألحق الأذى

٭ المقصود هنا بالعلمنة النزوع إلى إضفاء الطابع الدنيوى على التشريع (المترجم) .

بوجدانه المسلم ، فوهب حياته وعمله للنضال من أجل استبدال « نظام الاستغلال الاجتماعى الذى قام على قاعدة الأقلية العسكرية ... بنظام آخر مثالى للتكافل الاجتماعى من أجل عزّة الإسلام » (٢٣)

وهذا النضال هو « الجهاد » الذى كان عقيدة ابن يتمية فى مجملها ، أو كما قال هنرى لوست Henri Loust ، كانت دعوته الدائمة والأبدية .

وقد خصص ابن تيمية أحد فصول رائعته « السياسة الشرعية » ، للجهاد ، « أفضل ما تطوع به الإنسان ، وكان ــ باتفاق العلماء ــ أفضل من الحج والعمرة ، ومن الصلاة التطوع ، والصوم التطوع ، كما دل عليه الكتاب والسنة » ٭ (٢٤) .

فطبيعة المرء الحقيقية كمسلم لا تظهر فى معاناة الصيام ولا فى الانسحاب إلى التقوى الفردية ، وإنما فى الجهاد : « فإن من الناس من يرغب فى الأعمال الشديدة فى الدين أو فى الدنيا ، مع قلة منفعتها ، فالجهاد أنفع فيها من كل عمل شديد » (٢٤) . ورغم أن الدمشقى الثائر قد وجه هذه الكلمات بشكل أساسى إلى هؤلاء الذين لجأوا إلى التصوف ، فمن المفهوم أن يلجأ رجل مثل فرج ، بعد أن قرأ النص ، إلى تطبيق نفس الكلمات على إخوته فى الدين ، الذين أضاعوا ، وفقا لرأيه ، وقتهم فى سعيهم لممارسة إسلام لم يكرس بشكل كامل للجهاد . وفى واقع الأمر ، كما سنرى بعد قليل ، فقد كان هذا هو النقد الرئيسى لمؤلف الفريضة الغائبة الذى أخذه على تجمعات الإسلاميين والتجمعات الإسلامية الأخرى .

وقد أجاز ابن تيمية ما يمكن أن نسميه « بالجهاد داخل المجتمع » ، حيث أكّد على أنه « ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أنه يقاتل من خرج عن شريعة الإسلام وإن تكلم بالشهادتين » (٢٤) . ولكن السياسة الشرعية لم تقرر بشكل واضح ما إذا كان هذا الأمر موجها بشكل أساسى إلى الحاكم أو إلى الثائر . فلجأ فرج بالتالى إلى نص أقل شهرة ، حدّد ملوك ماردين الكفار والتتار كأهداف يعلن عليها الجهاد . ومن ثم فقد ساوى فرج بين هذه الصور التاريخية و بين حكام اليوم .

٭ السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، طبعة دار الهلال ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، « المترجم » .

تلك كانت بعض عناصر حياة ونضال ابن تيمية الذى كان المجاهدون الإسلاميون المنتمون لجماعة الجهاد قادرين على استخدامه لإقرار مشروعية عملهم باسم تعاليم الإسلام . وسواء حرّفوا النص أم لم يحرفوه وهو السؤال الذى أثار جدلا عنيفا بين مختلف المعارضين على الساحة المصرية المعاصرة ، حيث ادعى كل منهم احتكاره للتفسير الشرعى أو « التقدمى » للفقيه الكبير . أما بالنسبة لنا فالمهم هو أن فرج قد شعر بأهمية اللجوء إلى سلطان ابن تيمية لإضفاء الشرعية على نضاله الخاص ، أى على اغتيال السادات .

تنفيذ أوامر الله :

إذا كان فرج قد اعتبر الجهاد جزء من تعاليم الإسلام الغائبة وأن عملية استعادتها هى المهمة التى ألقيت على عاتقه ، فقد قرر أيضا أنه ، أى الجهاد ، هو الطريق الوحيد الفعال للنضال من أجل تأسيس الدولة الإسلامية ، لأن كل الطرق الأخرى ، مهما تتطلب من تضحيات ، مآلها إلى الفشل .

وفى سعيه لحشد الأدلة على هذا الفشل ، صاغ فرج قائمة بالاتجاهات المختلفة فى حركة الإسلاميين كنماذج للصيغ المسلمة لإعادة بناء المجتمع فى مصر المعاصرة . فانتقد أولا الجمعيات الخيرية التى أسسها بعض المسلمين المصريين لتنظيم حياتهم اليومية بشكل تعاونى . وهذا النشاط الخيرى يتم تحت الإشراف التام لوزارة الشئون الاجتماعية ، رغم أن أنشطتها (الخدمات المحلية ، قراءة القرآن وتفسيره ، إلخ) تُدار من جانب أعضاءها وليس من خلال السلطات التنفيذية(٦) . وخلال رئاسة السادات ، أصبحت بعض هذه الجمعيات معامل تفريخ أخرجت الأعضاء الجدد لجماعات الإسلاميين الراديكالية . وقد أكد فرج على أن هذه الجمعيات الخيرية لم تقدم أى مساهمة تذكر للجهاد من أجل الإسلام :

« هناك من يقول إننا نقيم جمعيات تابعة للدولة تدفع الناس إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأعمال الخير ، والصلاة والزكاة وأعمال الخير تلك أوامر من الله عز وجل ، ولكن إذا تساءلنا هل كل هذه الأعمال والعبادات هى التى سوف تقيم

دولة الإسلام ، فالإجابة الفورية « هى لا » هذا بالإضافة إلى أن هذه الجمعيات خاضعة أصلا للدولة ، ومقيدة بسجلاتها ، وتسير بأوامرها » .

وبعد نقده لهؤلاء الذين سعوا إلى تقويم النفوس ، استمرت « الفريضة الغائبة » :

« هناك من قال إن علينا أن نقيم حزبا إسلاميا فى قائمة الأحزاب الموجودة .. ولن يستطيع حزبهم بلوغ الهدف الذى قام من أجله ، وهو تحطيم دولة ، بل على العكس ، فسيكون ذلك إسهاماً فى بناء دولة الكفر ، فهم يشاركونهم فى الآراء .. ويشتركون فى عضوية المجالس التشريعية التى تشرع من دون الله .. » وآخرون قالوا إن على المسلمين الاجتهاد فى الحصول على المناصب وأن تملأ المراكز بالطبيب المسلم والمهندس المسلم ، إلخ ، ومن ثم فسيتصدع النظام الكافر تلقائيا ودون مجهود وسيفسح الطريق أمام الحكم الإسلامى .. والمرأ لايحتاج لسماع هذا الزعم إلا مرة واحدة ليتحقق من أن هذا محض خيال » .

« ومازال البعض يقول إن الدولة الإسلامية ستقوم من خلال الدعوة وحدها ، وتكوين قاعدة عريضة ... وبالنسبة للبعض ، فهذا يساوى التحول عن الجهاد ، رغم أن الحقيقة هى أن القلة المؤمنة هى المطلوبة لقيام الدولة الإسلامية .. وعلى كل حال ، كيف للدعوة أن تحرز أى نجاح ووسائل الاتصال كلها يسيطر عليها النظام الكافر ، الذى أعلن الحرب على دين الله ؟ »

« والبعض يقول إن الطريق لإقامة الدولة الإسلامية هو الهجرة إلى بلد أخرى ، وإقامة الدولة هناك ثم العودة مرة أخرى فاتحين .. عليهم توفير الجهد ، وإقامة دولة الإسلام ببلدهم ، ثم يخرجوا منها فاتحين .. »

« ومثل هؤلاء من يقول : إنه سوف يهاجر إلى الجبل ، ثم يعود فيلتقى بفرعون ، كما فعل موسى ، وبعد ذلك يخسف الله بفرعون وجنوده الأرض .. وكل هذه الشطحات مانتجت إلا من جراء ترك الأسلوب الصحيح والشرعى الوحيد لإقامة الدولة الإسلامية .. »

« وفى النهاية ، هناك من قال بأن علينا الانشغال بطلب العلم ، إذ كيف سننتصر فى المعركة المقدسة دون علم ؟ .... فمن يحتج بعدم علمه بأحكام الجهاد

فعليه أن يعرف أن أحكام الإسلام سهلة وميسرة إن أخلص النية لله فعلى هذا ينوى الجهاد فى سبيل الله . و بعد ذلك فأحكام الجهاد تدرس فى سهولة و يسر وفى وقت قصير للغاية .. أما تأخير الجهاد بحجة طلب العلم ، فتلك حجة من لا حجة لـــه .

و بقراءتنا لهذه السطور ، نتعرف على الملامح المألوفة الآن للاتجاهات المختلفة فى حركة الإسلاميين المصرية . ففرج ينّبه الإخوان المسلمين الجدد ، الذين طالبوا بإلحاح فى عامى ١٩٧٦ و١٩٧٧ بإنشاء حزب إسلامى ، بأنه لايمكن لأحد أن يتمتع بالحصانة وهو يشارك فى نظام يسيطر عليه و يتلاعب به الكفار . أما هؤلاء الذين اعتمدوا على الدعوة وحدها ، مثل كشك ، فقد رد عليهم فرج بأن النظام سيكون قادرا على الدوام على أن يتخلص من صوت الداعية كلما حانت الفرصة له . ورد على الجماعات الإسلامية ، التى كانت عاجزة عن الحركة خارج أسوار الجامعات والتى كان يحلم بعض أعضائها بالتغلغل داخل جهاز الدولة فى محاولة لتقويضه من الداخل ، بأن العلم لايجب أن يضعف من العزيمة وأن العمل فى أجهزة الدولة سيقوى تلك الدولة فى النهاية ، كما أكد شكرى لهؤلاء الذين اتبعوا شكرى مصطفى فى هجرته أن هذا الطريق ليس سوى ذريعة لتجنب الالتزام الصارم بالجهاد .

ويجب التسليم بأن فرج ، لكى يوقف هذا السجل الحافل بالإخفاق ، قد لمس بدقة بالغة العامل الرئيسى لافتقار أسلافه إلى النجاح : أى عجزهم عن طرح مسألة الاستيلاء على السلطة .

ولايعنى هذا أن دلالة الجهاد قد استخف بها أسلافهم مثل البنا ، والمودودى ، وقطب ، حيث كانت نصوصهم الهامة التى عالجت مسألة الجهاد المقدس فى سبيل الله توزع بشكل واسع فى شكل كتيبات من خلال الطلبة الإسلاميين فى السبعينات . لكن حركة الإسلاميين ، حتى ظهور فرج ، ظلت تعانى من جراح القمع : فذكريات مذابح ١٩٥٤ و١٩٦٥ كانت ماتزال ساطعة . ومن ناحية أخرى ، لم تقر جماعة الجهاد ديالكتيك مرحلتى الاستضعاف والتمكن . ولأن كل

هذه السبل كانت تؤدى إلى المشانق والمعتقلات ، فإن ماتحتاجه الجماعة قبل أى شيء آخر هو الهجوم الأكثر سرعة بقدر الإمكان على الدولة الكافرة ، والاستيلاء على السلطة .

وكان من الصعب تغيير قرار فرج . فقد بشر بالجهاد كنضال عسكرى مباشر ضد الحاكم الظالم . وهذا ، كما قال ، واجب على كل المسلمين ، والهدف الأول يجب أن يكون العدو الداخلى ، وأما الأعداء الخارجيين فيأتى دورهم بعد ذلك :

« بالنسبة للأقطار الإسلامية فإن العدو يقيم فى ديارهم ، بل أصبح العدو يمتلك زمام الأمور ، وذلك العدو هم هؤلاء الحكام الذين انتزعوا قيادة المسلمين ، ومن هنا فجهادهم فرض عين » .

و يوضح هذا التأكيد كيف كان فرج مهتما بأن يضع عمله داخل إطار التراث الإسلامى . ففرض الجهاد نوعان . عندما يكون مرتبطا بحرب الفتح خارج أقاليم الإسلام ، يصبح « واجبا جماعيا (فرض كفاية) : حيث أن بعض المسلمين يكفلون إنجازه ، بينما يعفى البعض الآخر منه » . ومن ناحية أخرى ، « عندما يُهاجَم المسلمون ، تصبح الحرب حربا دفاعية ، ومن ثم تشكل واجبا يفرض على كل مؤمن (فرض عين) ، حتى على هؤلاء الذين لم يتعرضوا للهجوم بشكل شخصى » (٢٤) . وهنا كان العدو داخل أرض الإسلام نفسها . والحاكم المطلق يجب أن يحارب كما حورب الصليبيون الذين غزوا البلاد بالضبط : من خلال تعبئة ليست فقط عامة بل شاملة . وهذا هو الفرق بين قتال العدو الداخلى والعدو الخارجى .

« وهناك قول بأن ميدان الجهاد اليوم هو تحرير القدس ، كأرض مقدسة ، والحقيقة ، أن تحرير الأراضى المقدسة أمر شرعى واجب على كل مسلم ولكن :

أولا : إن قتال العدو القريب أولى من قتال العدو البعيد .

ثانيا : إن دماء المسلمين التى ستنزف ، حتى وإن تحقق النصر . فالسؤال الآن : هل هذا النصر لصالح الدولة الإسلامية القائمة ؟ أم أن هذا النصر هو

لصالح الحكم الكافر القائم ؟ وهو تثبيت لأركان الدولة (الخارجة) عن شرع الله؟ .. فالقتال يجب أن يكون تحت راية مسلمة وقيادة مسلمة ، ولا خلاف في ذلك * .

ثالثا : إن أساس وجود الاستعمار في بلاد الإسلام هم هؤلاء الحكام فالبدء بالقضاء على الاستعمار هو عمل غير مجدى وغير مفيد ، وما هو إلا مضيعة للوقت . فعلينا أن نركز على قضيتنا الإسلامية وهى إقامة شرع الله أولا في بلدنا . وجعل كلمة الله هى العليا .

وتذكرنا هذه السطور بإجابة شكرى مصطفى على سؤال المحكمة عن الموقف الذى ستأخذه الجماعة إذا غزت « القوات اليهودية » مصر : « إذا وصل اليهود أو غيرهم فإن الحركة لن تسعى للحرب في صفوف الجيش المصرى ، بل عليها أن تذهب بنفسها إلى مكان أمين » . وبمعزل عن الاختلاف الجذرى بين تكتيك « العزلة » (أو الانسحاب) الذى دعى إليه شكرى مصطفى والجهاد الذى شدد عليه فرج ، فقد كان هناك تطوراً في طابع الحديث عن إسرائيل ، حيث كان نوفمبر ١٩٧٧ هو الحد الفاصل . فقبل ذلك اليوم كانت الدولة هى التى تصر على الحرب ، بينما أشرعت التجمعات المعارضة بعد هذا التاريخ نفس النداء ، اليسار باسم محاربة « رأس الجسر الذى وضعته الامبريالية في الشرق الأوسط » . والإخوان المسلمون الجدد وجزء من حركة الإسلاميين باسم « تحرير الأماكن المقدسة » . وقد وجه فرج خطابه إلى المعارضة ، في حين تحدث شكرى مصطفى إلى الدولة .

ولم يعلق مؤلف الفريضة الغائبة أى آمال على الدولة ، التى كانت في تناقض شديد مع الموقف الساذج سياسيا لجماعة المسلمين . ونظر بازدراء أيضا لهؤلاء الذين اعتبروا الامبريالية هى المسئولة عن كل مشاكل مصر . واعتبر أن أى شىء غير قتال الطاغية هو مجرد لغو في أفضل الأحوال وتغرير للنظام في أسوأها من خلال تحويل اتجاه الطاقات إلى الخطابة التى لاطائل منها أو تجاه أهداف تافهة ، تلك الطاقات التى يمكن توجيهها بشكل افضل . وفي الواقع ، فإنه حتى إذا تعرض

* ينتقد فرج هنا هؤلاء الإسلاميين الذين رحبوا بالقول بأن النصر في حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد تم باسم القرآن .

هذا الجهاد للهزيمة ، فإننا يجب أن نحاول ولا شيء غير هذا : « إن إقامة الدولة الإسلامية هو تنفيذ لأمر الله ، ولسنا مطالبين بالنتائج ... بمجرد سقوط الحكم الكافر فكل شيء سوف يصبح بأيدى المسلمين .. »

وفى النهاية ، يجب ملاحظة أن التنظيم الذى أسمته الصحف المصرية « جماعة الجهاد » يفتقر فى واقع الأمر إلى درجة الالتحام التى نتوقعها من جماعة تخطط لاغتيال رأس الدولة . وهذا لا يعود فقط لوجود فرعين منفصلين ــ واحد فى القاهرة والآخر فى الصعيد ــ كانا فى أفضل الأحوال يتعاونان دون أن يسود أحدهما الآخر ، بل لأن الاغتيال نفسه لم يقر إلا قبل عشرة أيام من تنفيذه . والمحرك الرئيسى له كان خالد الإسلامبولى ، وقد حظى بموافقة « مجلس شورى التنظيم » ، الذى كان يواجه فى الحقيقة أمرا واقعا .

● قتل المسيحيين :

كما كان كتيب فرج مجرد نتاج رؤية نقدية لحركة الإسلاميين ، كذلك كان مجاهدو جماعة الجهاد مجرد أطفال ضائعين babes- in- the wood والإشارة هنا تعود على ظاهرة الخروج من جماعة إلى أخرى ، وخاصة فى حالة شكرى مصطفى وتهديداته بعقاب الخارجين من جماعته على أنهم مرتدين . وأفضل رؤية لحركة الإسلاميين ، التى وصفها فرج بأنها « حقل الذين يعملون من أجل الإسلام » ، رؤيتها على أنها سديم من جماعات صغيرة تتأرجح أيديولوجيا بين فرج وشكرى من ناحية والتلمسانى من ناحية أخرى . واللحظة التى يحترق فيها أى نجم فى هذا السديم خاصة ما إذا صاحب هذا الاحتراق بريق أخاذ ، هى اللحظة التى سيجذب حوله هالة من المجاهدين الهائمين فى حركة الإسلاميين .

فبعد رحلة السادات إلى القدس ، ضاعفت الجماعات الإسلامية من هجومها الكلامى على النظام ، إلا أنه لم يطرح أى عمل حقيقى على هذه التجمعات : حيث أخذ نزوع الجماعات إلى العنف شكل العمل الجسدى ضد كل ما شكّل بالنسبة لهم جرائم أخلاقية ، اصطحاب الشبان للفتيات ، والحفلات الموسيقية ،

وعرض السينما ، .. إلخ . وقد حولت هذه الأعمال حرم الجامعات إلى أرض إسلامية ، لكن رغم هذا كان هناك هوة عميقة تفصل بين القول والفعل ، ذلك الفعل الذى أدركه مجاهدو جماعة الجهاد فيما بعد .

أى أن نشأة جماعة الجهاد جاءت من الانقسامات فى الجماعات الإسلامية وكانت واضحة بشكل خاص فى الصعيد . فأمير الجماعات فى أسيوط ، ناجح إبراهيم عبدالله سيد ــ الرجل الذى عرفه وادى النيل بأكمله باسم ناجح فقط ، وهو خطيب موهوب ذو فصاحة بليغة ، وظهر بشكل خاص فى الخطب التى كان يلقيها فى استاد الجامعة أثناء العيدين * ــ أصبح أحد قادة جماعة الجهاد ، والرابع فى قائمة المتهمين . وقائد فرع الصعيد ، كرم زهدى ، الذى كان يعيش فى المنيا ، كان على اتصال بفرج من خلال طالب من الإسلاميين كان يقابله بانتظام فى لقاءات الجماعات . وفى النهاية ، كان محمد الإسلامبولى ، شقيق الملازم أول خالد الإسلامبولى ، قائدا للجماعات فى كلية التجارة بجامعة أسيوط . وفى واقع الأمر ، فكما كان إعدام الدولة القيصرية لأخيه هو الدافع الذى حرك لينين نحو العمل ، فإن خالد قرر أن يقتل السادات بعد أن علم بالظروف التى يعيش فيها أخوه وهو رهن الاعتقال ، حيث أن محمد الإسلامبولى كان واحدا من ١٥٣٦ معتقل قبض عليهم فى بدايات سبتمبر ١٩٨١ بعد أحداث « الفتنة الطائفية » .

وقد قالت أم خالد بعد ذلك فى مقابلة مع إحدى المجلات الأسبوعية : « عندما سمع خالد الأخبار ، انفجر خالد فى البكاء وقال لى « لماذا قبض على أخى ، الذى لم يرتكب أى جريمة » وظل يبكى كثيرا حتى أصيب بالتشنج . وبعد أن هدأ قال لى ، « كونى صبورة ، يا أمى ، إنها ارادة الله .. وكل طاغية وله نهاية » .

وكان تعطش جزء من مجاهدى الجماعات الإسلامية لعمل أكثر جذرية وتحررهم من تردد الجماعات وافتقارها إلى استراتيجية قومية هو الذى شجعهم على

---

* أنظر الفصل الخامس .

الاجتماع معا فى جماعة الجهاد ، والتى قدمت لهم إمكانية العمل السّريع والعنيف . وهذه الظاهرة يمكن ملاحظتها بشكل خاص فى الصعيد ، حيث كان ٦٤٪ من أعضاء الجماعة طلابا (بينما ٣٦٪ فقط كانوا يشغلون وظائف خارج الجامعة) . بينما كان الطلاب فى القاهرة ، من ناحية أخرى ، أقلية داخل الجماعة . وقد يرجع هذا إلى نفوذ عبدالسلام فرج ، الذى تولى تجنيد الأعضاء من بين الشباب الذين كانوا يرتادوا مساجد « المجاهدين » فى حى بولاق الدكرور فى الضواحى الغربية من العاصمة .

وفى هذا الحى الذى كان معظم أبنيته دون المستوى ، وكان يعيش فيه آلاف المهاجرين من الريف ، والذى كان أقل من ٣٠٪ من منازله فقط هى التى لديها مياه وصرف صحى ، إعتاد فرج إلقاء خطبة الجمعة فى أحد المساجد الأهلية الذى بناه نسيب له . وخلال المناقشة مع مستمعيه ، كان يحدثهم عن ضرورة الجهاد المسلح لتأسيس الدولة المسلمة ، وبعد تبادل الزيارات ، ينجح فى استمالة عدد منهم . وفى المقابل يقدمونه لأصدقائهم وأقربائهم ، وهم الذين يصبحون بالتالى مرشحين للتجنيد . وقد تكون تنظيم القاهرة من خمس أوست مجموعات ، لكل منها أميرها الخاص . و يتقابل الأمراء أسبوعيا ليرسمو الاستراتيچية العامة . و يبدو أن كل امير كان يحتفظ بدرجة من الاستقلالية ، وأن فرج لم يكن يمارس ذلك النوع من السلطة ، الذى هيمن به شكرى مصطفى على جماعة المسلمين ، على أعضاء الجماعة ، و بدرجة أقل على الأمراء ، سواء كان سبب هذا افتقاره للقدرة أو افتقاره للإرادة .

وقد تقابل فرج مع كرم زهدى ، الذى كان رأس العناصر الإسلامية النشيطة فى الصعيد ، لأول مرة ، فى عام ١٩٨٠ . ووفقا لرواية مؤلف الفريضة الغائبة ، فإن فرج هو الذى أقنع كرم زهدى بأن الجهاد المسلح ضد الحاكم الظالم ــ والذى كان يعنى فى هذه الحالة اغتيال السادات ــ هو الشرط الهام والكافى لتأسيس الدولة الإسلامية . ووفقا لكرم زهدى ، الذى لم يقدر فرج تقديرا كبيرا ، فإن هذا اللقاء لم يضف له شيئا جديدا . حيث كان رأيه ، أن الجهاد واجب يؤيده كل

الدعاة المستقيمين ، إلا أنه يجب إعلانه أولا وقبل كل شيء على المسيحيين ، و بعد ذلك على الرئيس ، الذى اعتبره رهينتهم .

ورغم عدم التعاطف بين قادة القاهرة وقادة الصعيد ، إلا أن اللقاءات كانت تتم بينهم بشكل منتظم ، و بالتناوب فى أرض كل منهم مرة . وفى يونيو ١٩٨٠ قرروا أن ينسقوا أنشطتهم ، مع احتفاظ كل منهم بحرية العمل داخل منطقته . ولضمان اتفاقهم ، طلبوا من الشيخ عمر عبدالرحمن ، وهو أستاذ ضرير فى جامعة الأزهر بأسيوط ، أن يصبح مفتى الجماعة .

وكان للشيخ روابط بكرم زهدى منذ ١٩٧٤ ، عندما كان الأخير عضوا فى الجماعات الإسلامية ، التى كانت تدعو الشيخ بانتظام لإقامة الندوات فى المنيا وأسيوط . وقد كان الشيخ ، من فرط التزامه بالسنة ، يمنع تلميذاته من سؤاله أى سؤال ، و يصر أن يقوم بذلك زملاءهم الذكور . فرغم أن إصابته بالعمى كانت تحميه من « الزنا » بالعين ، إلا أنه كان يخاف من ارتكاب الزنا بالأذن ، من خلال سماع صوت امرأة محرمة عليه .

وفى ربيع ١٩٨١ وافق الشيخ على العمل كمفتى للجماعة . و بينما مثل فرج وزهدى السلطة التنفيذية ، أوسلطة الخلافة ، كان مفتيهم يصدر الفتاوى التى تمنح الشرعية لكل أعمالهم . أى أنه كان أزهرهم . وعندما كان يسمع المجاهدون الشباب هذه الفتاوى ، يتأكدون من دخولهم الجنة فى حالة انضمامهم إلى الجهاد المسلح أوفى حالة قتلهم الصياغ الأقباط خلال السرقات التى كانوا يقومون بها من أجل تمويل التنظيم .

وقد اختلفت رؤية مجاهدو القاهرة للمسيحيين عن رؤية مجاهدى الصعيد . حيث قررت مجموعة القاهرة أن الهدف الرئيسى للجهاد هو تدمير الدولة الكافرة . أما مسألة المسيحيين فستتم معالجتها بطريقة أو بأخرى مع الأيام ، ولا توجد تفصيلات أكثر عن المصير الذى ستقدمه « الدولة الإسلامية » فى المستقبل . بينما اعتبر زهدى وأصدقاؤه ، من ناحية أخرى ، أن التبشير المسيحى هو العقبة الرئيسية أمام انتشار الإسلام .

« إن ما أراه هو أن المسيحيين يتركزون فى المنيا وأسيوط وأنهم قد استغلوا ميزة كثرتهم العددية ليقيموا البراهين على قوتهم وتفوقهم . إن لديهم أسلحة ، وهذا ما دفع الشباب المسلم لأن يقاوموا بشدة بعثات التبشير من أجل وضع حد لتظاهر الصليبيين بالتفوق ... وتتضمن هذه العمليات توزيع الكتيبات النصرانية ، والبيانات ، وشرائط الكاسيت التى تهاجم العقيدة الإسلامية وتحرض الشباب على اللجوء للكنيسة ، وذق النواقيس ∗ بشكل مستمر وفى أوقات غير مناسبة ، وقرع الأجراس أثناء الآذان ، وتنظيم الرحلات الكشفية والإتحادات المسيحية لإظهار قوتهم ، ولدرجة توزيع نسخ من العهد الجديد فى حرم الجامعات وفى المقاهى ، كما يفعلون فى المنيا . وهذه هى الطريقة التى يظهر بها التبشير الصليبى نفسه ... والمسيحيون لديهم الكثير من المال .. وقد استخدموه لشراء السلاح ، الذى خزّنوه ، بقدر ما نعلم ، فى منازلهم وفى الكنائس ، فى انتظار اليوم الذى سيخرجون فيه ، كما فى لبنان ، لتحويل مصر لدولة قبطية عاصمتها أسيوط ، كما ذكر الرئيس السابق » .

س : هل تعنى إجابتك السابقة أن أسلوب انتشار الإسلام قد تحول من الدعوة للجهاد ؟

جـ : إنه أمر طبيعى ، ففى أعقاب هذه الأحداث المتتالية ، كان للدعوة أن تتضمن كل شىء . يجب علينا أن ندعو الشباب للاستعداد للجهاد ، بما فى ذلك الاستعداد لمواجهة المؤامرة الواضحة التى يديرها النصارى دون أن يكون الشباب المسلم جاهزا لها » .

تلك كانت إجابات كرم زهدى على أسئلة المحقق .

وكانت الرغبة فى الانتقام من المسيحيين قد تأججت بشكل خاص فى أعقاب « أحداث الفتنة الطائفية » التى وقعت فى صيف ١٩٨١ فى الزاوية الحمراء ونزولاً على هذه الرغبة أصدر الشيخ عمر عبد الرحمن فتوى فى وقت مناسب تماماً :

∗ قضبان خشبية تطرق لدعوة المسيحيين للتجمع .

فكما قال كرم زهدى « فى وقت أحداث الزاوية الحمراء أصدر فتوى فى نصارى مصر، الذين رفعوا السلاح ، وأطلقوا النار على المسلمين ، واستولوا على مسجد . وقرر أنه إذا كان المسيحى يمد يد العون للكنيسة بالمال بغرض إصابة المسلمين بالأذى ورفع السلاح ضدهم ، فإنه من الجائز شرعا حرمانه من حياته وأملاكه . وإذا رفع السلاح فقط ، فمن الجائز أخذ حياته فقط ، وإذا كان يساعد الكنيسة بالمال فقط ، فيكفى أخذ أملاكه . وبعد ذلك اجتمع مجلس الشورى (الخاص بفرع الصعيد) فى أسيوط وقرر الأخذ بالثأر من المسيحيين . واقترح على الشريف أن يكون مكان هذا العمل فى نجع حمادى ، حيث يوجد عدد من الصاغة المسيحيين المتعصبين الذين رفعوا السلاح ضد المسلمين وقدموا مساعدة مالية لايستهان بها للكنيسة ، وهو المال الذى اشتروا به السلاح . وقد ذهبنا ، وهاجمناهم ، وقتلناهم ، وأخذنا الغنيمة التى اشترينا بها السلاح للتنظيم .. لقد قتلنا ستة مسيحيين ورجعنا بالغنيمة التى تكونت من خمسة كيلوجرامات من الذهب وثلاثة آلاف جنيه مصرى* .

وقد صدم العنف المفرط لهذه الكلمات الضباط الذين استجوبوا زهدى . فسألوه عما إذا كان يعلم أن القرآن قرر أن المسيحيين (واليهود) هم « أهل الكتاب » الذين لهم منزلة خاصة فى أرض الإسلام ، أى أهل الذمة . ورد زهدى على هذا السؤال بتفسير بالغ الأصولية للقرآن :

« فى الشرع يسمى المسيحيون واليهود « الذين كفروا من أهل الكتاب » وقال الله تعالى « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » وقال أيضا « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم » . وهذا يعنى ، وفقا لتفسيره ، اليهود والمسيحيين . والمقصود بتعبير « الذين كفروا من أهل الكتاب » هم أهل الكتاب ، لأنهم لم يؤمنوا بهذا الكتاب » .

---

* كان فرع الجماعة بالقاهرة يمول بنفس الطريقة ، فقد قام بسرقة صائغ مسيحى خلال رمضان فى وقت الإفطار ، رغم أنه لم يقتل أحد .

فبالنسبة لزهدى ، أنشط عناصر الصعيد ، كان المسيحيون كفار ، ومن ثم فهم أهداف مناسبة للجهاد ، للحرب المقدسة فى سبيل الله ، حتى قبل الطاغية . أما بالنسبة لفرع القاهرة فقد كانت الأولوية للنضال ضد السادات . والاختلاف بين الفرعين الإقليميين كان نتيجة لعدد من العوامل ، أقلها عدم التجانس فى التجنيد . فقد ارتبط مجاهدو الصعيد ، الأعضاء السابقون فى الجماعات الإسلامية ، والذين يشبهون الطلبة الإسلاميون الذين كتبوا منشورا ووزعوه فى المنيا عام ١٩٨٠ * ، بشدة بالبيئة الاجتماعية للمناطق الريفية النائية وقاسموا هذه البيئة ردود الأفعال التقليدية مثل عادة الأخذ بالثأر. وبالتالى أصبح الأقباط ، الذين تجاوز وزنهم العددى فى الصعيد « حد تسامح » الإسلاميين ، هدفا أكثر إلحاحا بكثير بالنسبة للمجاهدين من الطاغية ، الذى لاح وكأنه هدفا بعيدا وصعب المنال . فزهدى ورفاقه كانوا قد شكلوا جماعة ارتبطت بجذور عميقة بالعائلات المسلمة المحلية ، وإذ كانت روابطهم التقليدية قد جعلتهم ينزعون التزييف مقولة الجهاد بالشكل الذى حددها به فرج ، فإن هذه الروابط نفسها هى التى مكنتهم من استغلال الانتماءات العائلية المتزمتة التى أثبتت نفعها إلى حد كبير فى ٨ أكتوبر ١٩٨١ ، عندما سيطرت الجماعة على مدينة أسيوط . وعلى عكس ذلك ، قررت جماعة القاهرة العمل ضد الطاغية أولا وقبل كل شيء ، ولم تعلق أهمية كبيرة على الأقباط . لكنهم لم يكن لديهم شبكة من المتعاطفين والمؤيدين ، وعملهم المنفصل ــ اغتيال السادات ــ لم يعقبه أى اندفاع للجماهير المسلمة فى شوارع القاهرة بالصورة التى كان فرج يسعى إليها .

• إغتيال الفرعون :

كان خالد الإسلامبولى هو الذى اتخذ قرار اغتيال السادات . ووقت الاغتيال كان فى الرابعة والعشرين ، حيث ولد لعائلة من وجهاء ملوى ، وهى مدينة لا تبعد كثيرا عن المنيا ، فى صعيد مصر . وكان والده محاميا ويشغل وظيفة

---

* أنظر الفصل الخامس .

مستشار قانوني في شركة وطنية كبيرة لتقطير السكر في نجع حمادي . وقد كان خالد متفوقا في المرحلة الثانوية ، حتى أن الدرجات التي حصل عليها في الثانوية العامة كانت تؤهله لدخول كلية الطب ، لكنه بدلا من ذلك اختار أن يلتحق بصفوف الجيش حتى يحقق حلم طفولته في أن يصبح طيارا . لكنه فشل في الإلتحاق بالكلية الجوية ، ومع هذا ، فقد التحق بالكلية الحربية ، وعين في سلاح المدفعية ، برتبة ملازم أول . وكان الضابط الصغير ، الذي عاش في الثكنات ، مثل العديد من الطلبة ، يذهب إلى منزل أسرته كل يوم جمعة لكي يغسل ملابسه .

وفي ٣ سبتمبر ١٩٨١ عاد إلى منزل والديه لكي يلتم شمل العائلة . وهناك علم أن أخيه محمد ، قائد الجماعات في كلية تجارة أسيوط ، قد قبض عليه في الليلة السابقة في حملة اعتقالات شملت أكثر من ألف وخمسمائة معارض أمر بها السادات . وقد سحب محمد من فراشه وهو في ملابس النوم و« أخذ بعيد » . وبعد أن سمع خالد القصة ، انتابته ثورة عارمة . وأخبر والدته أنه سيسعى للثأر ، وأن « كل طاغية وله نهاية » .

وقبل تسعة أيام من العرض العسكري في السادس من أكتوبر ، شرح خالد ، الذي كان عضوا في جماعة فرج ، خطته لقائده : أي قتل السادات خلال العرض .

وكان خالد قد تم تعيينه كقائد لعربة نقل مدرعة ومن ثم فقد خطط لاستبدال ثلاثة من الجنود المعينين للركوب معه بثلاثة من زملائه . وعند مرور العربة أمام المنصة ، هكذا شرح خالد خططه لفرج ، سيوقفها باستخدام فرملة اليد (لم يكن السائق من بين المتآمرين) ويقفز منها الرجال الأربعة ، ويلقون بقنابلهم اليدوية ، وبعدها يفتحون نار مدافعهم الرشاشة على مكان الرئيس . وكل المطلوب منهم الآن توفير القنابل والذخيرة .

وطبقا للبيان الذي قدمه خالد أثناء محاكمته ، فإن اغتيال السادات كان نتيجة منطقية لاستدلالات فرج عن التتار . وبقدر مايبدو هذا مؤكدا ، فإن

اغتيال السادات قد يرجع إلى أن الإطار النظرى للاغتيال قد رسخته طريقة التفكير المعروضة فى كتاب فرج ، أوإلى رغبة خالد فى الثأر من اعتقال أخيه ، أوإلى هذه الفرصة التى أتاحها اشتراك الضابط الشاب فى العرض العسكرى الذى سيحضره رئيس الدولة .

وقد تحمل فرج مسئولية توفير القنابل والذخيرة . وفى النهاية ، تم شراؤها من دوائر مهربى السلاح ومن خلال وسطاء كانوا مجاهدين سابقين فى حركة الإسلاميين (ودفع ثمنها من ثمن الغنيمة التى أخذوها من الأقباط) ، وهذا مايظهر بوضوح تلك الروابط التى خطط المعارضون لإقامتها مع العالم السفلى التقليدى .

وفى ٢٦ سبتمبر أقيم اجتماع فى صفت اللبن ، وهو حى بائس من أحياء القاهرة . حضر فيه أمراء مجموعات القاهرة وبعض قادة الصعيد ، الذين تم استدعائهم بشكل خاص لهذه المناسبة . وبعد أن عرضت الخطة ، نشب حوار ساخن بين كرم زهدى وعبود الزمر حول مسألة قدرة التنظيم على التحرك المباشر من اغتيال السادات إلى « الثورة الشعبية » التى كان من المفترض أن تنبثق منها الدولة الإسلامية ، وبينما أكد زهدى على قدرته على السيطرة على أسيوط ، كان لدى عبود شكوك كبيرة حول قدرة فرع القاهرة على شل المراكز العصبية فى العاصمة . وكان عبود ضابطا بالقوات الجوية فى الخامسة والثلاثين من عمره وتلقى تدريبا على وسائل الأمن الحربى . وفى التحقيقات ظهر عبود كشخصية قوية ، أكثر نضجا من زملائه المتهمين . وبينما استمر فرج فى شرحه لابن تيمية بشكل متصل ، وجد زهدى متعته فى العنف ، وبدا الإسلامبولى متهورا فى قراره القيام بعمل يتطلب شجاعة عظيمة مع عدم تفكيره فى العواقب ، أظهر عبود ، على النقيض منهم ، عقلا منهجيا قادرا على تقييم اللحظة بشكل هادىء على أساس مخاطرها ونتائجها . فتدريبه العسكرى وخبرته فى القيادة كانت بلاشك عوامل هامة فى تشكيل رؤيته هذه ، وكان مدركا تماما لتفوقه بجلاء فى هذا المجال . وخلال التحقيقات الأولية أقر مسئوليته عن « تنفيذ » عمليات الجماعة . وعلى

الأرجح ، أنه لم يستطيب أن يرى الملازم أول خالد الاسلامبولى الذى يصغره بأحد عشر عاماً يقحم مجال تخصصه .

وفى واقع الأمر ، كان عبود يشبه إلى حد كبير الضباط الأحرار الذين كانوا فى الثلاثينات من عمرهم ، مع أنه كان يتمتع بشعور دينى جارف لايدانيه فيه أى من متمردى ١٩٥٢ . فهو الذى انحدر من أسرة من وجهاء الريف ، انسلخ من طبقتهم ، وأخذ على عاتقه « مهنة » عصرية ، وهى رفع السلاح ضد الدولة باسم قيم الإسلام . ولم يغفل قاضى التحقيق خطورة وجود ضابط مخابرات حربية بين قادة مؤامرة للإسلاميين ، وقد كان متهما بشكل خاص بمعرفة الكيفية التى انتمى بها العديد من ضباط الجيش والبوليس للتنظيم . ورغم أنه كان ضابطا ، إلا أنه لم ينس أن الحكام الكفرة الذين ثار عليهم هو وأصدقاؤه قد جاؤا أساسا من الجيش ، ومن ثم فقد أشبع فضول قاضى التحقيق .

س : مَن مِن الضباط من القوات المسلحة والبوليس كان عضواً فى تنظيمك » ؟

جـ : « عدد صغير جدا من ضباط الاحتياط . فنحن لم نسع لتجنيد ضباط الجيش ، إلا أن هذا كان يحدث أحيانا . إلا إذا قابلنا واحدا فى المسجد واكتشفنا بمحض الصدفة أن الشخص الذى نحدثه كان ضابطا » .

س : « لماذا لم تحاول أن تكسب مجندين من القوات المسلحة » ؟

جـ : « خططنا كانت تعتمد على الثورة الشعبية ، وإعداد الجماهير لهذا الهدف . وأنا أعتقد أن الثورة الشعبية ستحل مسألة القوات المسلحة والبوليس ، لأنه من المستحيل بالنسبة لهم أن يوجهوا بنادقهم للجماهير » .

س : « استمر وأوضح » . .

جـ : « أوضحت التجربة الإيرانية أنه فى حالة حدوث الثورة الشعبية ، يصبح من المستحيل على الجيش والبوليس قتال الجماهير الشعبية التى تريد تطبيق

شريعة الله . ومن ثم ستحدث انقسامات فى القوات المسلحة ، وستنضم أقسام منها إلى الثورة الشعبية والسلاح فى يدها ، دون أى حاجة لتجهيزها لذلك ، وهكذا ، تكتسب الثورة القوة » .

وقد أدى إصرار عبود على الربط بين اغتيال الحاكم والإعداد لـ« ثورة شعبية » إلى معارضته خطة خالد الإسلامبولى منذ البداية . وكان رأيه أن التنظيم أمامه فترة لا تقل عن سنتين حتى يكون قادرا ليس فقط على اغتيال الرئيس لكن أيضا لاستخدام الاغتيال كنقطة انطلاق لعملية بناء الدولة المسلمة . إلا أن رأى عبود تم تجاهله ، وفى ليلة ٢٦ سبتمبر قررت مجموعة القاهرة وضع خطة الاغتيال موضع التنفيذ ، بينما عاد كرم زهدى وأنصاره إلى الصعيد لكى يستعد للسيطرة على أسيوط .

وتأكدت نبوءات عبود ، عن افتقار فرع القاهرة للإعداد ، بأسرع مما توقع . فعقب أن غادر الاجتماع ، وجد أنه لايستطيع العودة إلى منزله ، حيث تأكد من أن البوليس أعد له كمينا هناك . وكان فرج وأصدقاؤه موضوعين تحت المراقبة اللصيقة قبل عشرة أيام من الاغتيال ، ووجدوا أنه من الصعب الإعداد « للاستيلاء على المراكز العصبية » . لكن يبدو أن خالد الإسلامبولى لم يكن هدفا لأى مراقبة ، وبدأ فى وضع خطته موضع التنفيذ . فاستصدر تصاريح للجنود الذى عينهم ليقاسموه عربته فى يوم العرض ، وفى ليلة ٥ أكتوبر كان شركاؤه الثلاثة نائمين فى الشكنات . وخالد كان يحمل القنابل والذخيرة فى حقيبته ، حيث كان الضباط لايتعرضون للتفتيش . وأخذ الرجال الأربعة أماكنهم فى العربة ، وعندما مرت العربة أمام المنصة اندفعوا خارجا ليصنعوا هذا المشهد القصير الذى خلدته كاميرات التليفزيون الأمريكى . ونحر السادات ، وصرخ خالد ، « قتلت الفرعون » .

وظلت القاهرة هادئة ، بغضّ النظر عن تلك الانفجارات الفردية القليلة التى لم يتحدد المسئول عنها على وجه اليقين . وكما تنبأ عبود ، كان التنظيم عاجزا عن شل المراكز العصبية لكى يفجر « الثورة الشعبية » .

وفى أسيوط ، لم يبدأ أصدقاء زهدى هجومهم فى السادس ، بل بدأوه فى فجر الثامن من أكتوبر ، أول أيام عيد الأضحى ، حيث اعتادت الجماهير الإقامة فى منازلها . وكان عنصر المفاجأة من ناحية أخرى كاملا : فقد هاجمت مجموعات منهم مديرية الأمن ، حيث كان طاقم الخدمة أقل عدد ممكن ، تحت قيادة ضابط مسيحى . وفقد هذا الضابط عنقه ، بينما قتل ببشاعة عدد كبير من الشاويشية ، وهم رجال بوليس فقراء يحصلون على رواتب بائسة ، وقتل المسلمون والأقباط دون تمييز .

ونتيجة لهذا الهجوم الساحق ، عجزت قوات الأمن فى الصعيد عن السيطرة على المدينة ، إلا أن قوات المظلات التى تدفقت على المدينة من القاهرة ، والتى هبطت فى استاد الجامعة حيث كانت الجماعات الإسلامية تقيم صلاة الجماعة ، سحقت التمرد فى اليوم التالى .

وقد ضخمت الاعتقالات الواسعة من عدد المعتقلين الذين قبض عليهم فى سبتمبر ، وواجهت السجون المصرية مشكلة ازدحام حقيقية . وخلف حسنى مبارك ، نائب الرئيس ، السادات بعد استفتاء عام روتينى . وأفرج عن الذين اعتقلوا فى سبتمبر بالتدريج ، بينما قدم أعضاء جماعة الجهاد للمحاكمة فى محاكمتين منفصلتين .

وخصصت المحاكمة الأولى للذين اغتالوا السادات . حيث إتهم فيها أربعة وعشرون شخصا ، حكم على خمسة منهم بالإعدام ، خالد ورفاقه الثلاثة ، وفرج ، ونفذ فيهم حكم الإعدام فى ١٥ إبريل ١٩٨٢ . وقد اتهم فرج بكتابة « الفريضة الغائبة » .

وخصصت الثانية ، والتى لم تنتهى حتى وقت كتابة هذا الكتاب ، لمحاكمة ٣٠٢ متهما ، هرب بعضهم ، وحوكم غيابيا . وقد طالب المدعى العام بإعدام كل المتهمين * . وقبل ذلك ، نشرت صحف القاهرة اليومية قائمة بالمتهمين .

---

* انتهت هذه المحاكمة بعد ذلك . وقد حكم على المتهمين بأحكام خفيفة بشكل عام ، ولم يحكم على أحد بالإعدام .

وهذه القائمة، التى ظهرت فى ٩مايو ١٩٨٢ فى جريدة الجمهورية، اشتملت على أوسع وأشمل عينة متوفرة أمام الباحثين لدراسة أنماط التجنيد فى حركة الإسلاميين فى مصر السادات. ويجب التعامل معها بحذر، بالطبع: فنحن لانستطيع أن نشق تماما فى أن كل من اتهمهم المدّعون المصريون هم بالفعل مجاهدون فى جماعة الجهاد. لكن مع تحفظنا، تعطينا القائمة معلومات عن أعمار، ومهن، وعناوين المتهمين، وهذا مايوفر لنا صورة للمجاهدين الإسلاميين، وهذه الصورة تبدو ذات مغزى كبير وتشهد على صدق الانطباع الذى خرجت به من دراسة أيديولوچية الحركة وممارساتها الاجتماعية.

وهناك عدة نقاط تثير الشك بشكل واضح. فالذين حددت القائمة وظيفتهم على أنهم تجار يمكن أن يكونوا أى شىء بدءا من بائعى الصحف البائسين حتى صاحبى المتاجر الكبيرة. وبالمثل، فرغم ذكر عناوين المتهمين فى معظم الحالات، إلا أنه لا توجد خريطة مفصلة بشوارع القاهرة يمكن رسم هذه العناوين عليها بدقة. ولتحديد جهة سكن المتهمين الذين اعتبرتهم القائمة من سكان القاهرة الكبرى، كان لابد من الرجوع إلى الأقسام والمراكز.

وبالإضافة إلى هذه العينة، يوجد تحت أيدينا عينتان أخرتان من المجاهدين الإسلاميين، الأولى نشرتها جريدة الأهرام عام ١٩٧٤. وبها إشارة إلى أعمار ومهن المتهمين فيها. والثانية، وإن كانت تضم عدد صغير، ظهرت فى مقالة كتبها* عالم الاجتماع المصرى ــ الأمريكى سعد الدين ابراهيم كتحقيق حول الأعضاء المسجونين من مجموعة ١٩٧٤ وجماعة المسلمين. والجدول، والرسوم البيانية، والخريطة الموجودة فى نهاية هذا الفصل توضح المعلومات المتوفره عن هؤلاء المتهمين.

ويمكن تصنيف المتهمين وفقا لانتمائهم للمحافظات والمذكور فى الجدول إلى مجموعتين متميزتين، واحدة فى القاهرة الكبرى، بما فى ذلك عدد صغير من مدن الدلتا، والأخرى فى الصعيد، مركزة فى ثلاث محافظات هى المنيا، وأسيوط،

---

* «An Anatony of Egypt's Militant Islamic Groups», International Journal of Middle East Studies, 1981.

وسوهاج . والمجموعتان تتوزعان بالعدل عبر البلاد ، إلا أنه يجب الأخذ فى الاعتبار ذلك الاستثناء الموجود فى الإسكندرية . وقد يعود هذا فى الأغلب إلى صدفة بحتة ، إذ أن هذه المدينة لم تكن مستثناة من وجود معارضين إسلاميين بها ، فالجماعات الإسلامية كان لها قاعدة قوية هناك بالإضافة إلى أن نصف المتهمين فى قضية الفنية العسكرية كانوا من الاسكندرية . وتفسير هذا يبدو بسيطا ، وهو أن فرج لم يجد الفرصة لإقامة الروابط مع الإسلاميين فى الإسكندرية كما فعل مع مجاهدى أسيوط .

و يوضح الشكل الأول أن الغالبية العظمى من المتهمين فى الصعيد كانوا من الطلاب ، بينما كان الطلاب أقلية فى القاهرة الكبرى والدلتا . فمحافظات الصعيد الثلاث ، المنيا ، وأسيوط ، وسوهاج ، فيها أعلى نسبة من الأقباط بالبلاد ، وعواصمها مدن بها جامعات . والامتداد الجغرافى للجامعات كان بالغ الاتساع (جامعة أسيوط توزعت على مدينتين : أسيوط نفسها للكليات العلمية والحقوق ، والتجارة ، وسوهاج للكليات الأدبية والإنسانية) ، وطلبتها كانوا ينزعون إلى العيش خارج محيط الأسرة أكثر من أى مكان آخر ، و يتجمعون فى المدن الجامعية أوفى بيوت الطلبة مثل الحمرا فى أسيوط . وهذا على الأغلب سبب التماسك الشديد لمجموعة الصعيد بالمقارنة بفرع القاهرة .

و يوضح الشكل الثانى أن النسبة الإجمالية بين الطلبة وغير الطلبة كانت شبه متعادلة ، وإن كانت نسبة الطلبة أعلى بدرجة قليلة جدا . والمقارنه بجماعة الفنية العسكرية ذات دلالة واضحة هنا : ففى حالة عدم وجود معلومات حديثة تفيد النقيض ، يمكننا أن نفترض أن حركة الإسلاميين ، أوبحد أدنى أحد فصائلها وهو جماعة الجهاد ، قد خططت لانشاء جيتو الجامعات ، بالشكل الذى كان يأمله عصام الدين العريان . ولوكان هذا صحيحا ، فستكون هذه الخاصية الجديدة مصدر قوة لحركة الإسلاميين فى المستقبل . ونزعة مشابهة يوضحها الشكل الخامس : فرغم أن معظم المتهمين فى كلتا القضيتين كانوا بين العشرين والخامسة والعشرين من العمر ، فإن النسبة بين المتهمين فى قضية الجهاد الذين كانوا بين الخامسة والعشرين والثلاثين تساوى تقريبا نفس النسبة لمن هم تحت العشرين فى قضية الفنية العسكرية .

ويلخص الشكلان ٣ و ٤ والخريطة حقائق التركيب الاجتماعي للجماعة. حيث يوضح الشكل الثالث أن أقل بقليل من ثلث المتهمين فى قضية الجهاد كانوا من طلاب الكليات النحبوية أى الطب والهندسة، وهى نسبة أعلى بكثير من المعدلات القومية. رغم أنها نسبة تقل عن المستويات القياسية لجماعة الفنية العسكرية. والغياب الفعلى للملتحقين بالكليات العسكرية بين المتهمين، رغم أنهم مثلوا أكثر من ربع متهمى ١٩٧٤، يكمله النسبة الضئيلة من الضباط ورجال البوليس بين المتهمين الذين يشغلون وظائف (الشكل الرابع) و يصادق على تأكيدات عبود الزمر فى هذا الصدد. وقد اعتمدت جماعة الجهاد بدرجة أقل نسبيا على الطلاب من جماعة الفنية العسكرية، وطلابها كانوا أيضا أكثر قدرة على التعبير عن جماهير الطلاب. ومرة ثانية، إذا كانت هذه النزعة الواضحة حقيقية، فسيكون هذا مصدرا إضافيا للقوة الثورية.

ويجب تفسير الشكل الرابع بحذر كبير. لأن التصنيف وفقا لمهن المتهمين تم من أجل تبسيط المعلومات التقريبية. فهل يعنى وجود هذا العدد الكبير من الحرفيين والتجار — والذين يدعمون بشكل عرضى الانطباع الذى سيجده المرأ فى شوارع القاهرة، حيث يطلق عدد كبير من ملاك محلات البقالة لحاهم و يرتدون غطاء رأس أبيض — أن هذه الطبقات الاجتماعية، التى تستفيد فى الظاهر من سياسة الانفتاح الاقتصادى، لديها سبب عميق لتحدى النظام؟ ونحن من جانبنا لايمكننا أن نتأكد من الإجابة على هذا السؤال.

والخريطة، التى رسمت لتحديد العلاقة بين عناوين المتهمين و بين الأنماط المختلفة لأحياء القاهرة، ذات دلالة بالغة*. حيث يشد الأنتباه تركيز المتهمين فى مناطق حزام البؤس فى الجيزة، وهى منطقة ذات مساكن دون المستوى الإنسانى. من ناحية أخرى، فإن كل من الأحياء التى تقطنها الطبقة المتوسطة والأقسام المركزية فى المدينة القديمة، حيث توجد منازل جيدة البناء كثيفة السكان، تخلو فى الواقع من أعضاء الجهاد. وجزء من هذا التوزيع يرتبط، بالطبع، بتحركات

---

* أود هنا أن أسجل امتنانى لروبرت إلبرت الذى ساعد على إخراج هذه الخريطة.

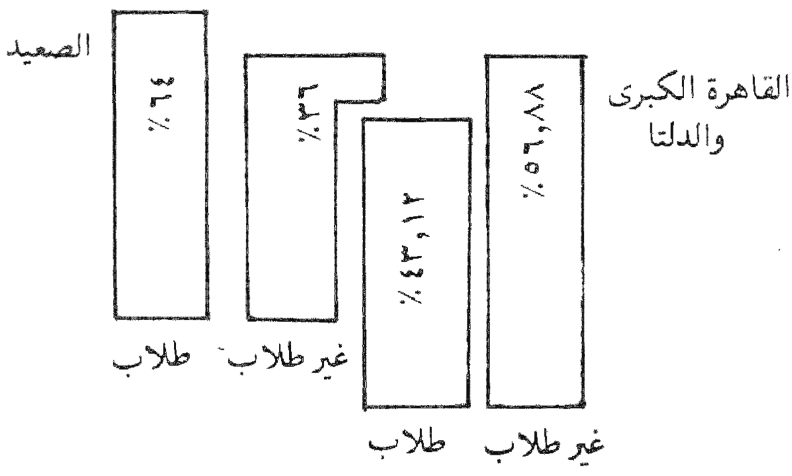
فرج . ومع هذا ، فإن صورة التجنيد الذى مارسه فرع القاهرة بالشكل الذى أبرزته الخريطة تثبت على نحو وثيق صحة الافتراضات التى فرضتها بناء على وثائق محاكمة جماعة المسلمين ودراستى للجماعات الإسلامية . فالوسط الأكثر خصوبة بالمجاهدين الإسلاميين هو المجموعة النسبية ٢٠ ــ ٢٥ سنة فى الأحياء الممتدة على حواف المدن الكبيرة . حيث يعيش الناس هناك على حد الكفاف بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأول كل شيء سكناهم فى أرض وسط لم تكن الريف الذى جاءوا منه إلا أنها لم تكن المدينة ، التى لم يصلوا قلبها . وتركيبتهم الثقافية كانت أيضا هامشية : فهم لم يعودوا ينتمون إلى البنى القروية التقليدية ، وهى لن تمدهم ثانية بمصادر الحياة المادية أوباندماج اجتماعى حقيقى . لقد كانوا أطفال الهجرة من الريف ، ووصلوا إلى الضواحى بعادات مقطوعة الصلة بالماضى . ومع هذا ، فعلى عكس توقعاتهم ، فشل التعليم (حتى العالى منه) فى أن يوفر لهم مفاتيح الحياة العصرية . ومن هذه الدوائر تجتذب حركة الإسلاميين أفواجا ضخمة . إنهم الرموز الحية ، وما أكثر عددها ، لفشل المشاريع العصروية للدولة المستقلة .

جدول

تصنيف المتهمين وفقا لانتماءاتهم للمحافظات المختلفة

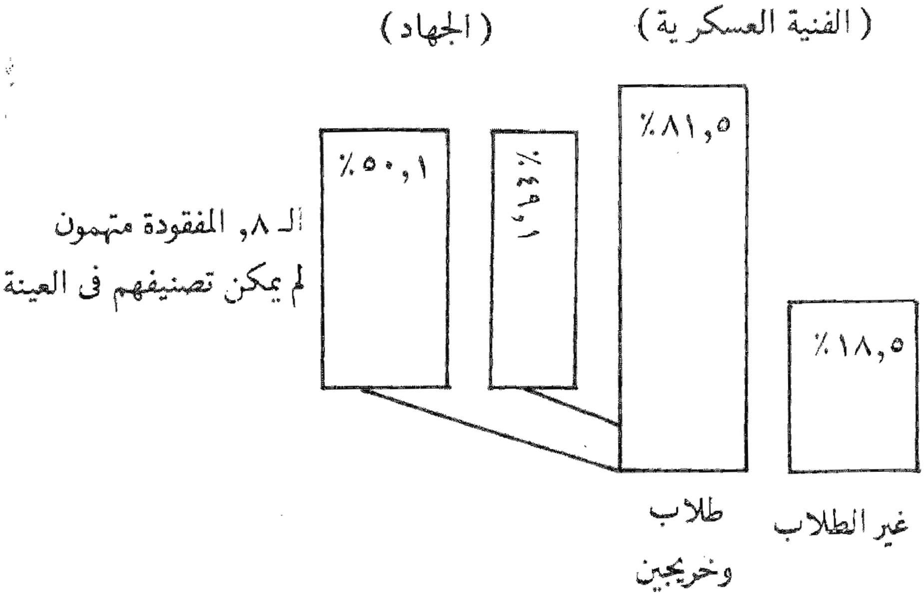
الصعيد		القاهرة الكبرى والدلتا	
المحافظة	عدد المتهمين	المحافظة	عدد المتهمين
الفيوم	٩	الغربية	١
بنى سويف	٩	القليوبية	١
المنيا	٢٥	الاسماعيلية	١
أسيوط	٣١	الشرقية	١١
سوهاج	٢٧	الدقهلية	٥
قنا	١١	البحيرة	٤
أسوان	١	القاهرة والجيزة	١٣٧
الوادى الجديد	١		

(لم يتضمن الجدول سوى هؤلاء المتهمين الذين تم التعرف على محل سكنهم)



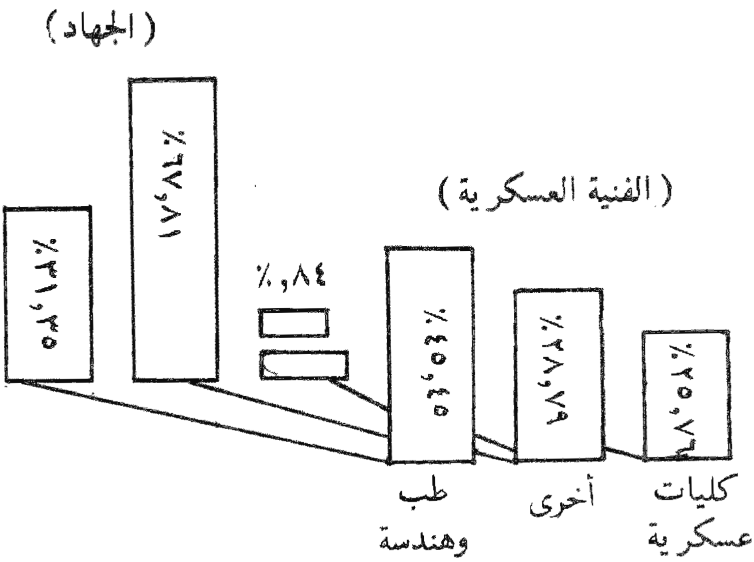
شكل (١)

التصنيف الإقليمى لمتهمى الجهاد: طلاب وغير طلاب



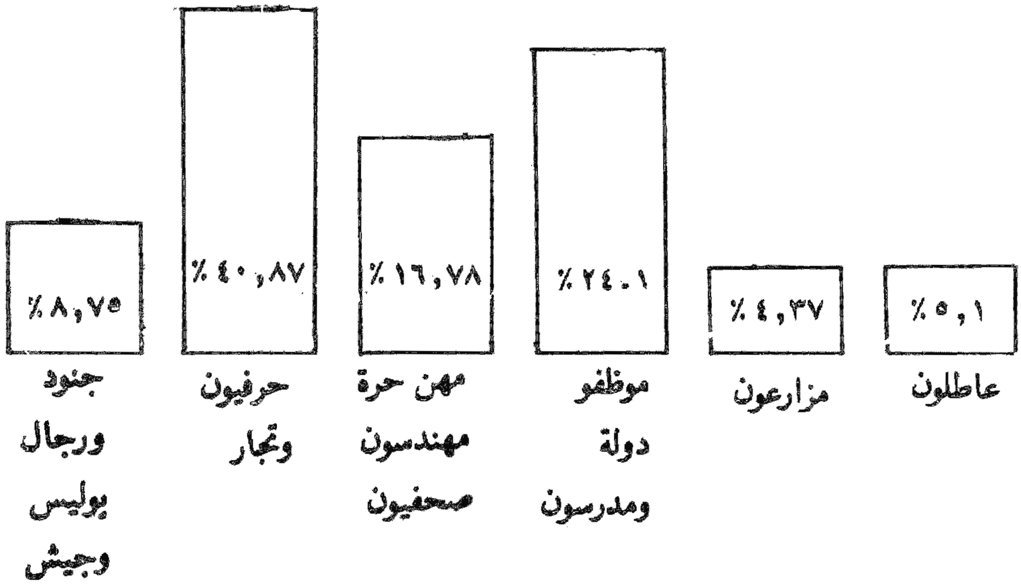
شكل (٢)

تصنيف المتهمين ، الطلاب وغير الطلاب ، فى جماعتى الجهاد ، والفنية العسكرية



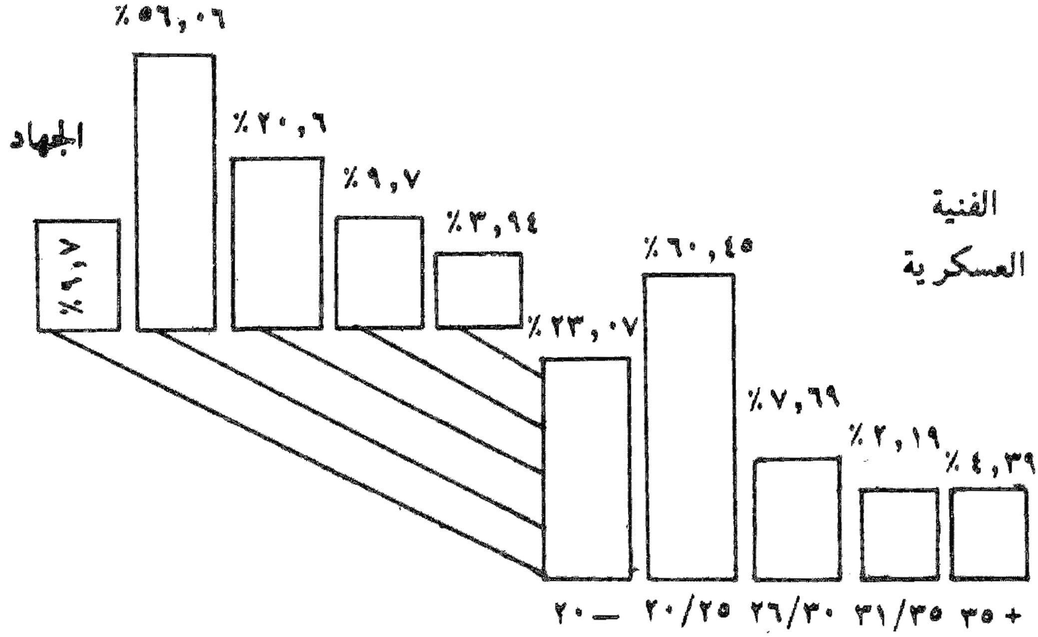
شكل (٣)

تصنيف الطلاب المتهمين وفقا لكلياتهم



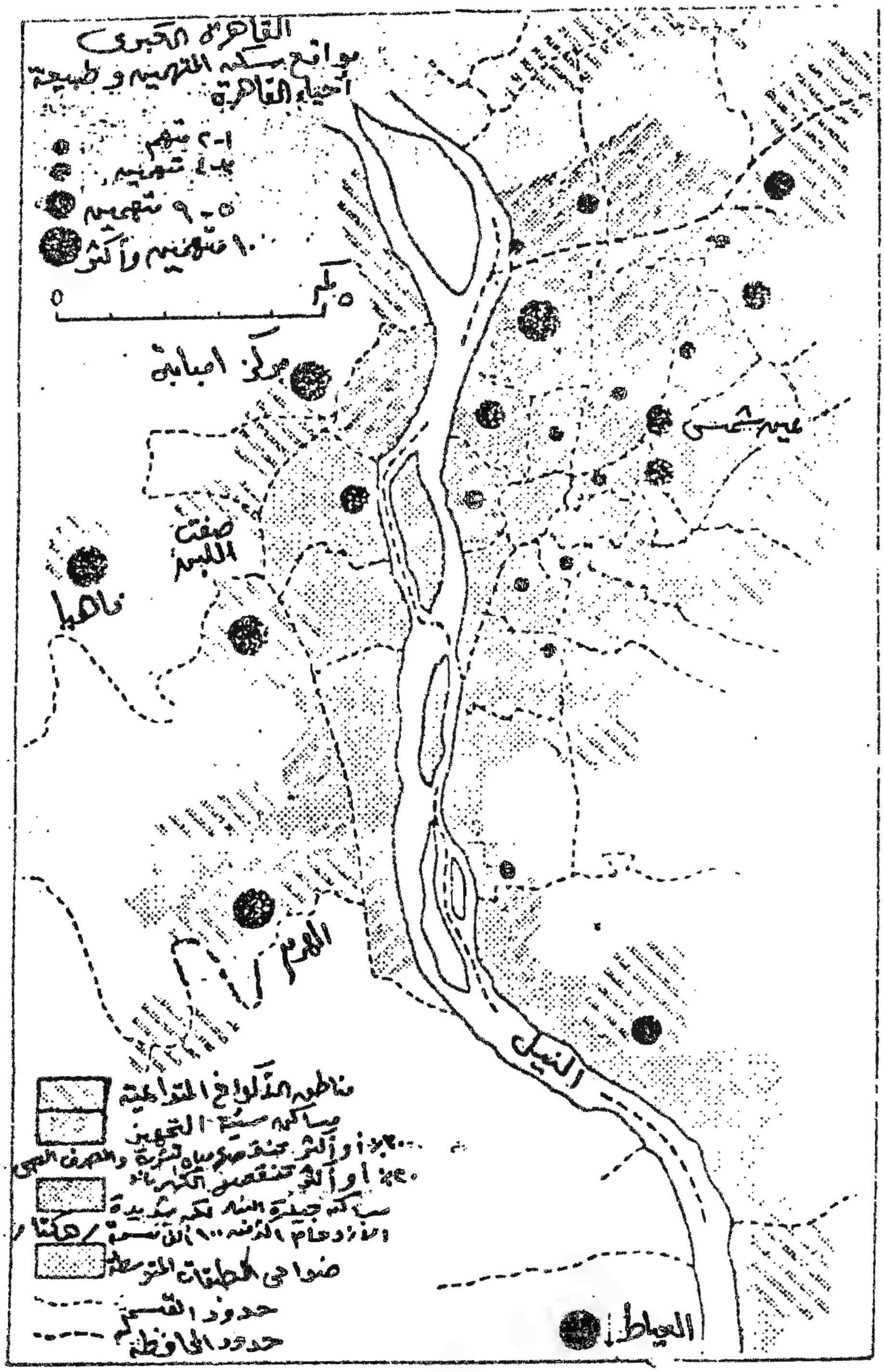
شكل (٤)

تصنيف المتهمين شاغلى الوظائف فى جماعة الجهاد وفقاً لوظائفهم



شكل (٥)

تصنيف المتهمين وفقا لأعمارهم



خريطة

توزيع مساكن المتهمين على أحياء القاهرة الكبرى

وطبيعة هذه الأحياء

« عندما يصبح نوع جديد من الظواهر هدفا للدراسة العلمية ، فإن هذه الظواهر تتمثل بالفعل فى الخيال لا من خلال صور محددة فحسب ، بل من خلال تصورات تتشكل على نحو فج أيضا ... وكم من مرة تكون (تلك التصورات) خطرة وذلك بالقدر الذى تكون به غير كافية ! وعلى ذلك فإننا لن نحقق النجاح بحال من خلال تطوير تلك التصورات ، أى كان أسلوبنا فى تطويرها ، فى اكتشاف قوانين الواقع » .

(دوركايم)

قدمت ، حتى الآن ، خطاب وممارسة حركة الإسلاميين فى شكل خام بدرجة ما . وأقول « بدرجة ما » لأن عملية اختيار المصادر وترجمة وتنظيم المادة ، لاغنى عنها فى دراسة أى شىء واقعى، وهى عملية منوط بها تقديم أوسع رؤية ممكنة للموضوع . ومن هنا انصب اهتمامى على تقديم شتى تشكيلات الحركة المتنوعة والمتعارضة أحيانا ، من أجل كشف تناقضاتها وليس من أجل حجب هذا العمل أو ذاك حيث أن هذا من شأنه أن يحد من مصداقية أى خطة موضوعة مسبقا .

وقد يجد القراء فى هذا بعض الاضطراب . إلا أنهم على العكس من ذلك يجب أن يشعروا بالرضا ، إذ أنه لابد من الاصطدام بالعجز عن فهم الشرق عند تناول حركة الإسلاميين . فالدهشة والذهول لهما قيمة تساعد على الاكتشاف ، كعلاج للنزعة التلفيقية التى تختزل كل الأشياء غير المألوفة إلى مقولات شائعة ، أو بمعنى آخر، تنكر عدم ألفتها . والمرء يجب أن يسمح لنفسه بعدم الفهم إذا أدرك الثراء الكامل لحركة الإسلاميين .

وليس من قبيل النزوة أن نذكر هذه الاحتياطات الإيستمولوجية الأولية ، بسبب بضعة ظواهر معاصرة رصدت بسطحية شديدة وحكم عليها بشكل متسرع مثل هذه الحركة . و يبدو هذا واضحاً حتى فى المصطلحات التى استخدمت لتعيينها : فكلمة الأصولية الإسلامية مثلا تنطق intégrisme memusulman بالفرنسية و myslimfundantalism, بالإنجليزية . وهذان المصطلحان

النضالات الطبقية ذات طابع دينى .. لم يغير هذا شيئاً فى طبيعة هذه النضالات ومن السهل تفسيره من خلال ظروف العصر .. » ([46]) .

لكن المنظور الذى استخدمه إنجلز لأول مرة — وغمر منذ هذا الوقت قدراً لا يستهان به من الفكر النقدى « التقدمى » — استخدم بفعالية كبيرة لإظهار البعد الإجتماعى للظاهرة الدينية والذى حجب بدوره الدلالة الحقيقية للتعبير الدينى نفسه ، بل غيبه خلال الباب السحرى للأيديولوچيا « فى حركات العصيان الشعبى فى الغرب المسيحى ، كان المظهر الدينى بمثابة شعار وقناع فقط للهجوم على نظام إقتصادى متفسخ ، وفى النهاية ، يتم القضاء على هذا النظام ، و ينشأ نظام جديد ، و يتحقق التقدم ، و يتقدم العالم » . إن كل ما تبقى من الدين هنا هو « القناع » ، الذى على المحلل أن يغمض عينيه عنه بلا تردد خلال سعيه لاختزال التمرد الشعبى إلى مقولات المادية التاريخية .

على أن الإسلام أثبت ، لسوء الحظ ، بالفعل صموده أمام هذا الديالكتيك الرائع : « فنشوء العالم المحمدى » ، كما قال انجلز ، عبارة عن « حركات ولدتها أسباب اقتصادية رغم أنها حملت مظهراً دينياً . ولكنها حتى عندما نجحت ، تركت الظروف الاقتصادية على حالها وتمسسها . فلم يتغير شىء ، وأصبحت الصدامات تتم بشكل دورى » ([46]) . وسواء كان العالم يتقدم إلى الأمام تجاه المستقبل المشرق أو على العكس من ذلك لا يتحرك من مكانه ، فإذن المدخل التحليلى يظل كما هو : أى أن البعد الدينى للظاهرة قناع ذو أهمية ضئيلة ، والتأثيرات المفترضة للحركة هى التى تؤخذ فقط بعين الاعتبار .

و ينظر لهذه التأثيرات إذن وفقاً لشروط معيارية . و يرجع هذا بدرجة كبيرة لظروف الحركة العمالية فى القرن التاسع عشر : حيث كانت اليوتوبيات الدينية تبدو وكأنها شتلات تنمو بكثرة حول البنية الصغيرة للشيوعية ، وقد عزم ماركس وإنجلز على اجتثاثها من جذورها . وكمثال على ذلك ، أنظر again spkrieye cicculat ، الذى « سعى ... تحت راية الشيوعية ، لأن يكون زبون لكل مخلفات المسيحية .. » ([46]) .

وبعد قرن من الزمان يتحدى « العالم المحمدى » التعامل مع الظاهرة الدينية على أنها ظاهرة أيديولوجية صرفة . فالشك الذى أقره إنجلز أصبح يمثل عقبة محورية ، ليس فقط أمام الماركسيين المهتمين بالشرق (الذين عانوا الكثير من الإحباطات) لكن أيضا أمام هؤلاء الذين اهتموا بالتشابك بين ما هو دينى وما هو سياسى . فالمسألة يجب أن تطرح من جديد ، بقلب الفرضيات ، لأن الأيديولوجيا فى هذا المجال تكادتكون مرادفة للجهل : فالتعبير الدينى عن الظاهرة الاجتماعيه ليس هو قناعها ، بل هو كشف النقاب عنها .

الدينى والسياسى :

تساءل ميجويل أبينسور ، « هل لا توجد هناك مراحل لليوتوبيات التى أقلق بروز المسألة الدينية فيها تشكيلة متنوعة من اتجاهات الفكر الاجتماعى التى يبدو أنها مهيئة تماما لمراجعة نفسها ؟ هل زودنا الفهم النمطى للحركة الروحية بمفتاح يفسر نشأتها ؟ وعند نقطة التقاطع بين الدينى واليوتوبيوى ، ماذا سيحدث للدعوة النبوية **prophetic call** ، وللحاجة إلى العدل ، وللطموح الأخلاقى ، وللأهداف الأخروية **eschatological objectives** ؟ (٤١) . إن البحث عن إجابات حركة الإسلاميين على هذه الأسئلة سيتيح لنا أن نفهم كيف ولماذا أدى رفضها لقبول الحاصر إلى تطوير منظور أخروى إعتمد على نموذج

وقد استدعت كل تشكيلات الحركة التى تعرضها لها بالبحث هذا النموذج لماضى ، لكن كل منها دعى إلى إعادة إحياء هذا العهد المنسى كل على طريقته الخاصة : الـ « جيل القرآنى الفريد » الذى حث « معالم فى الطريق » قراءه على السير فى خطاه ، الرسول والصحابة وخبرة تعاقب مرحلتى الاستضعاف والتمكن والتى أراد شكرى مصطفى أن تعاود « جماعة المسلمين » تمثلها ، و« حياة المسلم النقى » كما كانت تحياها الجماعات الإسلامية فى المعسكرات الصيفية .
ولكى نفهم الكيفية التى صيغ بها هذا النموذج ، فلنبدأ بملاحظة الطريقة التى نظرت بها التيارات المختلفة فى حركة الإسلاميين إلى المجتمع المصرى المعاصر . حيث رسم كل منها صورته الخاصة ، مركزاً على هذا التناقض أو ذلك الفارق

الدقيق . فشكرى وفرج حاربا نفس المجتمع ونفس الدولة ، لكن بينما حكم الأول على المجتمع ككل بأنه مجتمع جاهلي وانسحب منه ، ركز الأخير على تحدى الدولة وأنكر أن يكون لـ « السياسى » أى مكانة مستقلة فى المجتمع المسلم الصحيح .

وبعد أن رسخ الإسلاميون أولا رؤية للعلاقة بين المجتمع المصرى المعاصر والدولة ، حولوا هذه الرؤيه إلى النموذج الأصلى ، وأخذوا يتأملونه فى ضوء الماضى .

وكانت تلك هى الخطوة التالية المثيرة للجدل ، والتى جعلت من حركة الإسلاميين ظاهرة فريدة بين حركات المطالب الاجتماعية الأخرى ، التى عبرت عن اليوتوبيات ، أو عن النظريات الثورية . فرؤيتها للماضى ، وللتاريخ ، استقطبت حول « العصر الذهبى » : وهى الفترة من الهجرة عام ٦٢٢ ميلادية حتى مرحلة استيلاء الخليفة الأموى معاوية على السلطة بالقوة عام ٦٦٠ م . أما الأربعة عشر قرنا التى تلت تلك الفترة فقد اعتبروها أقل أهمية من الفترة السابقة ، ورفضوها فى بعض الأحيان . وقد شهدت هذه السنوات الثمانية والثلاثون تحقق المجتمع المسلم المثالى والتوسع الإقليمى للإسلام ، تحت قيادة الرسول و « الخلفاء الأربعة الراشدين) الذين خلفوه .

وهذا النوع من المرجعية referenco ، فى ذاته ، ليس غريبا ، فأثينا بيريكليس كانت نموذج الديموقراطيات الغربية لألفى عام . إلا أن هذا لم يدفعها لنقل كل ملامح المجتمع الأثينى إلى مجتمعاتها ، وفى المقام الأول المؤسسة الاجتماعية للعبيد . والسؤال الهام ، إذن ، هو لماذا تم اختيار هذا النموذج . فأن تختار مكة هو أن تروض أثينا ، أى أن ترفض النموذج الغربى . وعلاوة على ذلك ، فإن طابع كل من النموذجين المرجعيين يختلف عن الآخر . فالمدينة القديمة كانت مقفلة ، سواء على المستوى الإقليمى أو على المستوى الترنسندنتالى ، واستلهام الديموقراطيات المعاصرة لها طرح جانبا بعدها الدينى ، متبعا أرسطو فى هذا المجال . إذ أن أرسطو فى تصويره لمبادىء القانون الأثينى (archat) ـــ العناصر الستة الضرورية لقانون أى مدينة ـــ وضع خدمة الآلهة فى المرتبة الخامسة ، أى أن المؤسسة الدينية لا تلعب دورا حاسما فى وظائف المدنية الدولة (٤٢) . أما العصر الذهبى للإسلام فقد كان ، من ناحية أخرى ، منفتحاً على الخارج . فمن حيث

المكان ، انتشر دون هوادة ، من الحجاز فى العربية السعودية ، إلى العراق ، إلى فارس ، إلى مصر ، إلخ . ومن حيث الترنسندنتالية ، فقد تم بناء هذا العالم باسم الله ، أو كما قال Guyau « إن التآلف الاجتماعى ، بوصفه أحد ملامح الطبيعة الإنسانية ، يمتد هنا حتى وراء النجوم » . وهذا الاختلاف الأنطولوجى بين النموذجين يتوازى مع الاختلاف بين الذين استخدموا هذين النموذجين : فالطبقة السياسية التى تحكم المجتمعات الغربية تشجع أسطورة أثينا الإبداعية لأنها تمد النظام بالشرعية . أما فى المجتمعات المسلمة المعاصرة ، فإن الطبقات التى تعارض النظام القائم هى التى تلجأ إلى العصر الذهبى للإسلام ، لكى تنزع الشرعية من النظام الموجود . و بقدر ما اتفقت الاتجاهات الراديكالية فى حركة الإسلاميين ، فقد توقف الزمن عند سنة ٦٦٠ م عندما استولى معاو ية على الخلافة وأدخل نظام الوراثة . إنهم لايعترفون بالتار يخ اللاحق ، والذى استمر مع هذا حتى الوقت الحاضر . وقد قال شكرى مصطفى مثل هذا عندما قال للمدعى العسكرى إنه منذ إغلاق أبواب الاجتهاد ، أصبح تار يخ الإسلام مجرد قصة لتواطوء العلماء مع الحكام . واعتبر هذا التار يخ ، و بنفس القدر الدول المعاصرة التى تدخل ضمنه ، تاريخا غر يبا . وولاءه ، مثله فرج ، لن يكون لهذه الأمم بحدودها الحالية . إنهم ليسوا بمصر يين ، لكنهم أولا وقبل أى شىء مسلمون .

إن مايميز حركة الإسلاميين المتطرفة عن بقية المسلمين فيما يتعلق بما يعنيه الرجوع إلى العصر الذهبى هو أن الحركة تمحو التار يخ من أجل إعادة إحياء الأسطورة الأساسية ، بينما بقية المسلمين يكيفون أنفسهم مع تار يخ المجتمعات المسلمة . وقد يعتبرون هذا التار يخ تزو يرا للنموذج الأصلى ، لكنهم لم يعتبروا أن الأربعة عشر قرنا التى انقضت منذ هذا اليوم (بما فى هذا الحياة المعاصرة) غر يبة عن الإسلام . و بالنسبة لمعظم المسلمين ، لا تستتبع الإشارة إلى عصر الرسول والخلفاء الراشدين بالضرورة تقدير النظام القائم بشكل سلبى .

وفى التراث الثقافى لأورو با الغربية ، كان تصور أثينا بيركليس على أنها نموذج سياسى ينحصر فقط فى فترة زمنية متأخرة جدا ، ولإقرار استقلال الدنيوى عن الروحى . وقد كان هذا الانفصال ممكنا بسبب منشأه الأصلى ، إذ أن الفكر الغربى نهل من منبعين : العقيدة المسيحية من جهة والقانون الرومانى العلمانى

من جهة أخرى . وهذان المصدران تمفصلا articulated معاً عبر قرون المسيحية كلها ، لقد كان هناك علاقة تربطهما ، لكن لم يكن هناك تطابق بينهما أبداً .

والاسلام ، على النقيض من ذلك ، ميَّزه « التوحيد » ، أو الوحدة الجوهرية . فالتمييز بين الدين والدولة ، بين الروحي والدنيوى ، لايعنى أى شيء بالنسبة لعقيدة المسلم ، حيث أن القرآن ، الذى أنزل على الرسول محمد ، هو المصدر الوحيد ، الذى اشتمل على الأحكام التى تنظم العلاقات بين الإنسان والله وعلى المبادىء التى تحكم الحياة الاجتماعية . ولم يتمفصل أى قانون دنيوى مع الإسلام على الإطلاق مثلما تمفصل القانون الرومانى مع العقيدة المسيحية ، والمحاولة لتطعيم الإسلام بالفلسفة اليونانية خلال عصر الخلفاء العباسيين (الذين أمروا بترجمتها) حكم عليها بالموت . وإذا تحقق التوحيد ، فعلى قائد المؤمنين ، الخليفة ، أن يولى عنايته تطبيق الأوامر القرآنية . وبشكل خاص ، وضع الوظيفة الصارمة للعدالة موضع التنفيذ وصيانة الأخلاق المسلمة . وهو بالتالى سيلعب دورا اجتماعيا أساسيا ، ووفقا للمجاهدين الإسلاميين ، فإن النبى محمد والخلفاء الأربعة الراشدين هم فقط الذين قاموا بإنجاز هذه المهمة على الوجه الأكمل .

ومع هذا ، فقد استمرت المجتمعات الإسلامية حتى الآن ، هذا رغم انتقال السيطرة على السلطة من « الخلفاء الأربعة الراشدين » ، إلى الخلافة التى نجمت عن الحكم الوراثى أو الخلافة الوراثية ، إلى السلطان ، إلى الأمير ، إلى المملوك ، إلى الملك ، إلى الرئيس . والذى يرفضه المجاهدون الإسلاميون فى كل هؤلاء الحكام ، الذين أسموهم « الظالمين » ، هو أن دعواهم بخدمة الإسلام هى مجرد محاولة لإضفاء الشرعية على أنظمتهم ، ولإخفاء حقيقة ذلك النظام يخدم نزواتهم الشخصية . فحكام العصر ، كما كتب فرج ، « فى رده عن الإسلام ، لأنهم تربوا على موائد الإستعمار . . . ، فهم لايحملون من الإسلام إلا الأسماء » .

ولم يكن فرج أول مسلم يتهم الحاكم بالخروج على تعاليم الإسلام . فقبل ظهور حركة الإسلاميين بكثير ، أثيرت الشكوك حول مسألة ارتقاء معاوية للسلطة من خلال القوة ــ وهو الأمر الذى استمر ، مع استثناءات نادرة ، حتى اليوم .

وقد طرح هذا الشكل من أشكال الاستيلاء على السلطة نوعين من المشاكل ـــ استمرت فى واقع الأمر حتى الآن . فالحاكم الذى يستخدم القوة يشعر بحاجة ملحة للشرعية القائمة بالفعل والتى ستمنح نظام الإستقرار حيث أن استخدام القوة لن يحقق وحده هذا الاستقرار . والعلماء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يمنحوه هذه الشرعية ، حيث أنهم يحتكرون تفسير كتاب الله ، وهم وحدهم المؤهلون للفتوى بأن الحاكم ، مهما كان شكل ارتقائه السلطة ، يحكم بما أنزل الله .

وإذا كانت « الحكومة الراشدة » المثالية هى التى كانت فى العصر الذهبى ، فإنه فى ظل « حكومة راشدة » حقيقية يمكن الحد من نزوات الحاكم من خلال النصيحة الواعية للعلماء ، والفقهاء ، وهم الوسطاء الحقيقيون بين العامة و بين حكامهم ـــ ومن هنا فقد كتب المفكر الإسلامى الكبير الذى عاش فى العصر الوسيط الغزالى (١٠٥٨ ـــ ١١١١) « إن العالم هو مُعلِم وموجه لضمير السلطة السياسية فى إقامة العدل وفرض النظام بين الناس وهكذا يسود النظام والعدل فى هذا العالم » (٤٠) . فالعلماء يحتلون إذن ما أسماه بوردوى Bourdieu « الوضعين المتناقضين » للمهمة الدينية ، أى « تبر ير وجود الطبقات الحاكمة فى السلطة » و« فرض الاعتراف بشرعية السيطرة على المحكومين » (٩) .

وفى مقابل لعبها لهذا الدور، تحصل الهيئة المستقلة « لساسة وسائل الخلاص » على مميزات لا يستهان بها فى الحياة الاجتماعية . ومع هذا ، فقد كان عليهم أن يحققوا التوازن بين الحاكم والمحكوم : فلو منحوا الحاكم الشرعية بلا حدود دون أن يكبحوا نزواته ، سيفقدوا مصداقيتهم فى عيون الجماهير، الذين سيستغنون بالتالى عن خدماتهم و يتحولون إلى الأشكال المستقلة ، المتشيعة فى السلوك الدينى . والحاكم بالتالى سيتهم رجال الدين بعدم الفعالية ، و يتعرضون لغضبه . وهذا ما حدث خلال محاكمة شكرى مصطفى وعندما زعم المدعى العسكرى أن عجز رجال الدين هو المسئول عن وجود جماعة المسلمين . ومع ذلك ، فإن الدولة تحصد ثمار سياستها فى تدجين العلماء ، والمثال على ذلك إصلاح الأزهر خلال عهد عبد الناصر .

و يتساءل الشيخ كشك متهكما عما إذا كان شيخ الأزهر المقبل سيكون من لواءات الجيش . لكن ورغم أن الداعية ومن أسماهم « المفكرين المراهقين » (شكرى وفرج فى هذه الحالة) قد اتفقوا على تحدى دور العلماء فى مصر المعاصرة ، فقد اختلفوا حول حل هذه المسألة بشكل حاد .

فبالنسبة لكشك ، يجب إصلاح العلماء حتى يكون باستطاعتهم أن يلعبوا دورهم الكلاسيكى فى توجيه النصح للحاكم ، كما أكد على ذلك الغزالى . وهذا ما كان يقصده من اقتراحاته بأن يكون التعليم الأزهرى معتمدا بشكل كامل على كتاب الله ، وأن يكون شيخ الأزهر منتخبا ولا يتم تعيينه من قبل الحاكم بعد الآن ، ومن ثم يحصل على راتبه من أملاك المسلمين ، الأوقاف ، وليس من ميزانية الدولة .

أما بالنسبة لشكرى ، من ناحية أخرى ، فلم يكن العلماء سوى خدم للحاكم الظالم ، « ببغاوات المنابر » ، ولا مكان لهم بين صفوف جماعة المسلمين .

وفى نهاية الأمر ، فمن وجهة نظر فرج أن العلماء قد فشلوا فى مهمتهم بحجبهم فريضة الجهاد ضد الحاكم ، وفشلوا فى إعلان خروجه على الإسلام ، كما فعل ابن تيمية بفتواه عن ملك ماردين الذى توّجه التتار .

إذن فقد اختلف الثلاثة فى طريقتهم لفهم الموضوع ، لكن جوهر طريقة كل منهم ظل الطموح لتحقيق العدالة بالشكل الذى رآه كل منهم ، العدالة التى لم يطبقها الحكم لكى يكفلها كتاب الله .

وقد يبدو الأمر غريبا بالنسبة للبعض أن يتطلب فهم حركة الإسلاميين المعاصرة رؤية مغرقة فى ماضى المجتمعات الإسلامية . إذن لماذا اصطبغ الطموح إلى العدالة فى مصر اليوم بالصبغة الدينية ، وهى البلد التى استلهمت نظامها القانونى من التشريع الفرنسى ؟

● هل حركة الإسلاميين محتومة ؟

بينما تضرب جذور حركة الإسلاميين بعمق فى تاريخ المجتمعات الإسلامية ، فإن فصائل الحركة التى تعرضنا لها بالبحث ظهرت للوجود فى العقد السابع من القرن العشرين . وقد يبدو تحليلا غريبا ذلك الذى اتبعه الناطقون باسم الإسلام

الرسمى فى اختزال الحركة إلى انحراف من ذلك النوع الذى مثله الخوارج . وعبر هذا الكتاب ، حاولت أن أضع الحركة فى سياقها الصحيح ، أى المجتمع المصرى فى السبعينات ، ومن ثم فإن هذا السياق يشير إلى هدف الدراسة وهدف الدراسة يلقى الضوء على هذا السياق فى عملية أخذ وعطاء ثابتين .

وفى متابعتى لتطور الجماعات الإسلامية فى الجامعات ، لاحظت أنه قد دانت لهم السيطرة على الجامعات بعد إخماد صوت المعارضة المنافسة أى الماركسية واليسار الناصرى ، وهى التى كانت سائدة فى بداية عهد السادات . وعند مناقشة النص الذى كتبه الطبيب الشاب عصام الدين العريان ، أحد منظرى الطلبة الإسلاميين ، لفت نظرى علاقة تثير الدهشة بين رؤيته للتاريخ وبين التصور الديالكتيكى الدارج فى الماركسية . وهذا التشابه يقابله ظاهرة أخرى ملفتة للنظر ، وهى الظاهرة التى لاحظها الأنثربولوجيون الفرنسيون وعلماء السياسة الذين عملوا فى شمال أفريقيا : فقد كان عدد من الدعاة الإسلاميين ، فى تونس والمغرب ، الذين اتبعوا أوقلدوا كشك ، ماركسيين لينينيين سابقين تلقوا العلم فى الجامعات الفرنسية .

وكما أشرت من قبل ، فإنه لايجب تفسير وجود هذه الحقائق المتشابهة أوتلك بشكل آلى على أنه دليل على « مناورة شيوعية » لحركة الإسلاميين ، التى نظر إليها البعض على أنها دمية تحركها الأجهزة السرية السوفييتية . وليس من الصعب مطلقا أن يتسلل بعض المجاهدين الذين ينتمون إلى مدارس فكرية متباينة إلى الحركة هنا وهناك ، سواء للتجسس عليها من الداخل أولأسباب أخرى . ومع هذا فإن مدى هذه الظاهرة لايبدو أنه ذو شأن يذكر ، وعلى أى حال فإنها لم تلغ أوتغير من الطابع الخاص لحركة الإسلاميين . بل على العكس ، فمن وجهة نظرى ، يبدو أن هذه الحركة قد نجحت ، فى لحظة تاريخية هامة ، فى إظهار قدرة واضحة على اجتذاب قسم بأكمله من الطبقات المسحوقة فى المجتمع ، وفى جعل خطابها البوتقة التى صهرت فى داخلها كل مطالب المعارضة .

وفى مصر ، كما فى أى مكان آخر ، ينتعش هذا النوع من المعارضة فى ظل فوضى من أشكال التعبير التى تتراوح بين ماأسماه Michel de Certoau « وسائل تجنب الإخفاق » وبين تطوير أشكال مفصلة من الطوائف المغلقة مثل

« إخوان الصفا » . وهم يمثلون ما أسماه د . سيد عويس ، أكثر علماء الاجتماع المصريين دقة ، « الأشكال الشعبية لمقاومة الظلم والعسف »(٤٨) ، ويشكلون بنية الحياة السياسية اليومية فى مصر المعاصرة ، التى تسيطر عليها مؤسسات الحياة السياسية القانونية ــ سواء مدنية ، أودينية ، أوعسكرية ــ بدرجة ليست كبيرة .

وقد كتب Miche de Certeau يقول « رغم أن شبكة « المراقبة » تتغلغل فى كل ركن من أركان الحياة ، إلا أنه يتساوى مع هذه الحقيقة فى الأهمية أن نكتشف عدم سيطرتها على المجتمع ككل . فأى نوع من المواضعات الشعبية (وهى فى ذاتها شديدة البساطة والعادية) تلك التى تتعامل ميكانزمات الانضباط وتنساق لها فقط إلى الحد الذى تتمكن به من تشويهها ؟ وما هى « وسائل تجنب الإخفاق » التى تعمل كمتمم ، بين المستهلكين (أو « المحكومين ») ، لهذه **المواضعات الصامتة والتى تتم من خلالها عملية الحفاظ على النظام الاجتماعى السياسى ؟**

وقد حاول الدكتور سيد عويس ، الذى تناول المشكلة من منطلق مختلف تماما عن تناول de Certeau ، تطوير تنميط مؤقت لهذه المواضعات الشعبية ، حيث عدَّد عشرة « متنفسات » أوطرق يلجأ أفراد المجتمع المصرى إليها لمواجهة سوء الحظ ومختلف أنواع الظلم . وهذه « المتنفسات » تتراوح بين « اللامبالاة » ، و« النفاق » ، و« التهكـم » ، وبين **« الهجرة » و« التمرد » و« الثورة »** . وهذه المتنفسات « البالغة البساطة » ، من ذلك النوع الذى تمثله المتنفسات الثلاثة الأولى ، يألفها كل من يعيش أوعاش فى مصر : فالشرائح التى تعانى الإذلال والمهانة تلجأ إليها يوما بعد يوم فى علاقتها بصاحب السلطة . ولايوجد قطر عربى فيه مثل هذه اللغة والمواقف التى تحمل رموز فى غاية القسوة والسخرية : فأصغر موظف يقال له « بيه » أو « باشا » ، وفى كل مرة يطلب الأعلى مقاما شيئا يجيب عليه الناس بأدب جم مغمغمين بكلمة « حاضر » ، وبعد تأدية هذه الإيماءة الميكانيكية ، وبعد تمثيل دور الجندى المنضبط ، يتنافس الجميع فى السخرية من نفس هؤلاء الموظفون ، ويسمونهم « عبدالروتين » . حتى أصبح كل الفراعنة ، عظاما أو صغارا ، وهم الذين اشتركوا فى احتقار واستغلال الشعب المصرى لخمسة آلاف سنة ، هدفا منتظما لسخرية المصريين .

ويحافظ هذا النوع من التحرر الشعبى على شكل من أشكال التوازن الاجتماعى : فرغم أن المستغل يزداد غنى ، إلا أنه لايتمتع بأى هيبة ، بل يتمتع فقط بالسخرية وبالألقاب التى تثير الضحك . وفى نفس الوقت ، فإن أى شىء تفعله الطبقات المستغلة ، تقوم به على أسوأ مايكون . فالبواب الذى ينام على حصيرة فى مدخل البناية يخدش فى هدوء سيارات السكان ، وهو يقوم بوظيفته فى تنظيفها . والمدرس الذى يحصل على راتب ضئيل يأتى إلى الفصل متأخرا ولايدرس للطلاب شيئا . والطلاب الذين ينجحون هم فقط الذين يدفعون له مقابل الدروس الخصوصية ، والدخل الذى يحصل عليه من الدروس الخصوصية هو الذى يمكنه من العيش . و يتلخص هذا الديالكتيك بأكمله فى كلمتين مشهورتين فى لغة القاهرة العامية : وهما « معلهش » و« بقشيش » . معلهش ، السيارة خدشت ، معلهش ، الطفل جاهل ، معلهش ، الماكينة تعطلت ، معلهش ، هناك ثلاثة أيام ــ أوثلاثة أشهر ــ تأخير معلهش مسيو ، قالها موظف فى القنصلية المصرية فى إيطاليا لـ ungaretti بعد نسيان تحرير تأشيرته مما جعله لايستطيع اللحاق بالسفينة إلى الاسكندرية . والغمغمة بمعلهش تمثل لامبالاة تتناسب مع الفجوة بين السعر والتكلفة ، بين الجهد والأجر : فأجور الكفاف تثمر جهود معلهش . والتعويض عن هذه الفجوة يسمى « البقشيش » أو« الفساد » .

ورغم أن شكل « معلهش » للمقاومة الفردية يمنح من يستخدمه قدرا ضئيلا لكن لايمكن إنكاره من الحرية ، فإن إلغاء تأثيراته من خلال البقشيش . له عواقب وخيمة على النظام الاجتماعى ــ السياسى ، حيث يدعم الفرد الذى يمتلك النقود ، والذى ينظم توزيع البقشيش من أجل إلحاق الأذى بالجماهير المعدمة . و بينما يسخر ديالكتيك معلهش و بقشيش من النظام الاجتماعى و يعبر عن استخفافه به ، يعمل على الحفاظ على النظام فى التحليل النهائى .

وهذا مادفع الجماهير التى ظلت أحوالها المعيشية غير محتملة ، رغم هذه المتنفسات « البسيطة » التى تعبر من خلالها عن سخطها ، للتحول إلى متنفسات أخرى ، إلى الأنماط الأكثر تطورا من أنماط مقاومة سوء الحظ والظلم ، إلى هذه الأنماط التى حددها سيد عويس فى نهاية قائمته : أى إلى الهجرة والتمرد .

وهذه المتنفسات التقليدية قد لا تمثل سوى تكتيكات مؤقتة وجزئية لا تقود إلى استراتيجية لإسقاط الدولة والاستيلاء على السلطة . والأمثلة على ذلك عديدة ، منها الهجرة إلى الخليج ، والعودة بعد ذلك بعدة سنوات . ومنها جريمة الثأر المنتشرة فى المناطق الريفية . لكن هذا النمط استخدمه المجاهدون الإسلاميون ذات مرة ــ جماعة المسلمين ، والجماعات الإسلامية ، وفرع الصعيد فى جماعة الجهاد ــ للتحول إلى استراتيجية مضادة سعت لإسقاط النظام . وهذه الاستراتيجية المضادة قد تكتسب درجة من درجات السفسطة ، مثل نظرية شكرى مصطفى عن مرحلة الاستضعاف ومرحلة التمكن .

وقد أدركت الدولة تماما الخطورة التى تمثلها أشكال المقاومة التقليدية هذه ، حيث أنها تشكل عقبة ليس فقط أمام النظام القائم بل أيضا أمام أى محاولات « يعقوبية » لتغيير النظام الاجتماعى من أعلى . فهذا سعد زغلول ، مؤسس حزب الوفد الوطنى الكبير ورئيس وزراء عدد من الحكومات المصرية ، يكتب فى مذكراته : « لقد اعتاد الشعب أن ينظر إلى الحكومة كما ينظر الطائر إلى الصياد ... ويجب علينا أن نغير هذا الموقف بأن يثق الشعب فى الحكومة ويجب علينا أن نقنع الشعب بأن الحكومة جزء من الأمة . » . وعلى نفس المنوال يقول لطفى السيد ، المفكر المصرى الجنيل فى مصر مابين الحربين : « لن يندهش أحد منا لأن يجد القرويين يبذلون قصارى جهدهم لحماية أحدهم إذا اتهم بارتكاب جريمة ما ولمنع القضية من الوصول إلى المحكمة . فالحكومة وموظفوها لايعملون لمصلحة الأمة ، والجماهير بالتالى تعرقل قرارات الحكومة ، حتى عندما تكون هذه القرارات عادلة تماما » (٤٥) .

وعندما استولى الضباط الأحرار على السلطة فى يوليو ١٩٥٢ ، عزموا على تغيير التاريخ من خلال الثورة من أعلى . ورغم ادعائهم الصريح بالعمل من أجل مصلحة الطبقات المظلومة فى مصر ، ورغم إلغائهم للأحزاب السياسية ، التى اعتبروها رمزا للحياة السياسية ومؤسساتها فى ظل النظام القديم ، إلا أنهم أعادوا تشكيل مؤسسات جديدة اعتبرها الشعب متساوية فى الظلم مع سابقتها ، إن لم تكن أكثر منها . حيث تحولت حماسة الناصرية الكبيرة للاشتراكية العربية ، بمواجهتها لحقائق الإدارة اليومية ، إلى آلة بيروقراطية أنتجت الروتينية وعدم

الكفاءة فى كل المجالات وقامت ببناء المعتقلات للذين أظهروا معارضتهم لها . وفى هذا المجال لم تختلف الدولة المصرية المستقلة على الإطلاق عن سابقاتها .

ومع ذلك ، فخلال العقود الثلاثة التى انقضت منذ انقلاب ١٩٥٢ وحتى اغتيال السادات فى أكتوبر ١٩٨١ ، طبقت الدولة سياسة تعليمية جديدة ، مكنت فئة ثقافية ــ اجتماعية عريضة من الوصول إلى الكلمة المكتوبة . وقد أطلق موريس مارتين ، وهو مراقب مرهف قضى نصف قرن فى تجواله فى مصر ، على هذه الفئة « الفلاحية »(٢٧) . وهى تشمل هؤلاء ــ والانفجار السكانى يعنى أن هناك أعداد متزايدة منهم ــ الذين جاءوا من طبقات اجتماعية كانت تقليديا أمية ، بما فى هذا جيل الشباب الذى ينتمى للحاضر . حيث أقحموا فى نظام تعليمى وصفنا مراحله العليا فى الفصل الخامس . وقد لقنهم هذا التعليم أسلوب الحياة العصرية ولم يلقنهم تقنياتها وروحها ، فاعتبروا حديث الدولة عن العصرية مجرد خداع . وفى صفوفهم ، أخذت مقاومة الظلم وسوء الحظ شكل الهجرة أو التمرد . وقد أمدت هذه الفئة حركة الإسلاميين بجمهورها الرئيسى ، وهذه الحركة كانت قادرة على أن تتبنى مباشرة تصوراتهم عن العدالة ، والتى قمعتها بعنف ذكريات إسلام الأمس ، ومن خلال حنينهم إلى القرية الأم التى ــ بالنظر إلى الأحياء المزدحمة فى أطراف المدن الكبيرة ــ أصبحت تقريبا أسطورة مثلها مثل العصر الذهبى للإسلام . كما كان المجاهدون الملتحون فى جلاليبهم الفضفاضة قادرين على التحدث بلغة اليوتوبيا التى تبدو مقنعة لهؤلاء الشباب . هذا الجيل الجديد الذى شعر بتعرضه للخداع . فالشباب كان حقل تجارب للتجارب الخرقاء للدولة المستقلة ، وهناك مبرر كافى للاقتناع بأنهم ، حالما يعاد تشكيلهم من خلال أيديولوجية الإسلاميين ، لن يقنعوا بعد الآن ، كما قنع الأكبر منهم سنا ، بديالكتيك معلهش و بقشيش .

● مظاهر اليوتوبيا :

منذ ذلك اليوم الغامض فى نهاية الخمسينات ، بينما كان نزيلا فى مستشفى معتقل طرة ، الذى كتب فيه سيد قطب تلك الفقرة من « معالم فى الطريق » التى قرر فيها أن الدولة الإسلامية سيتم تأسيسها من خلال « الحركة » وليس من خلال « الدعوة » حتى أكتوبر ١٩٨١ ، عندما اغتيل السادات على يد أحد قراء

« الفريضة الغائبة » ، انحصرت رؤية الإسلاميين الراديكالية فى أن العنف الثورى هو السبيل الوحيد لإسقاط الجاهلية ، البربرية التى تخلت عن أخلاقيات الإسلام . ومع هذا ، وعلى عكس هذه الرؤية ، تم صياغة عدد من النظريات المختلفة .

نظرية قطب عن الحركة ، التى تصور فى الأصل أنها ستعالج أخطاء استراتيچية الإخوان المسلمين ، كان المقصود بها صيانة مفهوم الجهاد ، النضال المقدس ، داخل حركة الإسلاميين من خلال تعريفه على أنه نضال فعلى ضد الدولة المستقلة التى أسسها عبدالناصر . والدولة ، رغم هذا ، أحبطت بشكل فعال كل المحاولات المختلفة التى سعى فيها المجاهدون الإسلاميون لمواجهة النظام مباشرة . وباستثناء أكتوبر ١٩٨١ ، كانت المؤسسات القمعية قادرة دائما على ضرب الحركة عندما تكتسب درجة من التنظيم تكفى لتقديم دليل مادى على « مؤامرة » ولكن قبل أن تجهز نفسها للمواجهة ، ولهذا السبب فإنه لم يتم وضع تعريف للأشكال الدقيقة لتكتيك الاستيلاء على السلطة . فهناك أمثلة كثيرة على هذا التكتيك ، من بينها « مؤامرة ١٩٦٥ » ، التى مكنت عبدالناصر من شنق سيد قطب ، وقضية الفنية العسكرية عام ١٩٧٤ ، والمواجهة مع جماعة المسلمين عام ١٩٧٧ (عام رحلة السادات للقدس) ، وأحداث الفتنة الطائفية فى الزاوية الحمراء فى يونيو ١٩٨١ .

ومن هذه الناحية ، يمكن الزعم بأن حدود « معالم فى الطريق » كبرنامج عام (مايننفستو) قد اتسعت بشكل واضح . حيث أن سحق جماعة شكرى مصطفى (جماعة المسلمين) كان بمثابة علامة بارزة على فشل الاستراتيچية التى قامت على الاقتضاء بالنموذج النبوى ، وتصورها للتعاقب المتوقع لمرحلتى الاستضعاف والتمكن ، بنفس الصورة التى اتبعها الرسول ، الذى كان ضعيفا فى مكة قبل الهجرة واكتسب القوة بعد انسحابه إلى المدينة .

لقد حط سيد قطب بشدة من شأن قدرة الدولة على الرد ومن شأن تماسك الأيديولوچية التى قدمتها هذه الدولة ، على مختلف « العقبات التى تعترض طريق الشباب » والتى حددها الطبيب الشاب عصام الدين العريان ، قائد الجماعات الإسلامية ، عندما قام بمسح لمهام حركة الطلبة الإسلاميين فى فجر القرن الخامس

عشر للهجرة . وفى واقع الأمر، فإنه رغم اقتناع الجماهير « الفلاحين » بنظريات الحركة التعبوية ، فقد عجزت الحركة عن فصل الطبقات الاجتماعية الأخرى عن النظام . كما أن استيعاب قطب ومقلديه تم بشكل متشابه تماما من خلال لغتهم البلاغية الخاصة : ورغم أن نموذج المعتقل يمنح طريقة فهم مليئة بالكنايات للدولة الناصرية التى تحدثت بصوت أعلى من أى عدد من التحليلات النظرية المغرقة فى التدقيق ، إلا أن الصورة لم تكن كافية مع ذلك لكى تمنح المجاهدين المستعدين للقتال أى فهم حقيقى للميكانزمات التى تحافظ الدولة من خلالها على سيطرتها على المجتمع . بينما حط شكرى مصطفى والجماعات الإسلامية من البراعة التى جمعهم بها البوليس السرى فقط ليطيح بهم دفعة واحدة و بسهولة شديدة . وتصورت الجماعات فى يونيو ١٩٨١ أن التضامن الإسلامى سيتحول لصالحهم ضد كل من الأقباط والدولة ، التى فشلت فى إدراك أن الجماهير المصرية لم تشعر بالولاء للأمة فى شكلها الأسطورى الذى أحيته حركة الإسلاميين ، وأن هذه الجماهير لم تقطع صلتها بشكل جذرى بقيم الأمة المصرية ككل ، هذه القيم التى كان الإسلام أهم عناصرها ، إلا أنه لم يكن العنصر الوحيد .

إن الصعوبات التى وقفت عقبة أمام انتصار عنف الإسلاميين على جهاز الدولة والحاجة إلى إعطاء المجاهدين شيئا ليفعلوه يفسران تركز عدوانية الطلبة الإسلاميين وأعضاء جماعة الجهاد على أهداف غير الدولة . وقد ذكرت قبل ذلك تأثير ذلك على الجامعات ، حيث رسخ الطلبة الملتحون المعنى الذى فهموه للنظام الأخلاقى ، الأسياخ الحديدية فى الأيدى ، ومهاجمة كل شاب وفتاة يتمشيان سويا ، حظر العروض السينمائية والحفلات الموسيقية ، وتنظيم المحارق لكتب الداروينية ، والماركسية ، والكتب الشيطانية الأخرى .

لكن اللحظة المشهودة جاءت خلال مشاركة حركة الإسلاميين فى أحداث الفتنة الطائفية . حيث جذب العنف المعادى للمسيحيين انتباه المراقبين الأجانب وأدى إلى التعيم على الأبعاد الأخرى للحركة ، أى أن الغابة حجبتها الأشجار .

وهذه الأحداث ، سواء شارك الإسلاميون فيها أو حرضوا عليها ، قد تم تحليلها بشكل عام وفقا لوجهتى نظر . الأولى تتلخص ببساطة فى أن المسلمين لونهم تعصب لايرتوى إلا بدم المسيحيين ، وأن المجاهدين الإسلاميين لم يفعلوا شيئا سوى

الوصول بهذا الموقف إلى أقصى مداه . ووجهة النظر الثانية كانت مقارنة ماحدث للأقباط خلال هذه الأحداث الطائفية بما أصاب الأقليات الأخرى خلال فترات التوتر الاقتصادى والاجتماعى : اليهود فى أوروبا ، السوريون واللبنانيون فى غرب أفريقيا ، والهنود فى شرق أفريقيا ، والأرمن فى تركيا ، والبهائيين فى إيران ، حيث كانت كل طائفة منهم بمثابة كبش فداء للجماهير المحبطة ، وكانوا هدفا للحكومات التى كانت تبحث عن الشرعية . ومع هذا ، فإن أى من الرؤيتين لا تسمحان لنا بفهم خصوصية الظاهرة . ففى نهاية وصفى لأحداث المنيا التى وقعت فى ربيع ١٩٨٠ ، استرعى انتباهى أن التوتر الطائفى لم يشتمل على طرفين ، أى المسلمين والمسيحيين ، بل اشتمل على ثلاثة أطرف ، حيث أن الدولة كانت طرفا فى الأحداث أيضا . ولن تصيبنا الدهشة إذا وجدنا هذه الأطراف الثلاثة بارزة بشكل واضح فى تعليق الشيخ كشك على الأحداث فى خطبته يوم ٦ يونيو ١٩٨١ :

« لقد كان هناك شغب فى عتمة الليل . نعم ، وقد كان شيئا مأساويا أن نرى المسيحيين يفتحون النار ، متخذين قلوب المسلمين أهداف لهم . فمنذ متى وللمسيحيين هذه الجرأة . . .

. . فمنذ أن دخل عمرو بن العاص مصر ، عاش المسيحيون والمسلمون معا دون أن يكون لديهم أدنى سبب للشكوى . . ولايوجد مكان فى الأرض تتمتع فيه أى أقلية بمثل هذه الحقوق الممنوحة للمسيحيين فى مصر ، فهم يشغلون أهم الوظائف : وزراء ، وأعضاء فى مجالس إدارات البنوك ، ولواءات ، والبابا ، الذى يجلس على كرس الكنيسة بكل سلطاته . . . أما بالنسبة لى ، فأنا أهمس له ، « أنبا شنودة ، أبعد عن عقلك تلك الرغبة فى إعادة السيطرة ، لا تفكر فى أنك ستكون يوما رأس هذه الدولة . . وإذا تصورت أن أمريكا ستحميك ، فاعلم أن الله هو الذى يحمينا ، الله الذى لايموت » .

من هو المسئول عن هذه المأساة ؟ المسئولية الأولى يتحملها الأزهر ! فلو وجد الشباب قادة حقيقيين يقتدوا بهم ، ما كان حدث هذا ! . . . المسيحيون يعرفون جيدا أنه منذ قيام الثورة ، أقيمت المحاكم لمحاكمة المسلمين ، هل قدم مسيحى واحد « لمحكمة الشعب » التى رأسها جمال سالم ؟ لا ، بل كان كل المتهمين

مسلمين : و« محكمة أمن الدولة العليا » التي حكمت على سيد قطب بالإعدام شنقا عام ١٩٦٥ ، في وقت لم يكن فيه دولة ولم يكن فيه أمن ! فقد كانت السجون مليئة ، وأنا نفسي تعرضت للاعتقال ، إلا أنني لم أقابل على الإطلاق قسيسا واحدا ... أنظر إليهم ، هؤلاء الأقباط ، وهم متأكدون جدا من قوتهم و يتباهون بذلك .. أيها الشاب المسلم .

.. فالأنبا شنودة يريد أن يستفزكم حتى يلجأ لأمريكا ، و بريطانيا ، وفرنسا ليرسلوا أساطيلهم إلى شواطىء مصر ، تحت ستار اضطهاد الأقلية » .

وفي هذه الفقرة الموجزة ، صور المسلمون على أنهم ضحايا لقمع الدولة ، بينما يثقل كاهل المسيحيين مايتمتعون به من ألقاب و يشغلون الوظائف الهامة . و وفقا لكشك ، فإنهم يتلقون دعم الحاكم ، رغم أنهم ليسوا بمسلمين ، لإلحاق الأذى بالمسلمين .

وقبل عام من إلقاء « نجم الدعوة الإسلامية » لهذه الخطبة ، نشرت وثيقة مصرية ترجع إلى القرن الرابع عشر ترجمها مستشرق فرنسي شاب . وهي تحكي عن شغب معادي للمسيحيين نشب في مدينة قوص ، في صعيد مصر ، كما يرويها أحد الشيوخ الذي اتهم الأقباط « بالاستفادة من مزايا وظائفهم لدى الأمراء لكي يحصلوا على امتيازات لبني جلدتهم ولإرهاق المسلمين » . وقد وصف نفس هؤلاء الأمراء بأنهم « مسلمون غير متحمسين ومنحرفون وضعوا مصلحتهم الشخصية فوق مصلحة الإسلام » ، وآثروا « السلطة والثروة على العدالة التي عينوا من أجل فرضها » (١٣) .

وفي حقيقة الأمر ، فإنه على الرغم من أن الأقباط ، طوال التاريخ الممتد لمصر المسلمة ، قد شغلوا العديد من المناصب الرسمية (موظون لدى الدولة) ، خاصة جباية الضرائب ، فمن الواضح بنفس الدرجة أن وصفهم ككل على أنهم موظفين لدى الدولة لن يكون منصفا على الإطلاق ، وكذلك بالنسبة لوصفهم بأنهم « لواءات ، ووزراء ، ورؤساء لمجالس إدارات البنوك » . فأكثرية الأقباط يعملون بالزراعة مثلهم مثل مواطنيهم المسلمين . لكن محاجاة الإسلاميين ، مثلها مثل حجة الشيخ كاتب الوثيقة السابقة ، كانت تستهدف ضرب الدولة ، من

خلال ضرب المسيحيين ، تلك الدولة التى زُعِمَ تفضيلها لهم . وفى فكر الإسلاميين ، يجهل المسيحيون الأخلاق المسلمة والعدالة كما جاءا فى القرآن ، وهى الأخلاق الوحيدة الحقة ، والعدالة الوحيدة الحقة . إنهم من ثم على استعداد ، فى مقابل الألقاب والثروات ، لتقديم أنفسهم كأدوات للحاكم الظالم ، لتنفيذ نزواته وسياسته الآثمة . و بالنسبة للجماعات الإسلامية ، لايمكن تشبيه المحافظ المسيحى مثل محافظ جنوب سيناء الذى تم تعيينه عام ١٩٨٠ بالمحافظ المسلم : فوفقا لرأيهم هو يسعى لإساءة استعمال وظائفه ، لكى يحابى أبناء دينه ، و يلحق الأذى بالمسلمين ، و يقوم بمايرضى نزوات الحاكم .

و بالنسبة لحركة الإسلاميين ، فأن تهاجم الأقباط هو أن تهاجم الدولة . وهى لاتهتم كثيرا بالضحايا ، بالطبع ، سواء اغتيلوا أو ضربوا بالهراوات لأنهم يعتقدون بأن المسيح ابن الله أو لأن مهاجميهم اعتبروهم أدوات تنفيذ لنزوات الحاكم الظالم لكن ومع ذلك فإن حالة أحداث الفتنة الطائفية من ذلك النوع الذى وقع فى نهاية السبعينات كانت بديل لحركة الإسلاميين لعجزها عن ضرب الدولة مباشرة .

وسنحاول هنا أن نصوغ « موازنة » مؤقتة لنشاطات الحركة ، حتى اغتيال أحد أعضاء جماعة الجهاد للسادات فى السادس من أكتوبر ١٩٨١ . أولا ، من خلال النجاح فى القضاء على الرئيس نفسه ، أظهر عنف الإسلاميين فعاليته (قتل المستبد) وعدم جدواه أيضا ، وهذ لايعود فقط لاستمرار ية الدولة التى أسسها عبدالناصر ، لكن أيضا بسبب استمرار نظام السادات ، حيث استمرت الشخصيات القيادية فى نظامه فى شغل الوظائف الرئيسية فى الجهاز الاقتصادى والسياسى .

وهناك أيضا عدة عوامل مجهولة ستحدد ما إذا كان كتاب « الفر يضة الغائبة » سيحل محل « معالم فى الطر يق » أو على العكس من ذلك سيسدل عليه ستائر النسيان مثل كتابات شكرى مصطفى التى يتعذر الحصول عليها الآن . لكن كتاب المهندس الشاب سيتجاوز ، فى رأيى ، سيد قطب ، إذا لم يكن يعبر باختصار عن عصر جديد فى فكر الإسلاميين . فقد ظهر « معالم فى الطر يق » بعد الهزائم التى لقيتها جماعة الإخوان المسلمين منذ ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٤ ، ودعى لطر يق النضال ضد الجاهلية ، بربر ية القرن العشر ين ، تماما كما حاول كتاب

« الفريضة الغائبة » أن يقيِّم أسباب فشل حركة الإسلاميين ضد نفس الجاهلية منذ عام ١٩٦٥ . حيث طرح فى مواجهة استراتيجيات الانسحاب من المجتمع ، وإعادة بناء المجتمع ، التى دعمتها جماعة المسلمين وطلبة الجماعات الإسلامية تصورا أبسط وأكثر فعالية اقتضى استئثار السياسة . وكان الهدف الرئيسى للجهاد ، كما أكد فرج على ذلك ، هو استئصال الفرعون .

فى الشرق الأوسط الذى عرفته فى الثمانينات ، والغريب تماما عن المقولات السياسية الغربية ، تهدد رسالة النبى محمد بأن تصبح أكثر إصرار وصلابة كلما استفحلت لعنة الفرعون .

کرونولوچیا

تسجل الكرونولوجيا العديد من الأحداث الرئيسية التي وقعت في مصر في الفترة من ١٩٢٨ وحتى ١٩٨٢ . والفقرات التي لا تسبقها أي إشارة تشير إلى الأحداث التي تخص حركة الإسلاميين . بينما تشير الفقرات التي تسبقها علامة * إلى الأحداث الأعرض في الحياة السياسية المصرية .

١٩٢٨

تأسيس حسن البنا لجماعة الإخوان المسلمين في الإسماعيلية .

١٩٣٣

إقامة المؤتمر الأول للإخوان المسلمين في القاهرة .

١٩٣٦

الإخوان يجمعون التبرعات لعرب فلسطين .

* توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

١٩٣٧

التقارب بين الإخوان والقصر في مواجهة الوفد .

* تتويج فاروق ملكا لمصر .

١٩٣٩

انشقاق جماعة « شباب سيدنا محمد » ، وإدانتها للبنا بسبب تسوياته مع النظام .

* بداية الحرب العالمية الثانية .

١٩٤٠

الاتصال الأول بين البنا والسادات من أجل تحرير مصر من الاستعمار البريطاني .

١٩٤١

إبعاد البنا إلى الصعيد بناء على أوامر بريطانية .

* مظاهرات لتشجيع قوات المحور .

١٩٤٢

* فبراير: وزارة وفدية فرضتها على الملك الدبابات البريطانية.
* القبض على السادات لاتصاله بالألمان.

١٩٤٣

تكوين «الجهاز السرى» للإخوان المسلمين.

١٩٤٤

* نهاية وزارة الوفد.

١٩٤٦

تشجيع الحكومة للإخوان المسلمين فى نضالهم ضد الوفد والشيوعيين.
* جوعنيف.. وصدامات عديدة بين جماعات سياسية متنافسة.. ومفاوضات أنجلومصرية لتحرير مصر من شروط معاهدة ١٩٣٦.

١٩٤٧

معارضة داخلية ورد فعل غاضب إزاء قوة «الجهاز السرى».
* تصويت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين.

١٩٤٨

يناير: اكتشاف مخابيء أسلحة تعود ملكيتها لجماعة الإخوان المسلمين.
* الحرب فى فلسطين. واتصالات فى الجبهة بين متطوعى الإخوان وضباط من جماعة ناصر.

مارس: اغتيال «الجهاز السرى» لأحد القضاة.

إبريل: متطوعون من الإخوان يحاربون ضد الصهاينة.

يونيو ــ سبتمبر: * أحداث عنف معادية لليهود وللأوروبيين فى القاهرة.

نوفمبر: كشف النقاب عن وجود جهاز سرى للإخوان.

ديسمبر: حل الإخوان المسلمين بسبب مسئوليتهم عن « محاولات لقلب نظام الحكم القائم ، والإرهاب ، والاغتيال » .

* شغب ضد مباحثات الهدنة العربية الإسرائيلية .

١٩٤٩

اغتيال حسن البنا على يد البوليس السرى فى ١٢ فبراير. وتولى صالح عشماوى قيادة جماعة الإخوان المنحلة .

١٩٥٠

* حكومة وفدية فى السلطة .

١٩٥١

مايو: إعادة تشكيل الإخوان قانونيا .

أكتوبر: * إلغاء مصر لمعاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد . وصدامات مع القوات البر يطانية الموجودة فى مصر .

ديسمبر: تعيين القاضى حسن الهضيبى مرشدا عاما للإخوان المسلمين ، وخليفة للبنا بشكل رسمى .

١٩٥٢

يناير: انتقاد الهضيبى للعنف ، وخلافات بين عامة الاعضاء والمرشد العام .
* مهاجمة الجيش الإنجليزى لأحد أقسام البوليس المصرى . وفى اليوم التالى (١٦) خربت أحداث الشغب المعادية للغرب مدينة القاهرة .

يوليو: * انقلاب عسكرى تقوم به جماعة الضباط الأحرار.
تأييد حماسى للأنقلاب من جانب عامة الإخوان .

سبتمبر: الهضيبى يرفض عرض الضباط الأحرار بتمثيل الإخوان المسلمين فى الحكومة .

١٩٥٣

الجهاز السرى يفلت من يد المرشد العام .

يناير: * حل كل الأحزاب السياسية (١٦) وتكوين دولة الحزب الواحد. واستثناء الإخوان المسلمين من قرار الحل.

نوفمبر: طرد عبدالرحمن السندى، رئيس الجهاز السرى، من الجماعة.

ديسمبر: طرد صالح عشماوى (رجل ناصر) ومحمد الغزالى من الإخوان المسلمين.

١٩٥٤

يناير: حل جماعة الإخوان المسلمين.

فبراير: * صراع بين عبدالناصر ونجيب، والأخير، دعمه الإخوان السابقون، والوفديون، والشيوعيون، ووقف عقبة أمام استئثار منافسه بالسلطة المطلقة.

أغسطس: اختفاء المرشد العام من الحياة العامة ولجوءه إلى العمل السرى.

أكتوبر: محاولة أحد الإخوان المسلمين اغتيال ناصر فى الاسكندرية (٢٦). وحملة قمع عنيفة جدا شنتها الدولة ضد الإخوان.

نوفمبر: محاكمة سريعة لقادة الإخوان.

ديسمبر: شنق ستة من المتهمين (٩)، من بينهم عبدالقادر عودة. والزج بمئات منهم فى المعتقلات.

١٩٥٥

* إقامة مؤتمر باندونج.

١٩٥٦

* تأميم قناة السويس.

١٩٥٧

مايو: ذبح واحد وعشرين من الإخوان فى سجن طرة. ولقاء زينب الغزالى وعبدالفتاح اسماعيل فى مكة لكى يعيدوا «انطلاق الإخوان المسلمين».

٥٨ ــ ١٩٦٢

* فترة الوحدة المصرية السورية.

١٩٦٢

توحيد مختلف جماعات الإسلاميين حول نواة إعادة تشكيل الإخوان المسلمين. واطلاعهم على كتاب سيد قطب « معالم فى الطريق ».

١٩٦٤

* إرسال الجيش المصرى إلى اليمن.

مايو: إطلاق سراح سيد قطب من السجن.

١٩٦٥

أغسطس: * ناصر فى موسكو، ومن هناك كشف النقاب عن « مؤامرة جديدة للإخوان المسلمين ».

أغسطس ـ سبتمبر: حملات قمع ضد الإخوان. واعتقالات واسعة، وقد كان من ضمن المعتقلين شكرى مصطفى.

١٩٦٦

٢٩ أغسطس: إعدام سيد قطب.

١٩٦٧ ـ ١٩٧١

تكوين تيار من تيارات الإسلاميين، فى المعتقل، ينادى بتكفير المجتمع.

١٩٦٧

يونيو: * حرب الأيام الستة. وهزيمة تلحقها إسرائيل بالدول العربية.

١٩٦٨

فبراير: * مظاهرات طلابية ضد المسئولين عن الهزيمة.

نوفمبر: * مظاهرات طلابية جديدة.

الإخوان المسلمون فى المنصورة يشاركون فى مظاهرات نوفمبر.

١٩٧٠

أكتوبر: وفاة ناصر، وخلافة السادات له.

١٩٧١

مايو: ٭ إبعاد السادات (١٥) للناصريين الموالين للسوفييت فى « ثورة التصحيح ».

الإفراج عن المجاهدين الإسلاميين الذين اعتقلوا فى ظل عهد عبد الناصر.

وقد كان شكرى مصطفى وعمر التلمسانى من بين هؤلاء المفرج عنهم.

١٩٧٢

يناير: ٭ مظاهرات طلابية تنادى بالحرب مع إسرائيل.

نوفمبر: ٭ مظاهرات جديدة.

: تيار الإسلاميين يواجه الناصريين والشيوعيين فى الجامعات.

١٩٧٣

مولد الجماعات الإسلامية. والقبض على أعضاء ينتمون لجماعة المسلمين (جماعة شكرى مصطفى)، والعفو عنهم بعد أكتوبر.

أكتوبر: ٭ الحرب ضد إسرائيل. وتشجيع النظام للجماعات الإسلامية.

١٩٧٤

٢١ إبريل: هجوم جماعة صالح سرية على الكلية الفنية العسكرية.

١٩٧٥

يناير: مظاهرات ينظمها اليسار. وبداية سياسة الانفتاح الاقتصادى

١٩٧٦

مارس: سيطرة الجماعات الإسلامية على مؤتمر اتحاد الطلاب.

يوليو: إعادة إصدر مجلة « الدعوة ».

نوفمبر: شكرى يهاجم « المرتدين »، والقبض على بعض المجاهدين، مع عدم تقديمهم للمحاكمة

١٩٧٧

يناير: ٭ أحداث شغب فى القاهرة ضد الزيادة فى أسعار المدعومة.

يوليو: إختطاف الشيخ الذهبى (٣) بواسطة جماعة المسلمين. واغتياله فى (٧) يوليو.

يوليو ـ نوفمبر: القبض على أعضاء جماعة المسلمين ومحاكمتهم.

نوفمبر: ٭ رحلة السادات للقدس (٨).

١٩٧٨

النظام يسلب الجماعات الإسلامية نجاحها فى انتخابات الطلاب .. وحركة الإسلاميين بأكملها، وبمختلف اتجاهاتها، تنتقد بعنف «السلام المخزى مع اليهود».

١٩٧٩

مارس: ٭ توقيع اتفاقية كامب ديفيد.

مايو: ٭ زيارة السادات للأقاليم، وهجومه على حركة الإسلاميين.

يونيو: ٭ إعادة تشكيل إتحاد الطلاب لانهاء سيطرة الإخلاميين عليه.

: مصادرة عدد من أعداد «الدعوة».

١٩٨٠

إبريل: ٭ زيارة السادات للولايات المتحدة وتعرضه لانتقادات المغتربين من الأقباط.

أحداث عنف بين الأقباط والجماعات الإسلامية فى أسيوط. ولقاء فرج وزهدى، قائدا فرعى جماعة الجهاد

١٩٨١

يوليو. شغب طائفى ينشب فى حى الزاوية الحمراء بالقاهرة.

سبتمبر: حظر الجماعات الإسلامية، ومصادرة صحف الإسلاميين. والقبض

على الإخـوان المسـلمين الجـدد وعلى الشيخ كشك . وقرار خالد الإسلامبولى قتل السادات .

* اعتقالات السادات لـ ١٥٣٦ معارض ، وعزله بابا الأقباط ، ومنعه صحف المعارضة من الصدور.

أكتوبر: * اغتيال السادات (٦) .

تمرد فى أسيوط (٨)

المصادر

الكتب والمقاولات :

١ ــ عبد الرحمن أبو الخير « مذكراتي مع جماعة المسلمين » ، الكويت ، ١٩٨٠ .

٢ ــ حسن العشماوى « الإخوان والثورة » ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٣ ــ ARNALDEZ, Roger. Jésus Fils de Marie, Proehete de l'Islam, paris 1980.

٤ ــ يوسف العظم « رائد الفكر الإسلامي المصرى ، الشهيد سيد قطب » دمشق بيروت ١٩٨٠

٥ ــ سالم البهنساوى « الحكم وقضية تكفير المسلم » ، القاهرة، ١٩٧٧ .

٦ ــ BERGER, Morroe, Islam in Egypt Today, Cambridges, Mass. 1970

٧ ــ طارق البشرى « تاريخ الحركة السياسية في مصر ، ١٩٤٥ ــ ١٩٥٢ » ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٨ ــ طارق البشرى « سيبقى الغال ما بقى التغريب » ، العربي ، العدد ١ ، الكويت ١٩٨٢ .

٩ ــ BOURDIEU, Pierre, Genèse et structure de champ rili gieux, Revue francaise de sociologie, XII, 1971.

١٠ ــ DEKMEJIAN, R.Hrair, Egypt Under Nasser, London 1972.

١١ ــ GAROET, L. and AW ATI, G., Introduction a la théologie musul mave, Paris 1948.

١ ــ زينب الغزالي « أيام من حياتي » ، بيروت ــ القاهرة ١٩٧٩ .

١٣ ــ GRIL, Denis, «Une émeute antichrétienne a Qus-» Annales islamologiques, XVI, 1980.

١٤- HAYEK, Michcl, Le Christ de L'Islam, Parixs 1959.

١٥- حسن الهضيبى « دعاة لا قضاة » ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

١٦- HUSSEIN Mahmud, Class Conflict in Egypt. 1945-1970, New York 1973

١٧- IBRAHIM, Sa'd al- Din, «Anatomy of Egypt's M. htant Islamic Groups[47], in International Journal of Middle East Studies, No 12, 1980

١٨- عبدالله إمام « عبدالناصر والإخوان المسلمون » ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

١٩- JANSSEN, J.J.C, «The voice of Sheikh kishk' in Al SHEIKH et al. , ed, The Challenge of the Middle East. Amsterdam 1982.

٢٠- صلاح خالدى « سيد قطب ، الشهيد الحى » ، عمان ١٩٨١ .

٢١- عبدالرحمن خليفة « الإخوان المسلمون فى سطور» ، ١٩٨٠ .

٢٢- LAOUST, Henti, Contribution à l'étude de la methodologie canonique d'Ibt Taimiyya, Cairo 1939.

٢٣- LAOUST, Henri, Contribution a l'etude de la méthodologie canonique d'Ibn Taimiyya, Cairo 1939.

٢٤- LAOUST, Hemri, Le Traité de Droit public d'Ibn Tai'miyya (French translation of Ibn Taimiyya's al- Siyasa , al- Shariyya). Beirvt 1948.

٢٥- LAOUST, Henri, Les Schismes dans L'Islam, Paris 1945.

٢٦- MARTIN, Mauricep «Egypt: les modes informels du changement» , in Etudes, April 1980.

٢٧- MARTIN, Maurice P., «University Expansion and Student Life in Egypt» , in CEMAM Reports, no. 4, 1975.

٢٨- MARTIN, M P and MASAD, R.M. «Al- Takfir wal-Hijra, a Study in Sectarian Protest, in CEMAM Reports, 1977.

٢٩- أبو الأعلى المودودى « المصطلحات الأربع فى القرآن » الكويت ١٩٧٧ .

٣٠- MITCHELL, R.P., The Society of the Muslim Brothers, Oxford 1969.

٣١- سيد قطب « معالم فى الطريق » دار الشروق ، بيروت - القاهرة ، ١٩٨٠ ، وطبعة اتحاد الطلاب الإسلامى العالمى ، دون مكان محدد للطبع

٣٢- عبد العظيم رمضان « التنظيم السرى للإخوان المسلمين » ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٣٣- جابر رزق « مذابح الإخوان فى سجون ناصر» ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٣٤- جابر رزق « مذابح الإخوان فى ليمان طرة » ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٣٥- ٣٦- SABANEGH, Edeward, Muhammad, portraits contentporains, Rome 1982.

٣٧- «Student Agitation in Egypt» in CEMAM Report, No 1, 1972- 73.

٣٨- (An Egyptian student), L'impatience paralysée: réflex- on sur le récent mouvement des étudiante en Egypte, in Travaux et Jours, no. 42, 1972.

٣٩- WISSA- WASSEF Cérès: Le pouvoir et les ét udiante en Egypte, in Maghred- Machrek. 57

٤٠- LAOUST, Henri, Politique de Ghazali, Paris 1970.

٤١- ABENSOUR Miguel, «l'utopie socialiste: une nouvel; alliance de la politique et de la religon», Le Temps de la réflexion, Paris 1981.

ARISTOTLE, The Politics, T A lair Sinc t, trans, —٤٢
Harmondsworth 1962.

BLOCH, Ernst, Thomas Munzer als Theologe der—٤٣
Revolution, Munich 1921.

CERTEAU, Michel de, L'invention du quotikien 1- Arts—٤٤
de faire, Paris, 1980.

HOUR ANI, Al bert, Arabic Thought in the Liberal Age,—٤٥
Oxford 1970

MARX, K., and ENGELS, F., Sur la religion, —٤٦
Paris, 1972.

MORABIA Alfred, «Lo Notion de Jihad dans l'islam —٤٧
medieval» unpublished thesis, 1975,

UWAYS, Sayyid, «Sur quelques modes égyptiens —٤٨
derésistance à l'oppression et aux épreuves», in Modes
populaires d'action politique, mimeographed, no. 2, Ceri,
Paris 1983.

الدوريات

١ ــ مصر :

ــ يومية : الأهرام ، والأخبار ، والجمهورية .

ــ أسبوعية : روز اليوسف ، وأكتوبر ، ومايو ، والشعب ، والمصور ، وصباح الخير .

ــ شهرية : الدعوة ، والاعتصام ، والمختار الإسلامى .

٢ ــ لبنان :

ــ يومية : السفير ، والنهار ، والأنوار ، و L'Orient- Le tovr .

ــ أسبوعية : النداء .

ــ شهرية : الشهاب .

٣ ــ الكويت : السياسة (يومية) .

٤ ــ السعودية : المدينة (يومية) .

٥ ــ بريطانيا : المسلمون (شهرية) .

٦ ــ فرنسا : Le Monde .

Agence France- Preddr. (dispatches of th Cairo bureau).

رقم الايداع : ١٩٨٨/٧٥٢٤
ترقيم دولى : × ــ ١٠٦ــ ١٣٣ــ ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ــ ت : ٣٩١١٨٦٢

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ت : ٧٥٦٤٢١

طبع بالمطبعة الفنية ت : ٣٩١١٨٦٢



النبي والفرعون

تأليف : جيلز كيبل
ترجمة: أحمد خضر

مكتبة مدبولي